
مغامرات
سيف بن ذي يزن

طبعَـة دار الشروق الأولى
أكتوبر ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

فاروق خورشيد

مغامرات



دار الشروق

الإهـــداء

إلى أخى الشقيق الأستاذ حمدى خورشيد
تحية تقدير وعرفان لما قدمه من حب وصبر،
مساهما فى تعبيد الطريق ، وتجاوز المحن

فاروق خورشيد

تقديم

حين أقدمنا على التجربة الأولى فى محاولة تقديم احدى السير الشعبية المعروفة تقديما يتلاءم مع حاجة المتلقى المعاصر ، كان هدفنا أن نرد على الكثير من الاتهامات الظالمة التى شوهت صورة السير الشعبية عند الدارسين والنقاد بخاصة وعند متلقى الأدب فى بلادنا العربية بصفة عامة. فقد وقفت هذه الاتهامات حائلا كثيفا دون الاعتراف بالسير الشعبية كأعمال أدبية تمثل مرحلة من مراحل انتاجنا الروائى ، وتحمل بكل ما فيها من ضعف وقوة سمات هذه المرحلة وخصائصها .

وكنا ـ حين أقدمنا على هذه المحاولة ـ نتقدم فى حذر وتردد ، فقد كان من رأينا أن هذه السير من الممكن أن تمثل التمهيد الطبيعى لفننا الروائى ، وكان الدليل الوحيد الذى يمكن أن يهدم هذا الرأى أو يثبته هو مدى تجاوب المتلقى العربى اليوم لهذه الأعمال ، فان قبلها فهو بهذا يجد فيها أصداء حقيقية لما يتردد فى نفسه فى عالمى الحلم والحقيقة من تطلعات نفسية ومن بقايا فنية مترسبة فى أعماقه وان لم يقبلها فهى أعمال مرحلية لا تمثل إلا العصر الذى تلقاها دون أن تمتد فى الماضى أو المستقبل أى امتداد. . .

ثم جاء المتلقى المتحمس لسيرة سيف بن ذى يزن فى صياغتها الجديدة حين نشرت فى عددين من روايات الهلال الدليل الحى على صدق الرأى الذى ذهبنا إليه من أهمية هذه السير فى تراثنا ومكانها فى دنيا الأدب

العربى . ولهذا كان من الطبيعى أن نمضى فى التجربة إلى نهايتها ، وأن نحاول اكمال تقديم هذه السيرة الشعبية العظيمة لتكون بصورتها الكاملة تحت يد الدارسين تطرق أبوابهم بنفسها بعد أن تعالوا عليها وعلى زميلاتها فرفضوا أن يذهبوا إليها فى مظانها . . ولتكون أيضا تحت يد المتلقى الجديد من طلائع الجيل يجد فيها الغناء عن روايات المغامرات العفنة التى لا تحمل مضمونا يرتبط بتاريخه وتراثه ، أو بقضاياه وأهدافه ومثله . ويجد فيها أيضا ما يربطه بالروح العربى الذى حفظته هذه الاعمال حيا نابضا فيها عبر الاجيال وعبر القرون . ثم لتكون أيضا تحت يد أديب وفنان العصر يستمد منها مادة غنية لعمله ، ومجالا ثريا لحركة أداته الفنية ، فتخصب عن اصالة وتنتج عن عمق .

* * *

والسير الشعبية بعامة تنقسم من حيث تطور شخصية البطل فيها إلى مراحل عدة ، تمثل كل مرحلة منها جزءا من حركة البطل منذ مولده إلى أن ينتهى من أداء رسالته ، فيسلمها أمانة فى يد غيره حين يدركه الموت الذى هو نهاية كل حى ، ولكنه ليس نهاية للرسالة التى يمثلها والهدف الذى يسعى من أجله . .

وقد سبق أن قسمنا هذه المراحل [1] إلى مرحلة التكوين أو المرحلة الذاتية . ثم مرحلة الفروسية ، فالمرحلة الملحمية ، فمرحلة الامتداد . . وفى عملنا الأول فى سيرة « سيف بن ذى يزن » وقفنا عند المرحلة الأولى وهى مرحلة التكوين أو المرحلة الذاتية وهذه المرحلة فى سيرة « سيف بن ذى يزن» كشبيهاتها فى السير الشعبية الأخرى، تتناول البطل منذ مولده

---

(١) راجع فن كتابة السيرة الشعبية

وحتى اكتمال أدواته وتمام نضجه . والسير تعتمد فى هذه المرحلة على وجود صراع درامى ضخم يجابهه البطل منذ خروجه إلى العالم يشل من حركته ويقيد وجوده ، ويدفعه بالتالى إلى محاولة التغلب على عوامله وقهرها ليؤكد وجوده ويرسم معالم بطولته ، فإذا ما انتهى الصراع بفوزه فقد اكتملت لنا شخصيته ، كما اكتملت له سمات البطولة الجسدية والنفسية التى تؤهله ليقوم بدور البطل الفارس الباحث عن المغامرة التى يحقق عن طريقها العدالة ، وينشر الحق والسلام فى المرحلة التالية .

* * *

وإذا كنا قد ذهبنا إلى أن الهدف الموضوعى من سيرة « سيف » هو رسم موقف العرب من الاحباش خلال الحروب الصليبية ، فنحن نذهب إلى أن الهدف الآن من هذه السيرة هو رسم صورة الإنسان فى بحثه القلق الدائب عن المعرفة والمتعرض لكل أسباب الهلاك من أجل حصوله على خبرة جديدة تزيد فهمه لعالمه الذى يعيش فيه .

وفى مغامرات « سيف بن ذى يزن » تظهر هذه الصورة بشكل واضح فنحن نلتقى بـ « سيف بن ذى يزن » البطل ، وهو يخوض معارك رهيبة ومغامرات مثيرة . . بحثا عن المعرفة وتطلعها نحو الادراك والفهم ، ممثلا صورة ابدية للنفس الإنسانية التى لا تقنع بما تعرف أبدا . .

وهو فى نفس الوقت يفرض مبادئه التى تتبلور فى الحب والعودة إلى الانسان فى صورته الطبيعية التى شكله الخالق عليها ، مريدا حرا يتحكم فى مصيره بنفسه . . ويعيش معركته مع غرائزه المركبة فيه ليكشف خبراته بنفسه وليرسم مصيره بيديه . .

* * *

وإذا كنا فى « سيف بن ذى يزن » قد خضعنا إلى حد كبير للنص نفسه، فنحن هنا أكثر حرية فى التحرك مع النص ومن خلاله مستغلين خبرات الصورة الفنية التى اخترناها لنقدم لك فيها هذا العمل ، وهى الرواية ، ومحاولين تعميق المفاهيم وربطها بقضايا الإنسان المعاصر التى هى فى نفس الوقت قضايا متجددة ، ان تغيرت صورها فلن تتغير طبيعتها وجوهرها ، ولعل هذا الجهد - آخر الأمر - يلفت إلى ما نحاول اثباته من وجود تراث ثرى حى فى أدبنا الشعبى ، آن الأوان لنتعرف عليه ونجنى منه خير الثمار وابقاها وأجودها . . والله الموفق . .

فاروق خورشيد

شخصيات الرواية

الملك سيف بن ذى يزن
الملك قاسم العبوس
الملك أبو تاج
برنوخ الساحر
الملك افراح
اخميم الطالب
الامير دمر
عيروض المارد
عاقصة
الملك قان شاه
الغيدروس
العادى
نور الهدى

الحكيمة عاقلة
المشهار
سعدون الزنجى
الملكة منية النفوس
سابك الثلاث
الامير مصر
الامير نصر
ميمون الهجام
الوزيرة مرجانة
شامة
طامة
الجيزة

ـ ١ ـ

ظهرت أسوار مدينة حمراء اليمن من بعيد ، وأشعة شمس الضحى تتألق عليها فتبدو كجوهرة أصيلة يبعث منظرها فى النفس شعورا بالرضى واحساسا بالراحة والامان . . والتفت الملك « سيف » وهو يعتدل فوق جواده إلى الملك « أفراح » الذى ركب عن يمينه وهو يقول :

ـ ها هى « حمراء اليمن » متألقة دوما ، كأنها شابة فى ريعان فتوتها . .

وهز الملك « أفراح » رأسه مؤمنا ، وهو يربت على عنق فرسه ليهدئ من حركته ، وهو يقول :

ـ أنها مدينتك يا بنى ، ومدينة أبيك ، فلا عجب أن أحسست بالحنين اليها وبالسعادة فى العودة إلى رؤيتها سالما . .

وقال الملك « أبو تاج » وهو يدفع جواده ليلحق بهما ، ويحتل مكانه إلى جوار الملك « سيف » .

ـ سنكون هناك قبل الظهر . .

وتطلع الملك « سيف » وراءه إلى فرسانه الثلاثة الكبار ، وهم يجلسون فوق جيادهم صورة حية للبطولة والرجولة ، «ميمون الهجام » و « دمنهور الوحش » و « سابك الثلاث » ، وتذكر كيف أسرهم فى ميدان القتال واحدا أثر الآخر فتسلل إلى قلبه احساس بالرضى والسعادة ، أن ملكا يتبعه مثل هؤلاء الفرسان ليحق له أن يتيه على ملوك الأرض ، وصاح :

ـ سعدون . .

وارتفع صوت « سعدون » الزنجى وهو ينفصل عن بقية فرسانه السود، ويسرع إلى مقدمة الموكب قائلا :

ـ مولاى . .

ـ ارسل أحد رجالك لاخطار المدينة بمقدمنا ، وليحمل تحياتى إلى «برنوخ» الساحر والحكيمة « عاقلة » . .

واستدار « سعدون » بجواده ليعود إلى مؤخرة الموكب حيث كان يسير على رأس رجاله يحملون الصيد ويحرسونه ، وجعل الملك « سيف » ويتأمل حركته الواثقة فوق جواده . . فارس مخيف ، اسمه وحده كفيل بهزيمة الجيوش ، وارسال الرعب فى قلب أقوى الفرسان وأشدهم قسوة وضراوة . . وسرعان ما انفصل أحد فر سان « سعدون » عن المؤخرة ، وانطلق بجواده كالسهم نحو المدينة التى تبدو أسوارها فى الافق . .

وأستأنف الملك « سيف » سيره الخبب ، وعلى يمينه الملك « أفراح » وعلى يساره الملك « أبو تاج » ووراءه فرسانه الثلاثة « ميمون » و«دمنهور» و « سابك الثلاث » ومن خلفهم « سعدون » على رأس فرسانه ، ومعهم حصيلة رحلة صيد طويلة ، غمس الملك سيف نفسه فيها عله ينسى ذكرى أمه التى لقيت مصرعها أمامه ، وفى قاعة عرشه ولم يستطع أن ينقذها من بين أيدى أحب الناس إليه . .

وأحس بيد قاسية تضغط على قلبه وتملأه بالمرارة وهو يتذكر أمه ومصرعها ، وامتلأت نفسه بالحنق والألم وصورة زوجاته وهن يشرعن السيوف فى أيديهن لتلقف جسد أمه و « عاقصة » أخته فى الرضاع تقذف بها من سقف القاعة لتمزقها السيوف المشرعات . . تملأ الصورة الخلاء أمام عينيه ، وتحجب عنه أسوار المدينة التى تقترب تدريجيا ، وتنغص عليه صفو اليوم المشرق الجميل . . كيف أمكن لـ « شامة » و « طامة »

و« منية النفوس » و « الجيزة » أن يقمن بهذا العمل الفظيع وهن زوجاته وأمهات أولاده ؟!

مهما كان العذاب الذى تحمله من بطشها وقسوتها فهى أمه ، ومهما كان حقدها عليه وتآمرها على هلاكه فهى أمه . . حقا لقد قذفته وهو طفل إلى الصحراء ليموت جوعا وعطشا أو ليفترسه وحش جائع . . وحقا حاولت قتله أكثر من مرة ، بل ان جسده يحمل آثار سيفها البتار الذى جعلت تضربه به وهو يشرب . . يوم خدعته فخرج معها إلى الصحراء بحثا عن كنوز مزعومة تركها أبوه واطمأن اليها فرقد يشرب وغدرت به فطعنته ، ولكنها مع هذا كله أمه وليس من حق أحد أن يقتلها دون أن يلقى عقابه . .

و « عاقصة » . . أنها من يوم هذه الحادثة الملعونة اختفت تماما لم تعد تزوره أو تسأل عنه ، أنها لن تجرؤ . . فهى تعرف مقدار حنقه عليها ، وماذا تفهم هذه الجنية من عواطف البشر ، وكيف لها أن تدرك أن عاطفة البنوة تغفر كل شىء . . آه لو وقعت « عاقصة » بين يديه لأذاقها من العذاب ما لن تنساه ، ولن يغفر لها أنها أخته فى الرضاع ، ولا أنها كانت خير معين له وقت شدائده . .

لقد أضاعت بتآمرها على أمه كل حق لها فى التوبة والمغفرة . . لقد شلت يده يومها عن عقابها فى الحال بهذه الحركة البارعة التى رتبتها حين دخلت الجوارى يحملن أولاده « مصر » و « نصر » و « دمر » . . لقد نسى برؤيتهم حقده وألمه . . وأخذت نسمة رقيقة تداعب قلبه لتزيل عنه سحابة الحقد الأسود التى كانت تغلفه ، وأخذت وجوه أولاده الصغيرة البريئة الحلوة تملأ عينيه ، وتسللت بسمة حانية إلى شفتيه . . وأخذت أفكاره تهدأ وتنتظم . . لقد عفا عن زوجاته اكراما لهذه العيون الصغيرة

الحلوة ، قطعة منه ، قطعة حية تتطلع إلى الغد المشرق . . وملأت البسمة وجهه وهو يتحول بجسده فوق جواده يتطلع خلفه إلى رجاله ، ثم يشير بيده وينطلق إلى المدينة فى سرعة وقد ملأ قلبه حنين طاغ لرؤية أولاده ، وضمهم إلى صدره ، والتأمل فى وجوههم السمحة العذبة . .

* * *

حين وصل رسول الملك «سيف» إلى المدينة كانت الحكيمة « عاقلة » تجلس مع « برنوخ » الساحر فى قاعة العرش ، وكانا يتهامسان ومظاهر الجد والاهتمام تظهر بجلاء على وجهيهما . . . وحين انتهى الرسول من ابلاغ النبأ هب « برنوخ » الساحر من مكانه يصدر الاوامر إلى رجال القصر ليستعدوا لموكب الاستقبال الذى سيخرج ليكون فى استقبال الملك العائد ، بينما نهضت « عاقلة » فى بطء وسارت فى تثاقل نحو قصر ابنتها «طامة » وفى عينيها نظرة قلق وحيرة . .

كان الملك « سيف » معتادا على أن يترك أمر المدينة لها ولـ « برنوخ » الساحر كلما تغيب عنها ، وفى كل مرة كان يعود ليجد الاحوال فى مدينته كما يتمنى لها دائما أن تكون ، وتتدعم ثقته فى صديقيه « برنوخ » الساحر والحكيمة « عاقلة » أم زوجته طامة ، ولكن هل سيجد الامور هذه المرة كما اعتاد أن يجدها عند كل عودة . . وهل سيستطيع « برنوخ » و « عاقلة» بالذات ـ أن يظلا محتفظين بثقته الأكيده فيهما . . ان ما حدث فى غيابه هذه المرة شيء مخيف ومؤلم ، وهى لا تكاد تدرى كيف ستلقاه بالانباء ، وكيف سيتلقى هو هذه الانباء القاسية المفجعة . .

وما أن اقتربت من جناح ابنتها « طامة » زوجة الملك حتى هرعت إليها « طامة » وعلى وجهها آثار الفزع والقلق ، وأمسكت بيديها تعصرهما فى قلق وهى تقول :

ـ أسمعت ؟ . . أنه جاء . . جاء . .

فهمست « عاقلة » و بصوت حاولت أن تجعله هادئا مطمئنا :

ـ حمدا لله يا ابنتى على سلامته . .

وتعثرت الكلمات وهى تخرج من بين شفتى « طامة » مرتجفة خائفة :

ـ ولكنه سيعرف ، سيكتشف الأمر ، وسيكون غضبه قاسيا ورهيبا .

ودفنت رأسها فى صدر أمها وهى تبكى وجسدها كله يرتجف ، وصوتها الخائف يخرج كالهمس :

ـ وسيكرهنى ، سيكرهنى . . أنى أخاف كراهيته أكثر مما أخاف انتقامه . .

وربتت « عاقلة » على كتف ابنتها « طامة » فى حنان ، وهى تقول فى صوت هادئ :

ـ كفى يا ابنتى ، كفى . . تعالى ، سأريك شيئا . .

واستسلمت « طامة » إلى أمها ، وهى تقودها فى رفق إلى نافذة ضخمة تطل على مؤخرة القصر . . ووسط الحديقة الصغيرة التى تحيط بالجناح المجاور كان يبدو شاهدا قبرين حديثى البناء ، وكان أحدهما كبير الحجم، بينما كان الثانى صغيرا وحولهما انتشرت أحواض الزهور ، وغرست أشجار الورد الصغير ، وقالت الحكيمة « عاقلة » فى حزم :

ـ هما هنا ، يرقدان هنا . .

واندفعت « طامة » تقول وهى تمسك يد أمها فى عصبية :

ـ ولكن . .

لكن الحكيمة « عاقلة» وضعت اصبعها على شفتيها محذرة ، وهى تقول :

ـ ليس هناك لكن . . لقد اصيبت بالحمى وماتت ودفناها بعد أن

عجز الطب والحكمة عن شفائها . .

ـ وابنها ؟ . .

ـ أصابته العدوى منها ومات ، ودفناه إلى جوارها فى هذا القبر الصغير . .

ـ ويصدق ؟ . .

ـ ان كل من بالقصر يعرفون هذه القصة ويحفظونها جيدا ، ولن يجد ان أراد السؤال الا ما يؤيد ما سوف تحكينه له . .

وبدا الذعر واضحا فى عينى « طامة » وهى تتحول عن النافذة بسرعة لتواجه أمها ، وهى تقول فى صوت مخنوق :

ـ أنا ؟! . .

ـ من الطبيعى أن يقصد إليك فى أول عودته فأنت أحدث زوجاته ، وستلقينه مرحبة مستبشرة ، لكن ينبغى أن يلحظ أن هناك حزنا تحاولين أن تخفينه عنه ، ويحاول هو أن يعرف سر هذا الحزن . . ولكننى أنصحك يا ابنتى ألا تخبريه الا وهو فى قمة صفوه ، عسى أن يخفف هذا من وقع الصدمة عليه .

وهنا ارتفع صوت النفير ايذانا باستعداد الموكب لمغادرة المدينة ليكون فى استقبال الملك « سيف » فأسرعت الحكيمة « عاقلة » تضم ابنتها إلى صدرها ، ثم تتركها مسرعة لتأخذ مكانها على رأس الموكب إلى جوار الساحر « برنوخ » . .

ـ ٢ ـ

كان الملك « سيف » يجلس أمام الشاهدين وعيناه شاخصتان ولكن لا تريان شيئا . . فأمامهما ينثال سيل من الرؤى يحجبه عن الحاضر وينقله إلى ماضيه المليء بالاحداث الحية المتحركة ، وبالآمال الغضة الندية . . يدفعه القدر من مغامرة إلى مغامرة ، ومن صراع من أجل الحق إلى صراع من أجل الحق ، وهو فى كل مرة يخرج أكثر قوة ، وأكمل أداة ، وأشد استعدادا لمواجهة ما تأتى به الاقدار . .

ولكن ها هو هنا اليوم يجلس ساهما أمام قبرين يضمان أعذب أمانيه وأرق أحلامه . . وتندت عيناه بالدموع ووجه « منية النفوس » الجميل البسام يظهر أمام عينيه تماما كما بدا له فى أول يوم رآها فيه . . هناك فى البستان المسحور حين أنزلته « عاقصة » ليستريح وهو فى طريق العودة إلى بلاده ، وهناك حيث جاءت مرفرفة بثوبها الريش هى وجارياتها الاربعين، ثم خلعن أثوابهن ليقضين يوما بين مياه البحيرة المطلسمة ، أميرة بينهن . . درة بين نساء العالم ، جوهرة تتألق بالبهاء والجمال والشباب . . أجل كانت النور الذى أشرق فى قلبه فجأة فاحتواه ولم يعد يرى الا هى ، ولم يعد يفكر الا فى الحصول عليها . .

واختفى وجهها من أمامه تدريجيا ، وهو يحس بيد قوية تعتصر قلبه عصرا ، تحل محلها وسط ضباب الدموع الذى يملأ عينيه صورة وجه ابنه

«مصر » الوجه الطفل الحلو بابتسامته البريئة ، ونظرات عينيه المعابثة . . ولكن الوجه كان يبكى ، وتتقلص الجبهة الرقيقة ، وتزول البسمة البريئة لتحل محلها تقطيبة ألم وتعاسة ، وصوت الصراخ يملأ أذنيه والطفل يبكى بعيدا بعيدا ، ابنه « مصر » يبكى وهو مشلول إلى جوار قبره ، لا يستطيع أن يتحرك وكأنه هو الذى مات ، وصراخ الطفل يشتد ، وأصبعه الصغيرة تشير إلى عينيه ، ورأسه تطن ، والدنيا تدور . .

وارتفع صوت الحكيمة « عاقلة » وهى تقول :

ـ لقد أهلكت نفسك من الحزن يابنى . . عشرون يوما وأنت لا تغادر هذا المكان ، وكأنما ما عدت من رحلة الصيد إلا لتجلس رفيق هذين القبرين .

ورفع رأسه اليها ، وهو لا يكاد يراها من وسط غيوم كثيفة تقف كالسد الحائل بينه وبين أن يرى شيئا ، وهمس :

ـ لقد ماتا « منية النفوس » وابنى « مصر » . . ماتا . .

وصمتت الحكيمة « عاقلة » وهى تنظر اليه فى تأمل وتفكير ، ثم قالت :

ـ أيفعل بك الحزن كل هذا ؟ . . كلنا سنموت . .

ـ ولكنى كنت أصيد وألهو ، وأقفز هنا وهناك ، وهما هنا وحدهما يعانيان المرض ، ويتجرعان الموت دون أن أكون إلى جوارهما . .

وتقطعت الكلمات فى فمه ، وتحول الهمس عند شفتيه إلى حشرجة . . وكانت الدموع تسيل من عينيه فى صمت ، وهى تقف أمامه ذاهلة مأخوذة أمام هذا الحزن العظيم ، وعادت تقول فى صوت هادئ مصمم :

ـ وأمور مملكتك ، وشئون جندك ، وأحوال رعاياك . . !

ـ ويمضى « مصر » أيام دنياه فى ظلام القبر وحده ، فى دنيا الموت ،

دون أن يرى شيئا من مجد أبيه ، من حلاوة مدينته ، من متع الحياة ! .

ـ وزوجاتك الاخريات ، وابناك « دمر » و « نصر » . .

ـ كان سيصبح فارسا كبيرا يمسك بيده سيفه ، ويرد عن مدينتى الأعداء ، ويحرس شيخوختى من رذائل الضعف ، ويعمر الأرض ، ويملؤها عدلا ، وحبا ، وأمنا .

وكفت الحكيمة « عاقلة » عن الحديث ، وظلت تنظر إليه مفكرة ، وقد بدا على وجهها وجوم غريب . .

ـ وحين يقول « دمر » أخى ، يجيبه « مصر » لبيك . . وحين يعادى «نصر » أكثر الفرسان بطشا ، وأشدهم قساوة ، وأوفرهم رجالا . . يخشى أن يواجهه فوراءه أخوه « مصر » زينة الفرسان وخير الرجال . .

واستقرت المعركة فى داخل الحكيمة « عاقلة » واكتسى وجهها طابع العزم والتصميم ، واقتربت من الملك « سيف » ووضعت يدها على كتفه :

ـ اذن قم فهاته ، عد به إلى مدينتك . .

وماتت الكلمات على شفتى الملك « سيف » وأخذ يتطلع إليها فى ذهول كأنها لا يفهم ما تقول وهمس :

ـ أعود بمن ؟ . .

ـ بابنك « مصر » وأمه « منية النفوس » . . !

ـ أعود بهما ؟ . . من القبر ؟ . . من الموت ؟ . .

وأشتد صوته ، وهو يقول فى انفعال :

ـ أنا قهرت الفرسان فى كل ميدان ، جعلتهم عبيدا لى ، وكسرت سيوفهم فوق ترسى ، وضعت خوذاتهم عند مواضع قدمى . . أنا صارعت الجن فى كل ميدان وأمام صولتى فروا ، ثم سقطوا كالشهاب . .

وقد أحرقتهم نار غضبى . . أنا طفت بالبحار السبعة ، تحمينى قوة الحق، أنا عبرت الأمصار والمهالك اخترقت السماء البكر التى لم تعنو لانسان قبلى . . فوق ظهور الجن ركبت الهواء ، وقهرت السماء . . ألف مهلك خضته وعدت منه ، ألف هاوية ترديت فيها وخرجت ، من أعماق بلاد الغيلان استنقذت « شامة » ومن قصر المارد المختطف استنقذت «ناهد»، ومن حول قصر الملك « سام » المطلسم جئت بـ « الجيزة » ومن البحيرة التى صنعتها أقلام الحكمة اختطفت « منية النفوس » ولم يردنى عنها ما صنعه الحكماء ، وما ابتناه السحرة ، ومن وسط حراس كتاب النيل القساة جاءت « طامة » . . ولكن الموت ، هذا شىء لم أصارعه ، ولم يصارعه أحد قبلى ، فعند الموت يستسلم اعتى الملوك ، وأقوى الجبابرة، وفاتحو المدن ، مشيدو الاهرامات . . كالعبيد انتثروا عند قدميه جميعا ، كالعجزة كالمشلولين ، كأننا فراخ ضعيفة شلتها نظرة عين الثعبان . . الثعبان يقترب ويقترب وفمه فاغر يبين عن أنياب . . ولكن لا مهرب . . !

ـ لم أطلب منك أن تخوض من أجلهم بحار الموت . .

فهب الملك « سيف » واقفا ، وهو يتحامل مسندا جسده الضعيف على شاهد قبر ابنه وقال :

ـ اذن فكيف تطلبين منى أن أذهب لاحضرهما . . من أين ؟

وأطرقت الحكيمة « عاقلة » ، ثم رفعت رأسها ونظرت إليه وهى تقول :

ـ من جزائر البنات . .

وأجفل الملك « سيف » وهو ينظر إليها مندهشا ، وهو يقول :

ـ هذه بلاد « منية النفوس » ، جزائر واق الواق . .

ـ وإلى هناك حملت « منية النفوس » ابنها وطارت . .

ـ حملت ابنها ؟! . . طارت . . ؟!

ـ لم نكن نريد أن نخبرك بالأمر حتى لا تورد نفسك موارد التهلكة فى البحث عنهما ، ولكن خير لك يا بنى أن تموت وأنت تحاول انقاذهما من ان يقتلك الهم والحزن هنا . . ؟

وظل الملك « سيف » لحظات واجما وهو يحدق فيها ، وكأنما يستوعب كلماتها . . ثم اندفع إليها ممسكا بها من كتفيها وهو يهزها صارخا :

ـ لم يموتا ؟! . . « مصر » لم يمت ، و « منية النفوس » . . اذن فهما أحياء ، وكان يصرخ طالبا منى أن أنقذه ، أنا أبوه ، وسوف أنقذه . . ولكن ، هذان القبران . . ؟!

وربتت الحكيمة « عاقلة » على كتفه ، وهى تقول فى حنو :

ـ اهدأ يا بنى وسأقص عليك الحكاية . . ان هذين القبرين لا يضمان شيئا ، أما « منية النفوس » فقد كانت تسمر ذات ليلة عند « طامة » التى تركت لديها الثوب الريش ، لتحتفظ به ، وكانت معهما زوجتاك « شامة » و « الجيزة » ، وكنت أنا هناك . . وكان النهار نهار سمر وضحك ولعب واستبد بنا المرح ، وقامت كل واحدة من زوجاتك ترقص وتغنى رقص قومها وغنائهم ، إلا « منية النفوس » التى استبد بها حزن دفين غريب . وحين طالبناها أن تشاركنا اللهو والمتعة ، وأن ترينا رقص قومها ، وأن تسمعنا غناءهم وأصرت أنها لا تستطيع من هذا شيئا إلا اذا ارتدت الثوب الريش . . وأمام الحاحها ، والحاح الموجودين ، وأمام وعدها أن ترتديه لحظات ثم تعيده مرة أخرى ، قامت « طامة » وأحضرت لها الثوب الريش ، فارتدته وجعلت ترقص وتتطاير فى أرض القاعة وسمائها ، حتى أذهلتنا جميعا عن أنفسنا بجمال رقصها ، ورشاقة خطوها ، ورقة صوتها ،

وهبطت الينا وهى تقول انها ستذهلنا بالرقص وهى تحمل ابنها داخل ثوبها الريش ، ووسط ما كنا فيه من ضحك وسرور ، لم يشك أحد فى نيتها ، فأحضرنا لها ملاءة من حرير ، وضعت فوقها ابنها وحملته داخل ثوبها وسط ضحكنا وكلمات مداعباتها ، ورقصت به لحظات ثم طارت فجأة إلى أعلا نافذة ووقفت هناك ، وظلت واقفه ـ رغم كثرة ما طلبنا منها أن تنزل الينا ـ وأحسست قلوبنا بها تدبر فجأة فكففنا عن الضحك وأخذنا نتوسل إليها أن تنزل وأن تعود الينا ، ولكنها قالت :

ـ لقد طال حنينى إلى بلدى وأهلى ، ولست أستطيع أن أترك ابنى بعيدا عنى . . ولهذا فأنا ذاهبة به إلى بلادى ، أما ان سأل عنى الملك « سيف » فقولوا له : لن تراها ولن ترى ابنك مرة أخرى ، إلا ان كان لك من الهمة والعزم ما يدفعك إلى الذهاب إلى جزائر البنات التى هى احدى جزائر واق الواق ، ثم طارت واختفت عن عيوننا ، رغم صيحاتنا المتوسلة . . !

وصمتت الحكيمة « عاقلة » وهى تنظر فى وجهه التى بدأت تعود الدماء اليه وتقول :

ـ وخشينا عليك . . وخشينا أن تدفعك همتك إلى تعقبها إلى جزائر البنات ، وهى سفرة مهلكة قد لا تعود إلينا منها . . وخشينا أن تتهمنا بالاهمال فى رعاية زوجتك وابنك ، وأن تتهم « طامة » بالاهمال فى الاحتفاظ بالثوب الريش . . وهكذا صنعنا هذين القبرين وأشعنا قصة موتهما ، لتصرفك عن أن تؤذى نفسك ، وتصرف عنا أذاك . . وقد عرفت الحقيقة الآن فافعل بنا ما تشاء . .

وكان الملك « سيف » فى دوامة متباينة من الأحاسيس والانفعالات ، فينتقل من أقسى الحزن إلى بصيص الأمل الذى سرعان ما يشوبه اليأس الذى يخفف منه التصميم والعزم على أن يستعيد زوجته وابنه حتى وان

كانوا فى جزائر واق الواق ، وقال للحكيمة « عاقلة » :

ـ أنا لا أفكر فى الانتقام ولا فى القصاص ، فليس يجدى البكاء على ما فات ، وإنما أنا أفكر الآن فى كيفية السفر اليهم والعودة بهم . .

وأطرق الملك « سيف » ، ثم رفع رأسه فى هدوء وقد زالت من عينيه النظرة الذاهلة ، وحلت محلها نظرة مليئة بالعزم والتصميم ، وقال فى صوت آمل :

ـ عند الفجر يجتمع كل العسكر ، ويخرج كل الجيش على رأسه كل الملوك والفرسان . . عليهم أن يصطفوا غدا فى خارج المدينة ، وسألقاهم مع أشعة الشمس الأولى لنبدأ البحث عن الغائبين .

- ٣ -

كان للأمر الذى أصدره الملك « سيف » بحشد جيوشه وقواته ، وجمع فرسانه وأعوانه ، أثر كبير فى نفوس رجاله الذين لازموه فى معظم أحداث حياته ، فلم يكن لهذا الأمر ما يبرره فيما يجرى حولهم من أحداث . . فالمدينة تعيش فى سلام ، و « سيف أرعد » عدوهم اللدود قد كف أذاه عنهم منذ هزموه وسحقوا جيوشه فى آخر لقاء بينهم ، والملك حزين على زوجته وابنه ، وقد تناثرت الاشاعات أنه يلازم القبرين اللذين يضمان رفاتهما . .

ودخل « سعدون » الخيمة التى يجتمع فيها قادة الجند . . وأمارات الحيرة والدهشة بادية عليه ، وقد كان يتوق إلى أن يجد الملك « سيف » يستوضحه جلية الأمر ، ولكنه وجد العقد قد اكتمل ، دون أن يحضر الملك « سيف » بنفسه . . كان هناك « برنوخ » الساحر والحكيمة «عاقلة»، كما وقف فى أحد جوانب الخيمة الملك « أفراح » و الملك أبو «تاج » وهما يتهامسان ، بينما وقف « ميمون الهجام » و « دمنهور الوحش» و « سابك الثلاث » صامتين فى الناحية الأخرى من الخيمة . . ورفع «سعدون » يده بالتحية للجميع ، ثم اتجه إلى الفرسان الثلاثة ، فتبادل معهم تحية الصباح ، وأخذوا يسألونه عن سبب اجتماعهم ، وسر هذا الامر المفاجئ الذى أصدره الملك « سيف » . . وقبل أن يجيبهم انضم إليهم باقى من فى الخيمة ، وكلهم يسأل نفس السؤال ، ماعدا الحكيمة

«عاقلة » التى جلست بعيدة عنهم ترقبهم ، وعلى وجهها بسمتها الهادئة .

ولم يكن غريبا أن يظن الجميع أن « سعدون » يعلم من أمر الملك «سيف » مالا يعلمون . . فهو أول من انضم إلى لواء الملك « سيف » منهم ، وهو أقربهم إلى قلبه للصداقة الوطيدة التى نشأت بينه وبين الملك «سيف » فى المعارك الكثيرة التى خاضاها جنبا إلى جنب . . ولكن الغريب أن « سعدون » نفسه لم يكن يعرف شيئا ، وأن دهشته بصدور هذا الأمر لم تكن تقل عن دهشتهم ، وكادوا يتهمونه بمحاولة اخفاء الحقيقة عنهم ، لولا أن حسم الأمر صوت الحكيمة « عاقلة » الهادئ ، وهى تقول :

ـ ان « سعدون » مثلكم جميعا لا يعرف من الامر شيئا ، وأنا نفسى لا أكاد أعرف نيات الملك « سيف » رغم أنه كلفنى باستدعائكم . . وعلى أية حال فلن يضيرنا الانتظار قليلا ، فسرعان ما يكون الملك « سيف » بيننا ، يخبرنا بما يريد . .

ولم تكد الحكيمة « عاقلة » تنتهى من كلامها حتى دخل إلى الخيمة الملك « سيف » وهو يرتدى ثياب الحداد ، وعلى وجهه تقطيبة حزينة وكان الملك « سيف » فى كامل عدته ، وقد توشح بأسلحته ويسير إلى جواره طفله الصغير « دمر » وقد البسه ثياب احد الفرسان .

ورد الجميع تحيته وقد أخذوا أماكنهم المعتادة حوله ، ثم أخلدوا إلى الصمت تاركين له أن يبدأهم بالحديث ، محترمين حزنه وصمته . .

وكان الطفل الصغير « دمر » يجلس إلى جوار أبيه ، وعلى وجهه مظاهر الجد التى لا تتناسب مع سنه الغض ، إلا أنه كان فى ثياب الفرسان هذه ، يحمل ملامح كثيرة من أبيه الفارس الكبير ، واستقرت عينا «سعدون » عليه فى افتتان واعجاب ، وهو يرى فيه مخائل فارس واعد ،

بينما قبله جده الملك « أفراح » فى زهو ورضا ، وهو يلمح فى ابتسامته صورة ابتسامة ابنته « شامة » العذبة . . وقطع عليهم صوت الملك «سيف» الهادئ الحزين ، الأفكار التى بدأت تغزو رأس كل منهم على حدة ، وهو يقول :

ـ لقد جمعتكم لأودعكم ، فانى سأغادركم فى رحلة لا أعرف نتيجتها ، ولا مدتها .

وعم الوجوم والصمت الخيمة الكبيرة ، واستمر الملك « سيف ابن ذى يزن » يقول :

ـ ان بعضكم يعرف أننى حين عدت من رحلة الصيد ، أخبرت أن الملكة « منية النفوس » قد ماتت هى وابنها « مصر » . . ولكنى علمت بالأمس أن هذا الخبر غير صحيح ، وأن « منية النفوس » قد عادت مع ابنها إلى بلدها ، طائرة بثوبها الريش ، وأصبح لزاما على أن أذهب لأبحث عنهما وأعيدهما إلى حمراء اليمن ، وقلبى يحدثنى أن مكروها قد حل بهما . . ولست أستطيع أن أصبر لحظة عن محاولة انقاذهما ، مهما كلفنى هذا الأمر . .

وصمت الملك « سيف » لحظات أسرع فيها « سعدون » قائلا :

ـ ونحن جميعا وراءك أيها الملك ، ولن يستعصى علينا ـ ونحن خير الفرسان ـ أن نستردهما من أعتى الجيوش وأقواها . .

فرفع الملك « سيف » يده مقاطعا اياه وهو يقول :

ـ لا جدوى من هذا فنحن لا نعرف طريق جزائر البنات ، بل وليست للجيش قدرة على الوصول إليها . . فهى بلاد بعيدة جدا لم تقطع « منية النفوس » المسافة بيننا وبينها الا بالاستعانة بالثوب الريش المطلسم . . وسيحملنى « عيروض » فى رحلتى اليها ان كان يستطيع ، فان لم

يستطع فسأستعين بأختى « عاقصة » . .

فقالت الحكيمة « عاقلة » :

ـ ولكنك أغضبت « عاقصة » منك أيها الملك ، وهى تخشى انتقامك منها لو ظهرت أمامك .

فقال الملك « سيف » :

ـ انها أختى ولن تتخلى عنى وقت شدتى ، وهى تحب « منية النفوس » وابنى « مصر » ولن ترضى بتركهما لمصير مجهول . .

وما كاد الملك « سيف » ينتهى من كلامه حتى دوى فى المكان صوت جلبة شديدة ، ولمع ضوء ساطع ، ثم ظهرت « عاقصة » وهى تقول :

ـ اذن فقد عفوت عنى يا أخى . .

وهب الملك « سيف » واقفا وفى عينيه نظرة غضب ، بينما أسرعت الحكيمة « عاقلة » تتقدم نحوها مادة يدها فى ترحيب ، وهى تقول :

ـ أهلا يا « عاقصة » . . لقد حرمتنا من رؤيتك زمنا طويلا . .

فقالت « عاقصة » و هى فى مكانها عند مدخل الخيمة الكبيرة :

ـ لم يكن أخى محتاجا لى . . أما وقد احتاج لمساعدتى فها أنا ذا . .

ورقت النظرة الجامدة فى عينى الملك « سيف » وقال :

ـ انها « منية النفوس » وابنى « مصر » . .

فقالت « عاقصة » :

ـ لابد أنها توصلت إلى الثوب الريش ، وطارت إلى جزائر واق الواق بعيدا بعيدا عن متناول يديك . .

وصمتت « عاقصة » لحظات ، وهى تتأمل فى وجه أخيها ، ثم قالت :

ـ ان هذه مغامرة ليست ككل ما مر بك حتى الآن . . ولا أستطيع أنا أو « عيروض » أن ندخل جزائر واق الواق ، فهى جزائر مطلسمة بعلوم الاقلام . .

فقاطعها الملك سيف قائلا :

ـ اذن فأنت تتخلين عنى . .

ـ بل انى أبذل روحى فداء لك ، وأنت تعلم هذا . . ولحظة تريد أن تبدأ الرحلة أخبرنى ، وسوف أكون بين يديك . .

فابتسم الملك « سيف » ، وبدت على وجهه لأول مرة منذ دخل الخيمة ملامح الأمل وقال :

ـ اننى أعلم هذا يا « عاقصة» . وقد انتويت أن أبدأ رحلتى الآن . .

ثم التفت إلى رجاله وقال :

ـ وقد جمعتكم لكى أوصيكم بأنفسكم وبالعناية بشئون حمراء اليمن . .

وأمسك بيده يد ابنه الصغير ، وهو يقول :

ـ وقد جعلت عليكم « دمر » ابنى ملكا تحكمون المدينة باسمه لحين عودتى ، فان لم أعد فأنتم خير الأوصياء عليه ، حتى يبلغ رشده ، ويستقيم له الأمر فى ملك أبيه . .

فقال « برنوخ » الساحر :

ـ بل ستعود باذن الله ، وما أظن هذه الرحلة الجديدة ، الا لحكمة خفيت عنا ، يريد الله بها أن تكون رسول السلام والهداية لقوم أراد لهم ربهم خيرا ، فتوجه على بركة الله .

وقال « سعدون » :

ـ ولكنى أيها الملك أرى أن تأخذ منا من تريد ليعاونك فى أمر محنتك ، وليمكث بعضنا مع الجند فى المدينة . . لتأخذ منا واحدا أو اثنين . .

فقاطعه الملك « سيف » قائلا :

ـ لقد تقرر الأمر يا « سعدون » .. وسوف تبقون هنا جميعا ، ولست أوصيكم الا بولدى ..

وقام من مجلسه ، وأجلس فوق كرسيه ابنه الصغير « دمر » ووقف إلى جانب الكرسى ، وأشار إلى الملك « أفراح » أن يقف إلى الجانب الآخر من كرسى حفيده . . بينما تقدمت الحكيمة « عاقلة » والساحر «برنوخ » يقسمون يمين الولاء للملك الجديد ، وتقدم بعدهما « سعدون » وباقى الفرسان . . ثم تقدم بعدهم الملك « سيف » فقبل وجنتى ابنه ، وهو يقول :

ـ انى أوصيك يا « دمر » بالعدل فى الرعية ، والانصاف فى الفصل فى شئون الدولة . .

فقام الطفل الصغير من فوق كرسيه ، وقبل يد أبيه فى صمت ووقار، وانحنى عليه جده الملك « أفراح » يضمه فى صمت ويقبله وعيناه تتنديان بالدموع . . وهنا دخل إلى الخيمة أحد فرسان الحرس الذين نصبهم «سعدون » واقترب من « سعدون » وهمس فى أذنه ، ثم وقف ينتظر ما يأمره به رئيسه . . فاتجه «سعدون» إلى الملك « سيف » وهو يقول :

ـ لقد حضر « أخميم الطالب » وهو يريد أن ينضم الينا هنا . .

فقال الملك « سيف » :

ـ لقد حضر فى وقته ، حتى يبايع « دمر » ، فدعه يدخل . .

كان « أخميم الطالب » والد الملكة « الجيزة » زوجة الملك سيف قد غادر حمراء اليمن مع من غادرها من الفرسان ، بعد أن ماتت « قمرية » أم الملك « سيف » . . وبينما أسرع الفرسان بالعودة إلى المدينة بعد أن زاروا أهلهم وبلدهم ، تأخر هو فى العودة وقد أحس بالاطمئنان على الملك «سيف » الا أنه سمع بموت الملكة « منية النفوس » فأراد أن يعزى الملك «سيف » فى زوجته وابنه ، ولكنه فوجئ حين وصوله إلى حمراء اليمن بهذا الحشد الضخم من الجند ، فلم يتجه إلى المدينة وانما اتجه إلى خيمة الملك

مباشرة وحين دخل « أخميم الطالب » إلى الخيمة ، ابتدره الملك «سيف » قائلا :

ـ مرحبا بك أيها الحكيم . . لقد جئت فى وقتك ، فان الفرسان يبايعون الملك « دمر » على ولاية العرش بعدى حتى أعود . .

فدهش « أخميم الطالب » ، ولكن وجهه الهادىء لم يظهر شيئا من دهشته . . وتقدم يقف أمام الملك « دمر » الصغير ويبايعه ، ثم انحنى عليه وقبله ، وقال له الملك « سيف » :

ـ ان « نصر » ابن الملكة « الجيزة » وحفيدك ، ينبغى أن يظل الأخ الحبيب لاخيه « دمر » وأنا أوصيك بـ « نصر » ، أن تكون له خير والد فى غيابى ، كما أوصيك بـ « دمر » أن تكون له خير مشير .

وتقدمت الحكيمة « عاقلة » و « برنوخ » الساحر من « أخميم الطالب» مرحبين ، وقالت الحكيمة « عاقلة » موضحة الأمر إليه :

ـ أن « منية النفوس » لم تمت ، وكذلك ابنها « مصر » وانما هى سافرت بثوبها الريش إلى بلادها ، وقد أنتوى الملك « سيف » أن يسير فى طلبهما . .

فقال « أخميم الطالب » موجها الحديث إلى الملك :

ـ وفقك الله فى العثور على زوجتك وابنك ، وليس لك أن تخشى شيئا فى فترة غيابك ، فنحن جميعا نصون لك عرشك وبلادك وأبناءك . .

وأشار الملك « سيف » إلى « سعدون » . . فتقدم هو والفرسان . . «سابك الثلاث » و « دمنهور الوحش » و « ميمون الهجام » ناحية الملك الصغير ، ليصحبوه فى موكب رسمى حتى يبايعه الجند الذين اصطفوا خارج المدينة ، وتبع الملك « دمر » الحكماء الثلاثة « برنوخ » الساحر ، والحكيمة « عاقلة » و « أخميم الطالب » . بينما خلت الخيمة الا من الملك

«سيف» وأخته «عاقصة» ، التى تقدمت منه قائلة :

ـ أنت لم تخبرنى بعد أنك عفوت عنى ، وصفت نفسك لى . .

فقال لها وهو يخرج اللوح المطلسم ، الذى أخذه ذخيرة من قصر الملك «سام بن نوح» :

ـ سنتحدث فى هذا الأمر بعد أن تنتهى هذه المهمة ، فان ذنبك عندى عظيم وكنت قد أقسمت أن لا أراك أبدا . .

فقالت «عاقصة» :

ـ ان كل جرح إلى اندمال . . وعليك فقط أن تفكر فيما أنت مقدم عليه من أمر ، فهو مجازفة خطيرة ، ومخاطرة لم يسبقك اليها إنسان . .

فقال الملك «سيف» :

ـ سنبدأ رحلتنا الآن فورا ، مهما كانت المخاطر التى تتحدثين عنها . .

فقالت «عاقصة» :

ـ إذن استدع «عيروض» ليساعدنى فى حملك ، فان الرحلة طويلة ، والمسافة بعيدة . ولست أستطيع ألا أن أوصلك إلى حدود هذه الجزيرة ، لأن الجزيرة نفسها مطلسمة ، ولو دخلتها لاحترقت . .

وقال الملك «سيف» :

ـ لا عليك من هذا ، أحملينى إلى هناك ، وسيدبر الله أمرى . . ولو أننى أريد أن أعرف سر هذه الطلاسم ، ولماذا سميت هذه الجزيرة بجزيرة البنات كما أريدك أن تبصرينى بما أمامى من مخاطر ، حتى أكون متأهبا للقائها . .

فقالت «عاقصة» :

ـ أن هذا حديث طويل ، سأقصه عليك فى الطريق . . أما الآن

فاستدع « عيروض » لنبدأ الرحلة . .

ودلك الملك « سيف » اللوح المطلسم . . وسرعان ما حضر خادمه الجنى « عيروض » وهو يصيح :

ـ نعم يا ملك الزمان . .

- ٤ -

حين أحس الملك « سيف » بنفسه يطير بين السماء والأرض ، وقد حملته كتفا « عاقصة » و « عيروض » يطير إلى جواره ، امتلأ قلبه بحماس شاب ، وعاد اليه ذلك الاحساس القديم من القلق والتوتر ، الممزوجين بالرغبة فى تحدى المجهول ومواجهة الخطر . . وأحس بالحزن وهو يتراجع عن نفسه تدريجيا ، ليترك مكانه لروح العزم والتصميم ، واقترب «عيروض » منهما ليحمله بدلا من « عاقصة » لتستريح بعض الوقت ، وسرعان ما أحس الملك « سيف » بنفسه فوق كتفى خادمه الأمين الذى طالما حمله عبر الاخطار ، واجتاز به المهالك ، وقالت «عاقصة » وهى تطير إلى جواره :

ـ بعد قليل سننزل إلى غابة قريبة ، لتستريح بعض الوقت ، ونحضر لك طعامك

وقال لها الملك « سيف » :

ـ وما حاجتى إلى الطعام ، ان كل ما أريده هو أن أجد نفسى ، فى جزيرة البنات . .

فقالت « عاقصة » :

ـ وكأنك تستعجل الهلاك ، انك ان وصلت إلى الجزيرة ، لن تستطيع أن تعبر من بابها ، لان على بابها تمثالا مرصودا له ثلاثمائة وستون من الاعوان . . أن عبر من باب المدينة ذكر يصيح ، ويصيح لصيحته

أعوانه، وهم يرددون : ذكر دخل المدينة واسمه فلان ، بل وهم يحددون مكان وجوده ، فاذا ما سمع أهل المدينة منهم ذلك ، انطبقوا عليه ، يقطعونه بالسيوف بلا سلام وبلا كلام ، وأهل المدينة كلهم نساء ، ليس فيهن ذكر ، الا ملكهم ، وهو الملك العبوس أبو « منية النفوس » زوجتك، ولا تطمع نفسك فيهن ، فكلهن فارسات مدربات يتميزن بالشجاعة والاقدام ، ويخضن المعامع ، ويصطلين بنار الحروب . .

فقال الملك « سيف » :

ـ اذن فهذا هو سر تسمية الجزيرة بجزيرة البنات . . لقد حسبت أول الامر ، أنه مجرد اسم كالاسماء ، ولكن ها أنت تقولين أن الجزيرة فعلا لا يسكنها الا البنات

فقالت « عاقصة » :

ـ ان لهذه الجزيرة حكاية غريبة ، سأحكيها لك على الطعام ، أما الآن فسأتركك لأبحث عن مكان آمن تبيت فيه . .

وسرعان ما اختفت من أمامه ، مسرعه فى الطيران ، وهى تتطلع إلى الأرض . .

* * *

وكان الملك « سيف » غارقا فى افكاره ، حين أحس بنفسه يهبط تدريجيا إلى الأرض ، فالتفت ليجد « عاقصة » تشير إلى « عيروض » بالنزول ، وقد أخذت السماء تكتسى بحلة داكنة والشمس تغيب عنها تدريجيا . . وحين نزل « عيروض » إلى الأرض ، وجد الملك« سيف » نفسه وامامه مائدة كاملة من الطعام المعد ، فأقبل على الطعام بشهية مفتوحة، ورغبة تأججها روح المغامرة التى أحس بها تدفع الحرارة فى جسده . وجلست « عاقصة » إلى جواره ، وهو يأكل تقص عليه قصة

المدينة الغـريبة ، وقـالت « عـاقـصة » :

ـ تقع هذه الجزيرة فى آخر جزر واق الواق ، وكان بها ملك اسمه «كافور » يحكمها بالعدل والرعاية . . وحين أحس بدنو الأجل بنى مدينتين عظيمتين ليحكمها ولداه الذكرين « عاصم » و « قاسم » حتى لا يختلفان بعد موته . . ونصب كل منهما ملكا على مدينة وأسماها باسمه ، وأوصاهما بأن يكونامثل رجل واحد بعد موته ، وطلب منهما الزواج لينصلح حالهما ويستقيم أمرهما . وحين مات الملك « كافور » نفذ الاخوان وصيته فأقاموا وزير أبيهم نائبا على الجزيرة وتزوجا من ابنتى الوزير ، ثم غادر كل منهما الجزيرة مع حاشيته إلى مدينته . . وظل كل منهما يحكم فى مدينته وهما يتزاوران ويتعاطفان ، إلى أن جاءتهما البشائر أن زوجة كل منهما قد حملت ، فعم السرور المدينتين ، وملأت بشائر الافراح جزر واق الواق كلها ، وجعلا ينتظران ما تأتى به الاقدار ، وكل منهما يعلق كبير الامل على المولودين . ووضعت زوجة «قاسم » العبوس بنتا ، بينما وضعت زوجة اخيه عاصم ولدا ذكرا ، وأقام كل منهما وليمة كبيرة ، حضرها أخوة حاشيته ، وقال « عاصم » لاخيه « قاسم » وكأنما يعزيه :

ـ يا أخى نحن لا نستطيع أن نعاند القدر ، فالولد والبنت سواء ، فاذا ما كبرت ابنتك ، واشتد عود ابنى تزوجا ، ويحكمان المدينتين سويا . .

الا أن « قاسما » أحس بكلمات أخيه كالطعنات توجه إلى قلبه ، وأخفى عواطفه بمجهود كبير ، وهو يقول لاخيه :

ـ لنترك هذا الامر تحدده الأيام ، وتحكم فيه الظروف . .

وأستأنفت « عاقصة » حديثها للملك « سيف » قائلة :

ـ ومرت الأيام ، وكبر الاثنان وأرسل « عاصم » يخطب بنت أخيه لولده ، فرحب بالرسل وأكرمهم ، وقد أحس عبئا ثقيلا يرزح على قلبه ،

فذهب متثاقلا إلى ابنته يشاورها فى الأمر . . الا أنه أحس بالراحة تعود إلى نفسه حين قالت له ابنته :

ـ ومن أنبأك يا أبى أنى أريد الزواج ؟ . . أننى لن أخرج من مدينتى ، وليست لى رغبة فى ابن عمى أو فى غيره من الرجال ، وان ارغمتنى على الزواج قتلت نفسى !

وهكذا عاد راضى النفس إلى رسل أخيه ليخبرهم بقرار ابنته وقال لهم :

ـ لست استطيع ان أرغمها على مالا تحب ، فليس لى سواها وأخشى أن تلحق الضرر بنفسها ، ولو رضيت بالزواج ، فليس لها خير من ابن عمها . .

وحينما علم « عاصم » بما قاله أخوه وابنته ، امتلأ قلبه بالغضب ، وأقسم أن ينتقم منهما انتقاما مرا ، فأحضر حكماءه وكهانه وأمرهم أن يفكروا فى بدعة غريبة ينتقم بها من أخيه ، وأن تظل مذكورة على مر الأيام . . وخلا الحكماء والكهان لانفسهم أياما ، وعادوا ليخبروه أنهم توصلوا إلى شىء جديد لم يسبقهم إليه أحد ، وهو أن يجعلوا جميع البنات الذين فى مدينة أخيه يأتون إلى مدينته ، بحيث لا يبقى فى مدينة أخيه سوى الذكور!

وفرح الملك « عاصم » بهذا الانتقام ، وأمرهم بالبدء فى تنفيذ فكرتهم فى الحال . وهكذا اختلى الحكماء والكهان بأنفسهم ، أربعين يوما كاملة ، ثم ذهبوا وسط المدينة ومعهم تمثال من الشمع على هيئة فتاة جميلة ، فبنوا حولها قبة عظيمة من الرخام ، وأحاطوها بسبعة دوائر بعلوم الاقلام ، ثم تحلقوا حول القبة ، يعزمون ويدمدمون ، إلى أن انتصف النهار . . فاذا بأبواب مدينة « قاسم » تفتح على مصاريعها ، وتخرج بنات المدينة منها صارخات ، وهن ذاهلات ، يجرين فى اتجاه مدينة «عاصم » حتى يقفن

أمام الحكماء فى المدينة ، ففرح الملك « عاصم » بهذا الأمر ، وأنعم على الحكماء وأمرهم أن يحيطوا المدينة بالارصاد حتى لا تخرج النساء منها ابدا ، ولا يدخل اليها الذكور ، ولا يصل اليها الغريب ، فمضى الحكماء يجتهدون فى تنفيذ ما طلبه الملك « عاصم » . .

وكان الملك « سيف بن ذى يزن » قد انتهى من عشائه ، وقام وهو يقول لـ « عاقصة » :

ـ ان هذا لأمر غريب لم يسمع به أحد من قبل . .

فقالت « عاقصة » :

ـ ان الإنسان يا أخى اذا تحكم الشر فى قلبه ، كان أقسى على أخيه منا معشر الجن عليه .

وقد ولد ما فعله « عاصم » فى نفس أخيه « قاسم » مرارة كبيرة ، فكان انتقامه من أخيه أشد قسوة

ثم التفت إلى « عيروض » قائلة له :

ـ اذهب يا « عيروض » فاجمع لنا حطبا ، وأشعل للملك « سيف » نارا يستدفئ بها فان برودة الليل قد بدأت تشتد ، وسأعد أنا له فراشه ، وعند الفجر نستأنف سيرنا . .

وتركهما الملك « سيف » يقومان بما فرضاه على أنفسهما من عمل ، وجعل يتمشى على حافة الغدير ، وهو يتأمل فى مياهه التى تنعكس عليها أشعة القمر الذى بدأ يصعد إلى السماء تدريجيا ، ويفكر فى أمر هذه المدينة الغريبة ، ويعجب مما يسببه الغضب فى نفوس الاخوين ، وكيف يحيل عاطفة الاخوة العذبة إلى كراهية مدمرة ، تصيب بشرها الابرياء الاخرين من سكان المدينتين الذين لا ذنب لهم فيها بين هذين الاخوين من خلاف . . وحين عاد الملك « سيف » إلى حيث جلست «عاقصة»

و« عيروض » وجد النار قد اشتعلت مشعة الدفء والامان ، بينما أقيم إلى جوارها فراش متواضع ولكنه مريح فتخفف الملك «سيف» من ملابسه ، واضطجع على الفراش ، وإلى جواره « عاقصة » وعند قدميه «عيروض» . . وكانت عيناه تتبعان الظلال المتراقصة حول النيران ، وهو يقول لـ « عاقصة » :

ـ أكملى حكاية المدينتين يا « عاقصة » :

فقالت « عاقصة » :

ـ عندما علم الملك « قاسم » بما حدث لمدينته ، ركبه الغضب ، فأسرع يجمع حكماءه وكهانه ، وأمرهم أن يردوا على مكيدة أخيه بأن يجمعوا فى مدينته الذكور ، بحيث لا يبقى فى مدينة « عاصم » سوى الملك وحده مع البنات ، وظل حكماء الملك « قاسم » فى عملهم أربعين يوما ، ثم خرجوا إلى الملك يخبرونه بأنهم قد اتموا عملهم ، فأمرهم الملك « قاسم » بالبدء فى التنفيذ وسرعان ما فتحت أبواب المدينة الاخرى ، وخرج منها جميع الرجال صارخين إلى أن دخلوا مدينة « قاسم » ، بينما خلت مدينة «عاصم » من كل الرجال ، ولم يبق بها سوى الملك نفسه وحده ، فى مدينة لا يسكنها الا البنات وأسرع الملك « قاسم » يقتل الحكماء والكهان الذين جاءوا مع الرجال مسحورين من مدينة أخيه ، جزاء لهم لما اقترفوا فى حق ابنته ، وأمر حكماءه فأقاموا حول مدينته أسوارا تحرسها تماثيل مطلسمة تمنع دخول أى أنثى إلى المدينة ، ثم جعل الحكماء بين المدينتين عينا جارية من الماء ، رصدوا ماءها بعلوم الاقلام، بحيث لو استحمت فيها امرأة أصيبت بداء يذهلها عن نفسها ، ويدفع الحرارة فى جسدها فاذا ما خرجت من عين الماء لم تعرف لها طريقا ، فتصبح الارصاد على أبواب مدينة الرجال ، مخبرة بمكانها وباسمها فيخرج اليها الرجال من المدينة ،

ويأسرونها ويضعونها فى أكواخ بالغابة ، ولا يفكون أسرها حتى تموت . . .

وقال الملك « سيف » وقد بدأ النوم يداعب جفونه :

ـ واصبح الملك « عاصم » وحده فى مدينة البنات . . ترى كيف يمكن لرجل وحيد أن يعيش بمفرده فى مدينة من البنات ؟!

فقالت « عاقصة » وهى تسوى الغطاء حول كتفى أخيها وقد بدأ برد الليل يشتد :

ـ لقد تحمل الأمر فى بدايته بشجاعة ، فأخذ ينظم صفوف البنات ، ويعلمهن الفروسية والرماية ، حتى يحمين أنفسهم من أى عدوان على مدينتهن ، إلا أنه بدأ يحس بوطأة الحياة عليه ، ويحاول الاتصال بأخيه لوضع حد لهذا الشقاق بينهم دون جدوى ، وطال به الأمر حتى أصابه الخبال ، فقذف بنفسه من أعلا أسوار المدينة ، حيث مزقت الصخور جسده ومات .

فقال الملك « سيف » :

ـ وهكذا غدت المدينة دون ذكور نهائيا . . ما أقسى هذه الميتة التى فرضها « قاسم » على أخيه . أنى لأتخيله وسط هذا الجمع الحاشد من النساء حائرا ، ضائعا ، لا يسمع له أمر ، ولا يطاع له كلام ، كأنه مخلوق غريب ، يعيش فى دنيا لا يعرفها ، وسط حيوانات مخيفة طال أسرها ثم انفكت فجأة من أسرها لتصبح سيدة نفسها وسيدته . . لقد كان الموت له راحة . .

قالت « عاقصة » :

ـ أما أخوه « قاسم » فلم يعد ينعم بالراحة من بعده ، ذلك أنه كان قد قتل حكماء مدينة « عاصم » وكهانها ، الذين صنعوا الارصاد من حولها ، فلم يعد يستطيع أن يرى ابنته ، ولا أن يعيد الحياة إلى مجراها الطبيعى فى

المدينتين بعد موت أخيه ، وحاول الحكماء فى مدينته ، أن يفكوا الطلاسم حول مدينة « عاصم » دون جدوى ، بل تعرض كثيرون منهم للموت أثناء هذه المحاولات .

فحاول الملك « قاسم » أن يجد طريقة أخرى ، للاتصال بابنته «منية النفوس » التى كبرت ، وسادت مدينة البنات وحكمتها بعد موت عمها ، فجمع الحكماء وكلفهم بمحاولة الوصول إلى حل ، دون التعرض لما فك الطلاسم من مخاطرة . وظل الحكماء فترة طويلة يقلبون الرأى ، ويحكمون التدبير ، ثم ذهبوا إلى الملك ليخبروه بما اسفرت عنه حيلتهم ، وما توصل اليه اجتهادهم . . . قالوا للملك :

ـ اننا أربعون من الحكماء والكهان ، سيصنع كل واحد منا ثوبا من الحكمة اذا ارتدته صاحبته ، وأغلقت ازراره ، استطاعت أن تطير فى الهواء مخترقة الارصاد دون أن تؤثر فيها ، واستطاعت أن تقطع المسافة التى يقطعها السائر بالجمال فى سنة كاملة فى قدر ساعة واحدة من الزمان

وكان سرور الملك زائدا حتى لقد انعم على حكمائه الاربعين ، وأمر لهم بالجوائز السنية ثم أمرهم أن يبدءوا فى صناعة الثياب الريش فورا

وقال الملك« سيف » لـ « عاقصة » وهو يتثاءب :

ـ ثياب من الريش تقطع مسيرة عام فى ساعة . . ان هذه لأرض الحكمة ولا شك . . ولا عجب أن استطاعت « منية النفوس » أن تطير من حمراء اليمن ، إلى جزيرة البنات فى سهولة ويسر ، فمن امتلك مثل هذا الثوب ، أصبح كل مكان فى العالم ـ مهما بعد ـ ملكا له .

« فقالت « عاقصة » :

ـ لقد كان هم الملك « قاسم » الوحيد ، هو أن يرى ابنته ، وأن يتيح لها من المتعة ما يعوضها عن معاشرة الرجال ، فأرسل لها الثياب مع أحد

أعوان الجان ـ سكان هذه المنطقة ـ وارتدت « منية النفوس » الثوب الريش، وطارت إلى مدينة أبيها ، ودخلتها دون أن تتصايح عليها الارصاد . . وتأكد الملك « قاسم » من نجاح ما دبره الحكماء ، وأوصى ابنته وعلمها كيفية تدبير الحكم ، وتوجها ملكة على مدينة البنات . . ثم عادت « منية النفوس » إلى مدينتها ، فاختارت من البنات من اتصفن بالشجاعة والجمال واعتطهن ثياب الريش ، وجعلت تدربهن على استعمالها ، واتخذت منهن حاشية خاصة ، يصحبنها فى نزهاتها ورحلات صيدها بعيدا عن جزر واق الواق . وقد اتخذت « منية النفوس» لها أكثر من مكان ، تقضى فيه أوقات متعتها ، وحددتها لابيها، الذى امر حكماءه أن يرصدوها بعلوم الاقلام ، حتى لا تطأها قدم غريبة

فقال الملك « سيف » وهو يتأهب للنوم ، وصور لقائه بالملكة « منية النفوس » تعود إلى ذهنه ، وتبدو أمام عينيه :

ـ ومن هذه الاماكن ، ذلك البستان المرصود ، الذى أسرتها فيه . .

فقالت « عاقصة » :

ـ وما كنت لتأسرها ، لولا أن سرقت ثوبها منها ، ثم حملتها على مطاردتك خارج البستان المرصود . .

فقال الملك « سيف » :

ـ نعم . . لقد كان الفضل فى هذا يرجع اليك ، ولولاك ما تمكنت منها . .

ثم أخذت صورة « منية النفوس » وهى تجرى خلفه لتلحق به فى البستان المرصود تملأ خياله ، واختفت لتحل محلها صورته وهو عند البحيرة مختف وسط الماء ، يشهدها تسبح هى وتابعاتها الجميلات ، وقد خلعن ثياب الريش ، ثم اختفت هذه الصورة لتحتل مكانها صورة

حبيبته إلى نفسه . . صورة « منية النفوس » وهى تحتضن ابنها وابنه «مصر» وتقبله فى حنان . وكانت الصورة تبتعد عنه وتبتعد ، وهو يحاول أن يطلب منها أن تنتظر ، ومد يده ليلمسها ، ولكن يده الثقيلة لا تتحرك ، والصورة تبتعد وتبتعد . .

وقالت « عاقصة » :

ـ أنمت يا أخى : : ؟!

ولم يرد « سيف » فقد كان فى سبات عميق . .

فقالت « عاقصة » لـ « عيروض »

ـ لينم كل منا فترة من الوقت لنتناوب حراسته حتى الصباح . .

ـ ٥ ـ

ظلت رحلة « سيف بن ذى يزن » خمسة أيام وخمس ليال : و«عاقصة » و « عيروض » يتناوبان حمله . . فاذا ما حملته « عاقصة » أتاه « عيروض » بالطعام وبالشراب ، واذا ما حمله « عيروض» طارت «عاقصة » إلى جواره، تقص عليه الغرائب والعجائب ، من أمر جزائر واق الواق وما حدث لاهل جزيرة البنات ، وتصف له الطلاسم والأرصاد التى حرمت على الأنس والجن ، من غير أهل هذه الأرض ، أن يقتربوا منها ، أو يجوسوا خلالها حتى أقبلوا فى صباح اليوم السادس ، على جبل عال سامق، فأنزلوه إلى ظاهره ، واشارت « عاقصة » بيدها وهى تقول لاخيها :

ـ انظر أمامك يا أخى ، وأخبرنى ماذا ترى ؟ . .

فقال الملك « سيف » وهو يحدق النظر فى الأفق البعيد . .

ـ لست أرى سوى شىء أسود ، لا أكاد أتبين ملامحه مع غبش الصباح . .

قالت « عاقصة » :

ـ وهذه يا أخى أول جزائر البنات . . وعند هذا الجبل ، نقف عاجزين عن مواصلة السير معك

فقال الملك « سيف » :

ـ اذن فانتظرانى ها هنا ، فسأذهب لأواجه المقدر على . . عسى أن يحقق الله لى أملى . .

وتودع الملك « سيف » منهما ، وسار وحده متجها إلى ذلك الشيء الأسود الذى لمحه يبدو فى الأفق . . وكان كلما قطع فى الطريق مرحلة ، أحس أن هدفه يبعد عنه بمثل ما قطع من الطريق ، إلى أن توسطت الشمس كبد السماء ، وأشتد هجيرها ، وزادت حرارتها ، وبدأ الملك «سيف » يحس بالعطش والجوع . . وكلما تقدم فى سيره ، ازدادت خطواته بطئا ، وزادت خطواته تثاقلا ، وتفصد العرق من جبينه وغمر جسده ، والطريق حوله وأمامه خال الا من الرمال والصخور ، التى تتوهج بانعكاس أشعة الشمس المحرقة عليها . . إلا أن الملك « سيف » استمر فى طريقه وهو يجر قدميه جرا ، وقد تيقن أنه أن وقف فى مكانه هلك . .

* * *

مضت ساعات النهار بطيئة متثاقلة ، وهى تحمل للملك « سيف » مع كل لحظة من لحظاتها ، مزيدا من الالم ومزيدا من العذاب . . وبدأت قواه تخور ، وبدأت خطواته تتعثر ، كما اشتد جفاف حلقه ، وقد أحس أن لسانه قد تضخم فى فمه ، حتى غدا يؤلمه ، وكان الملك « سيف » يتهاوى إلى الأرض ، حينما لمح من بين الضباب الذى يحجب عن عينيه الرؤية ، شبح كوخ أبيض ، يظهر له من بعيد ، فانتعش فى نفسه الأمل ، وبدأ يستجمع قواه ، ليتحامل على نفسه قاصدا اليه ، الا أن شكا عاصفا ملأ قلبه ، وكاد يذهب بعزيمته ، ويطفئ الأمل الذى توهج فى نفسه . . فماذا لو كان هذا الكوخ صورة من الصور التى تخدع بها الصحراء ، من عذبتهم بنار حرها ، وسيطرت عليهم بسلطان الظمأ والجوع . .

وعاد الملك « سيف » يتهاوى إلى الأرض ، وقد أحس راحة فى أن يستكن مكانه وينام ، وليحدث بعد ذلك ما يحدث ، وأغمض عينيه ، ثم عاد ليفتحهما فى ضعف وتخاذل ، وهو يخشى أن ينظر إلى حيث رأى

الكوخ أول مرة ، إلا أن دهشته اشتدت ، حين أبصر بالكوخ فى مكانه . . وبدأت الحقيقة تغزو ذهنه المتعب تدريجيا ، لتؤكد له أن ما يراه حقيقة ، وليس سرابا . . وانبعثت فيه قوة جديدة ، ملأت قلبه بالامل ، ودفعت فى عروقه الدماء فأسرع يجرى لاهثا ، متعثرا فى خطواته نحو الكوخ .

* * *

عندما وصل الملك « سيف » إلى الكوخ ، كان قد استنفد آخر ذرة من قواه ، ولم ينتظر حتى يستجمع أنفاسه ، وأنما اندفع نحو بابه الصغير، يطرق عليه بشدة ، وهو يلهث تعبا واعياء . . وبين احساسه بالثقل الذى أخذ يرين على عقله ، فيطمس قدرته على التفكير ، والضباب الذى أخذ يتكاثف أمام عينيه ، فيحجب عنهما الرؤية ، سمع صوتا هادئا وقورا ، وكأنما يأتى من جب عميق . . يقول له :

ـ مرحبا بك أيها الملك « سيف بن ذى يزن » الذى طال ارتقابه وامتد انتظاره .

ثم لم يعد يحس بشىء سوى أن هناك يدين رحيمتين تبللان جبهته الملتهبة ، وتصبان قطرات الماء المعطر بين شفتيه ، ووجه رقيق يختفى وراء لحية بيضاء رقيقة ـ وتطل منه عينان حانيتان ـ يطل عليه فى عطف ورعاية . . ثم لم يعد يدرك من حوله شيئا .

حين أفاق الملك « سيف » وجد نفسه ممددا ، وقد خففت عنه ثيابه ، وحجب لهيب الشمس عنه سقف الكوخ الصغير . . وحول عينيه ينظر إلى ما حوله ، وكان أول ما التقت به عيناه ، اناء كبير يترجرج فيه الماء ، فهب مندفعا نحوه ، وقد عاد إليه احساس مرير بالظمأ القاتل ، وما كادت يداه تلمسان الاناء ، حتى سمع صوتا هادئا يقول له :

ـ رفقا بنفسك أيها الملك ، وحذار أن تندفع إلى شرب الماء ، فتضر نفسك . .

فتوقفت يدا الملك « سيف » وهو يتذكر أنه سمع هذا الصوت من قبل حين طرق باب الكوخ ، واندفعت يده بحركة غريزية تبحث عن مقبض حسامه ، ولكنه لم يجده مكانه . . وسرعان ما عثرت عليه عيناه القلقتان معلقا على حائط الكوخ فوق رأسه ، حيث كان ينام وسمع صوت ضحكة هادئة ، والصوت المتزن الوقور يقول له :

ـ لا داعى للحذر ، فأنت هنا فى كوخك . . وما جعل هذا المكان ، الا ليسهل لك امرك ، ويذلل أمامك الصعاب التى ستعترضك . .

فأجفل الملك « سيف » وقد اشتدت دهشته ، وتعاظمت حيرته . . والتفت نحو مصدر الصوت حيث رأى فى جانب الكوخ شيخا وقور السمت ، مهيب الطلعة ، لحيته البيضاء الناصعة تغطى صدره ، وعيناه المتألقتان يفيض منهما فيض حنان ومحبة . . وتذكر الملك « سيف » اليد الرقيقة الحانية التى كانت تبلل جبهته المحمومة ، والوجه الرقيق الحانى الذى كان يطل عليه وسط غيبوبته ، فعادت الطمأنينة إلى قلبه ، وعاد الهدوء إلى نفسه ، وقال :

ـ أنت الذى كنت ترعانى . . ؟!

وهز الشيخ رأسه وهو يقول :

ـ اشرب من الماء أيها الملك على حذر ، وستعرف كل ما تتوق إلى معرفته بعد أن تنال قسطك من الطعام ، وتسترد قواك الذاهبة . .

وتقدم الشيخ إلى جانب الكوخ ، وعاد يحمل فى يديه أوانى الطعام ، يضعها أمام الملك « سيف » الذى رفع اناء الماء إلى شفتيه ، وأخذ يمتص قطراته على جرعات صغيرة متباطئة . . ومع قطرات الماء ، عاد احساسه

بالامان يسيطر عليه ، واخذ ذهنه يصفو وهدأت أعصابه . . وحين نظر إلى الطعام امامه ، أحس بجوع شديد ، فامتدت يده إلى الطعام يأكل فى اشتهاء ورغبة . . وأخذ أثناء أكله يعجب من هذا الطعام المتقن الصنع ، كيف وجد فى هذا الكوخ الذى لا تبدو فيه أى أدوات من أدوات الطبخ ومن أين هذا الماء العذب وكيف اتى إلى هذا المكان المجدب ، وسط هذه الصحراء القاحلة . . وتنبه إلى أن هذا الشيخ العجوز ، يقيم وحده فى هذا الكوخ المنعزل عن العالم وهو يبدو هادئ البال ، باسم الوجه ، نظيف الثياب . . ورفع رأسه عن الطعام لتلتقى عيناه بالعينين اللامعتين، وتذكر انه حين طرق الباب ، اجابه صوت مرحبا به ، ذاكرا اسمه ولقبه، وشيئا عن انتظاره وتوقعه ، وكأنما يقرأ الشيخ العجوز أفكاره . . اذ ما كادت هذه الاسئلة تتوارد إلى ذهنه ، حتى قال الشيخ :

ـ نعم يا بنى . . اننى هنا فى انتظارك منذ زمن بعيد ، وقد أقيم هذا الكوخ باذن المولى القدير ، ليكون فى طريقك إلى جزر واق الواق ، حتى اسلمك أمانة حملتها اليك ، لتعينك على بلوغ ما تريد

فقال الملك « سيف » :

ـ ولكن ، كيف استطعت أن تقيم وحدك هنا وسط هذه الصحراء الجرداء ، ومن أين لك بالطعام والشراب ، وكيف تمضى حياتك ، وأنت وحيد لا انيس لك . . ؟!

فعادت الضحكة الهادئة تنطلق من بين شفتى الشيخ ، وهو يقول :

ـ اننى اقضى حياتى يا بنى فى ذكر الله والصلاة له ، وعبادته وحده ورزقى يأتينى من عنده كل يوم . . .

فقال الملك « سيف » متلهفا :

ـ وأين هى هذه الأمانة التى تتحدث عنها ، والتى تعيننى على الوصول إلى زوجتى وابنى ؟ . . .

فقال الشيخ :

ـ ان انقاذك لزوجتك وابنك ، ما هو الا سبب ظاهر لرحلتك إلى جزيرة البنات . . أما الحقيقة ، فهى أنك مكلف برسالة ، تقوم بها فى هذا المكان ، تقضى فيها على البدع ، وتحارب الكفر ، وتجرى فى الناس سنة الله . . .

ودهش الملك « سيف » مما يسمع ، وانتابته الحيرة . . ولكنه آثر الصمت حتى يعرف كل ما لدى هذا الشيخ الهادئ الوقور قال الشيخ :

ـ سأتركك لتأكل طعامك ، وتروى نفسك من الماء ، ثم تنال قسطك من النوم استعدادا لما هو امامك من مشاق وصعاب ، وسأعود اليك حين تستيقظ ومعى ما لدى من الذخائر أمانة لك . .

وقبل أن يرد الملك « سيف » أو ينطق الاسئلة التى تدافعت على طرف لسانه ، كان الشيخ قد اتجه إلى باب الكوخ ، وفتحه ثم خرج ، مغلقا اياه وراءه ، تاركا الملك « سيف » وحده . . مع افكاره وطعامه وشرابه !

* * *

حينما استيقظ الملك « سيف » من نومه ، كان يحس بالراحة تملأ نفسه ، وبالحياة تتدفق فى عروقه . وكان أول شعاع من الشمس الوليدة ، يتسلل عبر نوافذ الكوخ فهب من رقدته ، واحساس بالمرح يطغى على كل نفسه . . وفى جانب من الكوخ ، وجد أناء كبيرا من الماء ، لم يره من قبل ، فحمله إلى خارج الكوخ حيث صافحت رئتيه نسمات الفجر الرقيقة ، فاغتسل وتطهر ، وعاد خفيفا جذلانا إلى داخل الكوخ ، حيث وجد أمامه طعام الافطار ، موضوعا مكان عشاء الأمس

وكان واثقا أن أحدا لم يدخل الكوخ اثناء اغتساله ، وكان مستعدا أن يقسم ، ان هذا الطعام لم يكن موجودا بالامس ، إلا أنه لم يشغل نفسه

بالبحث والسؤال ، فقد أحس بالجوع ، وأغراه منظر الطعام ، فاندفع يتناول افطاره فى شهية ، وقد قرر أن يترك الامور تفسر نفسها بنفسها . وما كاد الملك « سيف » ينتهى من افطاره ، حتى فتح الباب فى هدوء ، ودخل الشيخ حاملا بين يديه أشياء كثيرة ، والقى إلى الملك « سيف » بتحية الصباح ثم قال :

ـ هذه ذخائرك يا بنى ، وقد أن أوان رحيلك . .

فقام الملك « سيف » من مكانه ، وأخذ يرتدى ثيابه ، وهو يقول :

ـ أنا مستعد للبدء فى الحال يا أبى . .

فتقدم الشيخ ، وحمل « بقجه » كبيرة من فوق الأرض ، وقدمها للملك « سيف » قائلا :

ـ هذه لك . . وهى أول الذخائر ، التى ستعينك على أمرك

وفتح الملك « سيف » البقجة فاذا فيها بدلة حريرية مزركشة بالذهب والفضة وهى من ملابس النساء ، ووجد معها أكرة وصولجانا مما يستخدم فى الالعاب

وقبل أن يسأل الملك « سيف » عن فائدة رداء النساء له ، قدم له الشيخ زمردة خضراء قائلا :

ـ وهذه ذخيرتك الثانية . .

وقلب الملك « سيف » الزمردة فى يده ، حائرا فى فائدتها ، ورفع رأسه ليسأل الشيخ ، ولكنه رآه يقدم له قدحا صغيرا ويقول :

ـ وهذه ذخيرتك الثالثة ، ولم يبق لك معى سوى هذا اللوح . . وهو شبيه بلوحك الذى تحمله ويستخدمه « عيروض » . . الا أن « عيروض » لا مكان له فى هذه الأرض ، وسيحل خادم هذا اللوح الجديد فى خدمتك واسمه « الخيرقان » محل « عيروض » حتى تنتهى مهمتك فى جزائر واق

الواق فترد له لوحه وتطلقه من الاسر ، فهو موعود بهذا على يديك . .

فقال الملك « سيف » وهو يقلب هذه الهدايا بين يديه :

ـ اللوح ، وعرفنا فائدته . . . فما فائدة هذا الأشياء الأخرى . . ؟

فقال الشيخ :

ـ أما القدح ، فحين تجوع : فضع عليه فوطة واطلب ما تريد من طعام، فستجده معدا جاهزا . . أما الزمردة فان وضعتها تحت لسانك جنبتك الظمأ ومنعت عنك العطش ، وأما البدلة فسترتديها لأنك مسافر إلى جزيرة البنات ، وستعرف فائدتها فى حينها وكذلك الاكره والصولجان . . والآن توكل على الله يا بنى . .

فقال الملك « سيف » :

ـ جزاك الله خيرا ، أيها الشيخ التقى ، وأنى لاسألك الدعاء لى . .

فقال له الشيخ :

ـ وانى أدعو الله أن يقضى حاجتك ، وأن يعز كلمته على يديك واذا ما أحزبك ، وضايقك عارض فادعنى أكن إلى جوارك . .

قال الملك « سيف » :

ـ وما اسمك يا أبى ؟ . .

قال الشيخ وهو يحتضنه مودعا :

ـ اسمى « أبو النور الزيتونى » ، والآن حفظك الله يا بنى ووفقك . .

وخرج الملك « سيف » من الكوخ ، وسار مبتعدا عنه . . والشيخ الوقور ، يقف بلحيته البيضاء يلوح له بيده ، وهواء الصباح المنعش يهون له السير ، ويبعث فى نفسه النشاط والقوة ، حتى غاب الشيخ والكوخ عن ناظريه ، وبدأ حر الشمس يلفح وجهه ، فأخرج اللوح الذى أعطاه له الشيخ « أبو النور » ودلكه برفق ، فتصايح الجو حوله بصرخة المارد

ويقول :

ـ نعم يا ملك الزمان . .

قال الملك « سيف »

ـ أنت « الخيرقان » ؟! . .

فقال الجنى :

ـ نعم أيها الملك « سيف » أنا ملك ملوك الجان فى هذه البلاد ، وقد وعدت بحريتى على يديك . .

فقال الملك « سيف » :

ـ وستنال هذه الحرية ، عندما انتهى من مهمتى فى هذه الجزائر ، فهيا احملنى إلى جزيرة البنات . .

قال « الخيرقان » :

ـ ان جزيرة البنات أيها الملك تقع فى نهاية جزر واق الواق ـ وهى سبع ـ سنمر عليها واحدة واحدة ، فالطريق طويل ، والرحلة شاقة . .

قال الملك « سيف » :

ـ اذن ، هيا بنا لنبدأ سيرنا ، فكفى ما ضاع من وقت . .

فأحنى المارد رأسه فى طاعة ، وحمل الملك « سيف » على كاهله وسرعان ما انطلق به فى أجواز الفضاء نحو جزائر واق الواق .

- ٦ -

ظل الملك « سيف » طائرا بين السماء والأرض فترة طويلة ، وهو مشغول عن رؤية ما يمر به من جبال وأنهار ، بأفكاره التى ملأت عليه نفسه وشغلت قلبه ، فألهته عن كل ما يمر به من معالم . . كان يعجب من هذه الاحداث التى تمر به ، فاذا هو مرة على حافة الهلاك ليس بينه وبين الموت الا أقل من شعره ، تدفعه الشمس دفعا إلى قبره ، ويكفنه الظمأ تكفينا فى لحده ، واذا هو مرة أخرى مليئا بالامل ، زاخرا بالحياة ، مستبشرا بالغد يطير بين السماء والأرض ، نحو رحلة مجهولة .

وأحس الملك « سيف » بنفسه يقترب من الأرض تدريجيا ، فانتبه من أفكاره وقال « للخيرقان »

ـ هل وصلنا ؟ . .

وقال« الخيرقان » وهو ينزل به إلى الأرض :

ـ هذه أيها الملك ، أول جزائر واق الواق ، وسننزل بها قليلا لنرتاح ثم نستأنف رحلتنا . . وحين وضع الملك « سيف » قدميه على الأرض ، أدهشه أن يراها خالية من كل أثر للحياة . . ليس فيها زرع أو ماء ، وليس بها سوى الصخور والرمال ، ولكن تقف فى وسطها تماما شجرة كبيرة هائلة ، تضج بالحياة وسط هذا القفر الموحش ، خضراء ناعمة . . فاتجه « سيف » نحوها ، فاذا هى محاطة بسور من النحاس الاصفر ، يقف على بابه عمود طويل من النحاس ، وقد نقشت عليه نقوش غريبة ،

فالتفت الملك « سيف » إلى « الخيرقان » وسأله قائلا :

ـ لست أرى فى هذه الجزيرة سوى هذه الشجرة ، فمن أين لها بالماء . . ؟

قال المارد :

ـ ان أمر هذه الشجرة غريب ، فاذا ما جاء الخريف ، يستحيل لونها إلى الصفرة ثم إلى الحمرة ، وتسقط منها ورقة واحدة ، مكتوب عليها بقلم القدرة (لا اله الا الله . محمد رسول الله) وهو النبى الذى سيظهر فى آخر الزمان ليهدى العالم إلى النور والايمان . .

فاذا ما سقطت هذه الورقة هرع الناس من سكان هذه الأرض إلى هذه الجزيرة ليحصلوا على هذه الورقة ، يستشفون بها ، ويستعملونها لانقاذ مرضاهم ، الذين يئسوا من شفائهم وعلاجهم . . فاذا ما اقتربوا من هذا السور ، لم يستطع أن ينفذ منه الا من حسن ايمانه ، وصفت نفسه ، وخلا قلبه من الاثم والكفر . . أما ان اقترب من السور شرير أو كافر ، تصايح عليه من العمود المرصود صوت رهيب ، فيفقد وعيه ، ويظل هكذا حتى يحين موعد العودة ، فيفيق ليعود مع الآخرين ، ناجيا بنفسه

قال الملك « سيف » :

ـ ولكن كيف أقيم هذا السور ، ومن أين تستقى هذه الشجرة ؟

قال المارد :

ـ لقد أقام هذا السور ، الملك « جدكويل » بعلوم الحكمة والاقلام حتى لا يستفيد من ورقة الشجرة المباركة ، الا من كان جديرا بالايمان بما هو مكتوب عليه ، حتى لا يحصل أهل الشر على تراث أهل الخير . . اذ أنهم كانوا يزاحمونهم حول هذه الورقة ، ويحصلون هم بمكرهم وخداعهم على الجزء الاوفى منها ، ولكن بعد أن أقام السور ، ترى الناس حولها

قسمين ، قسم مطروح فى غيبوبة سميكة ، حول السور وخارجه، وقسم آخر يقتسم بعدالة ومحبة ، ورقة الشجرة المباركة ، وقد صفت نفوسهم وخلت قلوبهم من الحقد والتنافر .

واتجه الملك « سيف » إلى السور ، ومر من الباب بجوار العمود ، حيث احتواه ظل الشجرة الوارف ، وجعل يتأمل أوراق الشجرة ، التى تشبه أوراق شجرة التين وقد ملأ نفسه سلام وهدوء ، وصافحت وجهه نسمات رقيقة عذبة . . ثم جلس تحت ظل الشجرة وقد أخذ يحس بالجوع، فأخرج القدح وغطاه بالفوطة كما علمه الشيخ « أبو النور » ثم وضع يده اليمنى فوق الفوطة ، وهو يقول :

ـ بسم الله ، ائتنى بطعام ثريد . .

وما كاد يتم كلامه ، حتى أحس بالروائح الشهية تتصاعد من تحت الفوطة ، فرفعها ليجد تحتها اناء ضخما مليئا بالثريد وفوقه غزال مشوى ، فحمد الله . . ثم مضى يأكل أشهى طعام ذاقه منذ زمن طويل ، وحين انتهى من طعامه ، غطى بالفوطة الاناء وما تبقى فيه ، وأشار اليه بيده اليمنى قائلا :

ـ الحمد لله . .

وحين رفع الفوطة مرة أخرى وجد القدح كما هو ، فوضعه فى مكانه بين أمتعته ثم استلقى تحت ظل الشجرة ، وأسلم نفسه للنوم . .

* * *

عندما استيقظ الملك « سيف » من نومه ، صاح على « الخيرقان » فأجابه وهو واقف خارج السور قائلا :

ـ ان كنت قد استرحت يا مولاى فهلم بنا ، نستأنف رحلتنا . .
فاتجه اليه الملك « سيف » قائلا :

ـ انى اريد منك أن تسير بى قريبا من الأرض ، حتى أرى غرائبها . .

فقال « الخيرقان » :

ـ أيها الملك ، ليس هناك بين الجزيرتين سوى الجبال والبحار . . اما العجائب الحقيقية ، فهى فى الجزائر نفسها . .

فقال الملك « سيف » وهو يرتب ثيابه ويستعد للرحلة :

ـ اذن هيا بنا إلى الجزيرة الثانية . .

وحمله « الخيرقان » وطار به متجها إلى الجزيرة الثانية من جزر واق الواق . .

* * *

أحس الملك « سيف » و « الخيرقان » ينزل به إلى الأرض فانتبه من افكاره وتأملاته وأطل برأسه من فوق رأس « الخيرقان » فاذا به يشرف على جزيرة أكبر فى حجمها من الجزيرة الأولى ، الا أن رءوس الاشجار تغطيها حتى لا تكاد الأرض تبين من تحتها ، وكلما اقترب « الخيرقان » من الأرض، وضحت الرؤية أمام الملك « سيف » واذا به يكتشف فعلا أن الجزيرة مثمرة ، واذا به يسمع صوتا غريبا كأنه صياح متفاوت النغمات ، يزداد ضجة وعلوا ، كلما ازداد قرب الملك « سيف » حتى اذا ما نزل إلى الجزيرة اضطر أن يضع يديه على أذنيه حتى يحميهما من هذا الصراخ المتتالى ، المتنافر النغمات ، الا أن دهشته اشتدت حين رأى ، ما تدلى من هذه الأشجار ، من مخلوقات غريبة تصدر هذه الأصوات المنكرة ، وأخذ يفرك عينيه فى ذهول ، وهو لا يكاد يصدق نفسه ، فقد تدلت من الاشجار أجساد آدمية ، لها وجوه رجال قد نمت لحاهم وكثفت شواربهم، وهم يصيحون هذا الصياح المتقطع الغريب ، الذى أزعجه عند اقترابه من الجزيرة

واقترب من إحدى هذه الاشجار ، يتأمل جسدا من هذه الاجساد المدلاة من أحد فروع الشجرة ، وقد وضع يده على مقبض سيفه ، استعدادا للدفاع عن نفسه ، عند أى بادرة من بوادر الخطر ، الا أن هذا الشيء المعلق لم يتحرك من مكانه ، ولم يكف عن صراخه ، وتأكد الملك «سيف » أنه معلق بفرع الشجرة ، من شعره الكث الخشن ، الا أنه حين زاد اقترابه منه ، اكتشف أن ما يراه ليس جسما حيا من دم ولحم ، انما هو أقرب إلى النبات ، اذ يتكون من الياف ولحاء

وصاح ينادى على « الخيرقان » هو يبذل مجهودا كبيرا ليعلو صوته على هذه الاصوات المنكرة التى تملأ الجو من حوله ، وجاء « الخيرقان » مهرولا وهو يرفع هو الآخر صوته عن المعتاد ، ليبلغ ما يقول سمع الملك «سيف»

ـ أتسأل عن شيء يا مولاى ؟ . .

ـ من الذى فعل بهؤلاء هذه الفعلة المنكرة ؟ وكيف يعلق الرجال فى الاشجار ؟! . .

قال « الخيرقان » :

ـ ان هؤلاء أيها الملك ، ليسوا رجالا من الانس ولا من الجن وانما هو نبات ينبته هذا الشجر ، لحكمة يريدها الله خالق كل شيء ولا يطيق احد أن يعيش فى هذه الجزيرة ، رغم وفرة ما فيها من ثمار وانهار . . فلو قذف البحر بعض البحارة المنكودين إلى هذه الجزيرة لجنوا واصابهم الهوس ، من بشاعة الاصوات التى تطن ليل نهار ، صارخه معولة ، ومن بشاعة المناظر التى تطالعهم اينما ولوا وجوههم فى هذه الجزيرة ، ويظلون يهيمون على وجوههم وهم يصرخون مثل هذه الصرخات التى يسمعونها ، إلى أن يموتوا جوعا واعياء ! . .

قال الملك « سيف » :

ـ لقد بدأت بالفعل أفقد سيطرتى على نفسى ، لكأن هذه الثمار المعلقة تصرخ ألما من عذاب مرير مجهول ، عذاب يائس ، بلا أمل فى فكاك . . ان أجسادهم بالفعل أجساد من ألياف النبات ولحاء الشجر ، ولكن وجوههم معذبة وصرخاتهم اليائسة تحمل كل العذاب الادمى . . وكأنى بهم أرواح شريرة يعذبها الله فى هذه الجزيرة الملعونة ، هيا بنا يا «خيرقان » فلم أعد احتمل . .

فحمله « الخيرقان » وطار به مسرعا من الجزيرة ، وأصوات الصرخات المتألمة تطن فى أذنيه وهو يطير مبتعدا عنها ، متجها إلى الجزيرة الثالثة . .

ظل الملك « سيف » فترة طويلة طائرا بين السماء والأرض ، وهو يفكر فى أمر هذه الجزيرة العجيبة التى تضج بصوت الالم ، ولا تعرف من الحياة سوى هذا الصراخ المتنافر الغريب ثم انتبه على صوت «الخيرقان » وهو يقول :

ـ هذه الجزيرة الثالثة تحتنا تماما . .

فقال الملك « سيف » وهو يتطلع إلى أسفل :

ـ اذن انزل بنا إليها . .

وطالعت عينا الملك « سيف » جزيرة كبيرة وسط الماء ، تنتشر فيها الاشجار فى تناسق جميل . . ولمح جدولا رقراقا ينساب فى هدوء ، وأشعة الشمس تنعكس على مياهه ، واستروحت رئتاه رائحة عذبة ، تهب عليه من الجزيرة . . وكلما اقترب « الخيرقان » إلى الأرض ، ترامت إلى أذنى الملك « سيف » أصوات رخيمة عـذبة ، كـأنما ترتل أغنيات حزينة هادئة مـليئة بالشـجن ، حـافـلة بالاســى

وعجب الملك « سيف » أن يكون بهذه الجزيرة المنقطعة عن العالم ،

أحياء يغنون مثل هذه التراتيل ، الشجية ، وقبل أن يلتفت إلى «الخيرقان» ليسأله فى أمر هذه الجزيرة وامر الاصوات التى تصدر عنها، كان «الخيرقان » قد نزل به إلى الجزيرة ووضعه فوق أرضها ، ليشاهد ما أذهله وأنساه السؤال . . بل وأنساه وجود « الخيرقان » إلى جانبه ، فقد طالعته وجوه حسان لفتيات ممشوقات القد ، ملفوفات القوام ، وقد امتلأت بهن الجزيرة من حوله ، وهن يقفن إلى جوار الأشجار ، يرتلن بأصواتهن الرخيمة العذبة أغنيات الشجن والاسى التى استمع اليها وهو يقترب من الجزيرة ، ولكنه لاحظ أنهن لا يتحركن من أماكنهن . . كما أثار انتباهه ، ان شعورهم الذهبية ترتفع إلى أعلا ، بشكل غير مألوف وجاءته ضحكة «الخيرقان » تقطع عليه ذهوله وهو يقول :

ـ انهن ثمار ، من لحاء وألياف كهؤلاء الرجال الذين تركناهم فى الجزيرة الثانية !

قال الملك « سيف » مندهشا :

ـ أهذه الحوريات الجميلات نبات حقا ؟

فقال « الخيرقان » :

ـ بل وثمار شهية لذيذة الطعم ، سائغة للآكلين ، تنبت فى هذه الاشجار ، وتلتصق بفروعها بواسطة شعورهن . . وتظل تصدر هذه الاصوات الحنون حتى تذوى وتسقط عن الشجرة إلى الأرض وتموت . .

قال الملك « سيف » :

ـ سبحان صاحب القدرة ، أتقول إن هذه المخلوقات ثمار تؤكل ؟!

ولم يجب « الخيرقان » وانما اتجه إلى احدى الثمار ، فاقتلعها من غصنها على الشجرة ، فكفت فى الحال عن الغناء . . وظل يزيل عنها قشرها ، لتكشف عن ثمرة لها رائحة ذكية جميلة ، هى الرائحة التى تملأ الجزيرة

كلها ، وتتكون من فصوص طويلة متشكلة بشكل الجسد نفسه ، وانتزع « الخيرقان » فصا من هذه الفصوص وقدمه إلى الملك «سيف » فأخذه منه مترددا ، إلا أن الفضول غلبه على أمره فقضم من الفص قضمه صغيرة أخذ يلوكها فى فمه فى حذر ، الا أن حذره سرعان ما زايله ، لذلك الطعم الجميل السائغ ، الذى وجده فى مذاق هذه الثمرة . . فمضى يلتهمها فى تلذذ واستمتاع ، حتى أتى على الثمرة كلها دون أن ينتبه . فلما اكلها رفع رأسه ليحمد الله إذا أطعمه بعد جوع ، وإذ بعيناه تلتقيان بعيون حزينة تطالعه من هذه الوجوه الفاتنة المدلاة من الاشجار ، وكأنها تلومه وتعاتبه . . كما ازدادت أصواتهن حزنا وأسى ، وكأنما ينعين الثمرة التى أكلها ، وأحس الملك « سيف » كأن طعنة حادة تنفذ إلى قلبه فتدميه ، وملأه احساس مرير بالندم ، والتفت إلى «الخيرقان » حانقا ، فأسرع هذا يقول له :

ـ لا تعجل بالغضب ، فهذه الثمرات ما خلقت الا لتؤكل . . ومع هذا فهى تحزن عندما تلقى واحدة منهن مصيرها ، والبحارة الذين يصلون إلى هذه الجزر ، ويدفعهم الجوع إلى أكل بعض هذه الثمار ينتهون بأن ينتحروا . . اذ يقذفون بأنفسهم إلى المحيط هربا من أصوات بكائهم ونواحهم الذى يحرك فيهم الاحساس بالاثم والندم !

قال الملك « سيف » :

ـ ان صوت بكائهن ليقطع نياط القلوب ، وهذه الاغنية الحزينة التى يرددنها تدفع بالدموع دفعا إلى العيون ، وتدمى القلوب حتى لتنزف دما . . ولست أرى لى بقاء فى هذه الجزيرة ، فهلم خذنى إلى غيرها . .

وحمل « الخيرقان » الملك « سيف » وطار به مغادراً الجزيرة الثالثة . . وفى قلب الملك « سيف » جرح عميق من الاسى والالم ، وأصوات حزينة

باكـية ، تـتردد أصـداؤها فـى ذهـنه وسمعه .

* * *

قال« الخيرقان » :

ـ نحن فى الجزيرة الرابعة أيها الملك . .

فانتبه الملك « سيف » ليجد نفسه فى جزيرة جرداء ، خالية من كل شىء ، لا زرع فيها ولا ماء . . وفى وسطها بناء ضخم من النحاس الاحمر، أمامه عمود رفيع ، والبناء والعمود مليئان بالكتابة والطلاسم

فقال الملك « سيف »

ـ لست أجد أحدا هنا . . فكيف بنى هذا البناء ، ولا أثر حوله للحياة؟!

قال « الخيرقان » :

ـ ان هذا العمود ، وهذا البناء ، طلاسم وضعها إنسان شرير ، كانت تحرق ما يمر بها من الإنس والجن حتى بطل مفعولها ، وزال أثرها ، فظلت الجزيرة مهجورة وان بقيت الطلاسم قائمة شاهدا على ما مر بالجزيرة من أحداث . .

قال الملك « سيف » :

ـ وما قصة هذه الجزيرة يا « خيرقان » . . ؟

فقال « الخيرقان » :

ـ لقد تعبت أيها الملك ، وأرى أن تستريح هنا الليلة حتى الصباح . . وبينما تتناول طعامك ، سأحكى لك حكاية هذه الجزيرة . .

فوضع الملك « سيف » القدح على الأرض ، وغطاه بالفوطة ، وأشار اليه بيده اليمنى وهو يقول :

ـ أريد خبزا ولحما وماء ..

ورفع الملك « سيف » الفوطة ، فظهر له الطعام والماء ، وجلس يأكل بينما مضى « الخيرقان » يقول :

ـ كان ملك هذه الجزيرة ، شريرا كاهنا ، اسمه « عابد النجوم » ، وكان له ابن لا يقل عنه شرا . . لا يجد له هواية سوى اغتصاب الحرائر من صبايا الجزيرة ، ولا يستطيع أحد أن يرده وأن يمنعه . . فقد كان سلطان أبيه يحميه ، وان امتنعت واحدة عنه قتلها ، واستباح دمها ، إلى أن تعرض ذات يوم إلى ابنة الوزير ـ وكان اسمه « كيوان » ـ فامتنعت عليه، واحتمت بأبيها ، الذى هرع من فوره إلى الملك « عابد النجوم » ، الذى كان يجل وزيره ويخاف نفوذه وسطوته . . فاستدعى ابنه وكان اسمه « شاحوطة » وأخذ يؤنبه امام الوزير لينفثئ غضبه وتهدأ ثورته، الا أن «شاحوطة » كان أحمقا ، فرد بغلظة على أبيه ووزيره حتى استثار غضب أبيه عليه ، فصاح به مهددا وهو يرمى إلى ارضاء الوزير « كيوان » :

ـ ان فجورك قد زاد عن الحد ، وانا امنعك من هذا الفعل المنكر الذى تأتيه . . بل انى أبيح دمك للوزير « كيوان » ، ان أنت تجرأت على ابنته . .

فأسرع الوزير « كيوان » ينتهز فرصة غضب الملك ويقول :

ـ ان هذا يكفينى أيها الملك . . وما دمت انت قد ابحت لى دمه ، فانى أنذره أمامك ، ان اعتداءه على ابنتى ليس له من ثمن عندى سوى حياته .

وانفض المجلس و « شاحوطة » ابن الملك ، يأخذ الامور مأخذ الهزر، و « كيوان » وزير الملك ، يطوى جوانحه ، على الجد والتصميم .

قال الملك « سيف » وهو يروى ظمأه من اناء الماء المعطر ، ثم يعود لاستئناف طعامه :

ـ وهل يرتدع ، من دمر النفوذ نفسه ، واستمرأ السطوة والسلطان؟!
فقال « الخيرقان » :
ـ وهذا ما حدث أيها الملك السديد الرأى ، فقد دخل الوزير مخدع ابنته ذات ليلة ، ليجد « شاحوطة » وقد أجهده ما بذله من جهد فى اغتصاب ابنته ، وقد استلقت هى فى رعب وخوف ، لا تكاد تستطيع أن تفتح فمها وأن تصيح ، فاستشاط « كيوان » غضبا ، وامتشق سيفه وضرب « شاحوطة » به ضربة مليئة بالغيظ جاءت على وسطه فجعلته شطرين وأهلكته فى الحال ، وأسرع إلى ابنته التى انفجرت باكية ، فأمرها أن تلزم الصمت وان تستدعى الخدم ليلقوا بجثة « شاحوطة » بعيدا عن القصر . .
وقال الملك « سيف » وهو يضع الفوطة فوق الطعام ، بعد أن أكل واكتفى :
ـ لقد لقى هذا المأفون جزاءه ، فان من اعمته السلطة عن مراعاة الحرمات ، لا يردعه الا القتل . .
ثم أشار بيده اليمنى إلى الفوطة ، وهو يقول :
ـ الحمد لله . .
ورفع الفوطة ليجد القدح فى مكانه ، فوضعه بين متاعه ، واخذ يستعد للرقاد وهو يقول « للخيرقان » :
ـ وكيف تلقى الملك « عابد النجوم » نبأ موت ابنه ؟
قال « الخيرقان » :
ـ أرغى الملك « عابد النجوم » وأزبد ، حين حمل له الحراس ما تبقى من جثة ابنه التى مزقتها الجوارح والصقور ، واتجه تفكيره إلى الوزير ، فاستدعاه . . واعترف الوزير بقتله لـ « شاحوطة » وذكر الملك بأنه هو

الذى أمره بذلك ، وازداد حنق الملك واشتد غضبه لانه أحس بعجزه عن معاقبة قاتل ولده . . فصاح بوزيره قائلا :

ـ أننى لن أقتلك ، حتى لا أصبح معرة بين الملوك . . ولكنى أمهلك حتى صباح الغد ، لترحل عن جزيرتى أنت وأهلك ، وخدمك وعبيدك . . أما إذا طلع الصباح على واحد منكم فى هذه الجزيرة ، فسوف يلقى حتفه على أبشع صورة . . والآن أغرب عن وجهى ، قبل أن أنسى وعدى لك وأمزقك بيدى . .

وانصرف الوزير « كيوان » مهرولا يجمع أهله وخدمه ، وقد امتلأ قلبه بالغيظ والحنق ، وقد عزم على الانتقام من الملك الذى نسى خدماته له ، وأراد أن يحمى فجور ابنه حيا وميتا . . وسرعان ما كان يغادر الجزيرة هو وأهله وابنته مصطحبا معه ماله وذخائره ، متجها إلى حيث كان يعيش صديقه الملك « الحارث » الذى كان يطمع منذ زمن فى ضم هذه الجزيرة إلى ملكه . وانتهز فرصة غضب الوزير ليقوده إلى مواطن الضعف فى دفاع الملك « عابد النجوم » الا أن الوزير « كيوان » قال له :

ـ ان الملك « عابد النجوم » كاهن سحار ، ولن نستطيع أن نهزمه بالجيوش وحسب لانه سيستعين علينا بعلوم الاقلام ، ولابد لنا من مقارعته فى ميدان السحر والكهانة .

فقهقه « الملك الحارث » ضاحكا وهو يقول :

ـ ان عندى فى الجزيرة ، أربعة من أمهر الكهان ، يرأسهم كاهن سحار ، لا يشق له غبار . .

فاستراح بال الوزير « كيوان » وانبسطت أساريره ، وتعاهد مع الملك «الحارث » على اعداد الجيوش ، وتسير الجنود ، للاستيلاء على جزيرة «عابد النجوم » وقتله . .

قال الملك « سيف » وهو يتخفف من ملابسه ويريح رأسه فوق «بقجة» الملابس التى أعطاها له « أبو النور » . .

ـ وهكذا انقلب المظلوم إلى ظالم . بعد أن كان صاحب حق

ـ غدر به الملك وابنه ـ أصبح « كيوان » خائنا ، يتربص بوطنه الفرص، ويقود أعداء بلاده ، وقد أعمى الحقد عينيه ، وختم على قلبه . .

قال « الخيرقان » :

ـ لقد أحس الملك « عابد النجوم » بنار الغدر والخيانة ، تنهش قلب وزيره ، فذهب إلى بيت رصده ، وضرب الرمل ، فتكشفت له نياته ، وظهر له لقاؤه مع الملك « الحارث » وعزمهما على مهاجمة الجزيرة والقضاء عليها ، فصنع هذا البناء النحاسى وهذا العامود ورصد فيهما مردة الجان ، حتى يعجز السحرة عن اقتحام الجزيرة ، والنفوذ من أرصادها . . ثم بنى سورا حول الجزيرة تحصن بجنوده خلفه ، وأقام عليه المنجنيقات والاحجار . وهكذا عندما وصل جيش الوزير « كيوان » والملك الحارث إلى جزيرة « عابد النجوم » جوبهوا بمقاومة شديدة ، اذ تصارخت عليهم اعوان الجان ، وردتهم شرارات اللهب بعيدا عن الاسوار . . كما انقضت عليهم المنجنيقات والاحجار والسهام من فوق الاسوار ، ولم يجدوا وسيلة للرد بها على أعدائهم المتحصنين ، فتراجعوا وقد كثر بينهم القتلى والجرحى، ومن تخلف منهم مزقته سيوف حراس الجزيرة الذين يخرجون من أماكن معلومة بالسور . واجتمع الملك « الحارث » بالوزير « كيوان » وقال له :

ـ لو أن الامر مقصور على الجنود لهزمناهم ، ولكنه استعان علينا بعلوم السحر والكهانة . .

فاستدعى الوزير الكهنة الاربعة ورئيسهم ، وطلب منهم أن يبطلوا

هذه الارصاد ، وظل الكهنة يعملون ليل نهار ، حتى استطاع رئيسهم - بما يعرف من أسرار - أن يحضر اليه ملك الجان فى الجزيرة ، وأن يسأله عن سر هذه الارصاد ، فقال له ملك الجان :

- لقد وكل « عابد النجوم » بهذا البناء سبعين ماردا ، ووكل بالعمود سبعين عونا يردون العابرين ، ويحفظون الأرض من الوافدين وجعل أرصادهم على لوح من النحاس الاصفر ، منقوش بالاسماء والطلاسم ، وجعل اللوح فى عنق أسد هائل فى حجم الثور أو أكبر ، مصنوع من الجلد الاحمر ، ووكل لحراسته سبعين ماردا من الجان . . فاذا بطل هذا الاسد ، بطلت جميع الارصاد . .

فقال رئيس السحرة ، وكان اسمه « بقطوش » :

- وكيف يمكن ابطال هذه الارصاد ، والقضاء على هذا الاسد الذى يحمى سحر « عابد النجوم » ؟!

قال ملك الجان :

- لا يبطل هذا السحر الا ذخائر موجودة فى كنوز الملك « كوش بن كنعان » وليس لنا معشر الجان ، من وسيلة للوصول اليها ، وانما الامر متروك لك نحملك إلى هناك ، وأنت وما قدر عليك . .

فطار « بقطوش » من الفرح ، وأمر ملك الجان أن يحمله من فوره إلى كنوز « كوش بن كنعان » وهناك تقدم من حراس الكنز ، وحكى لهم ما فعله الساحر « عابد النجوم » بأرض جزيرته . وطلب منهم المعونة على ازالة هذه الارصاد ، حتى تعمر الأرض ، وتصلح أمور الناس . وأحضر له الحراس كيسا مليئا بالرمال الناعمة وقوسا وكيسا آخر ، وقال له كبيرهم :

- هذه الذخائر ، كفيلة بأن تبطل الارصاد عن الجزيرة ، ولكن لابد

لك أن تعيدها الينا ، اذا ما انتهت حاجتك منها . .

فوعدهم « بقطوش » وهو لا يتمالك نفسه من الفرح ، أن يرد اليهم ما أخذ ، وهرع إلى ملك الجان يحمله فى طريق العودة . . وفى الطريق سأله عن فائدة هذه الذخائر فقال له :

ـ أما كيس الرمال ، فانك ان ضربت ببعض ما به وجه العمود ، تهرب منه الاعوان والارصاد ، وان ضربت بملء قبضة أخرى وجه البناء ، غادرته قوة السحر وتركه أعوان الجان . . وأما القوس فان مهمتها مع الاسد المرصود ، فان فى الكيس الآخر ثلاث نبلات ، تضربه بأولها فان أصبته بطل وانتهى ، وان لم تصبه ابتلعتك الأرض حتى ركبتيك فاضربه بالنبلة الثانية فان أصبته بطل وانتهى وان لم تصبه ابتلعتك الأرض حتى اثداثك ، فاضربه بالنبلة الثالثة فان أصبته بطل وانتهى ، وان لم تصبه ابتلعتك الأرض كلك ، ورحت كما راح غيرك . . !

وما كاد « بقطوش » يصل إلى الجزيرة ، حتى رمى العمود بالرمل ، فتصايحت أعوان الجان صارخة وهى تغادر أماكنها هاربة ، ثم اتجه إلى البناء ، فقذفه بحفنة من الرمال فانبعث منه لهيب من نار ، وعلا فيه الصراخ ، وحراسه من الجان يفرون غير ملوين على شىء ، واتجه إلى حيث الاسد المرصود ـ ـ وبصحبته الكهنة الاربعة ـ وأخرج النبلة الأولى وأوترها فى القوس واطلقها بكل قوته على الاسد فأخطأته ، وسرعان ما أحس بقدميه تغوصان فى الأرض ، واذ بها قد ابتلعته حتى ركبتيه ، فتصبب جبينه بالعرق ، وامتلأ قلبه بالخوف . .

ولكنه تذكر كلام ملك الجان ، فعاوده الامل ، أن تحقق النبلة الثانية ، ما عجزت الأولى عن تحقيقه ، فأخرج النبلة الثانية ، وصرف وقتا طويلا فى التصويب إلى هدفه ، والتأكد من مرماه . . وعندما جذب القوس ،

انطلقت منه النبلة ، لتمر إلى جوار الاسد دون أن تصيبه ، وقبل أن يتمالك نفسه ، أحس بجسده يغوص فى الأرض إلى أن ابتلعته حتى ثدييه ، ووجف قلبه ، وامتلأت عيناه بالدموع وقد وقف الكهنة من حوله يرتجفون ، وقد ملأ الذعر قلوبهم ، وود لو يجرى بعيدا عن هذا الرصد المشئوم ، ولكنه كان قد قطع من الطريق أطول أشواطه ولم يعد هناك من أمل فى الخلاص ، الا إذا قضى على هذا الرصد . . فلا فكاك له من الأرض التى تطويه وتبتلعه ، الا باصابته بالنبلة الثالثة والأخيرة . وكان اليأس يغمر نفسه ، والعرق البارد يغطى عينيه ، وهو يصوب ـ فى ذعر شديد ـ نبلته الثالثة نحو الاسد المرصود ، وأعاد القوس مرة أخرى يريحه على الأرض وهو يتمتم :

ـ لا فائدة ، أننى لا أكاد أرى شيئا . .

فقال له الكهنة :

ـ لو تقاعست الآن لمت ، ولمتنا جميعا ، فسيكتشف « عابد النجوم » ما حدث للعمود والبناء النحاسى ، وسيلاحقنا بانتقامه ، ولن نستطيع الوقوف أمامه . .

ثم مسحوا له العرق الذى غطى وجهه وعينيه ، ورطبوا له حلقه الجاف بماء معطر ، وأخذوا يبثون الحماسة والامل فيه . وفى عزيمة ولدها اليأس ، صوب « بقطوش » قوسه واحكم هدفه الا أن الرعشة عادت تهز يديه هزا ، وإذا به يخفض قوسه ويستسلم لنوبة من البكاء المرير ، وهو يصيح :

ـ لا . . لن أستطيع . . ان هذا فوق طاقتى . .

فجعل الكهنة يبكون ويتوسلون وهو لا يكاد يسمع أصوات بكائهم ولا عويلهم . . وسرعان ما طغت على هذه الاصوات ، أصوات أخرى أكثر ارتفاعا واشد ضجة . . واذ بجيش الوزير « كيوان »

و«الملك الحارث » يرتد مهزوما ، أمام هجمات الملك « عابد النجوم » الذى اكتشف ما حدث لارصاده ، وعرف ما ينويه « بقطوش » فخرج بكل جيشه من الجزيرة ، لينقذ رصده ، قبل أن يقضى عليه كبير الكهنة . . وتجاوز جيش الملك «الحارث » والوزير « كيوان » فى هروبه ، المكان الذى وقف فيه «بقطوش» ولم يلتفتوا اليه الا بعد أن جاوزوه . وانتبه « بقطوش » إلى جيش « عابد النجوم » وهو يقبل عليه من بعيد ، وعلى رأسه الملك الغاضب يلوح بسيف مهول ، وهو يتجه إليه كالسهم ، وجواده يطير به بسرعة الريح . .

ورفع « بقطوش » القوس فى يده بسرعة فائقة وضرب الرصد بالنبلة الثالثة دون تردد ، وانبعث شرار النار من الاسد المطلسم ، وهوى كالخشبة الميتة . . وأحس « بقطوش » بشىء يرفعه إلى أعلا ، وسرعان ما لفظته الأرض . وعلا صوت « عابد النجوم » وهو يصرخ فى يأس وغضب ، ويهجم بكل قوته على الساحر « بقطوش » ليقتله . . ولكن سيفه لم يصل اليه ، لانه اصيب بطعنة قاتلة من خلفه صوبها إلى رأسه الوزير « كيوان » الذى عاد بكل جيشه ، وقد انتبه إلى ما يفعله «بقطوش»

قال الملك « سيف » :

ـ أن يد الغادر لا تمتد الا من الخلف ، وطعنته لا تصيب الا فى الظلام . .

فقال المارد « الخيرقان » :

ـ ولكن جزاء غدره لابد أن يلاحقه ، حتى ولو بدا له وجه النصر لائحا وعلاماته منصوبة . . فقد بلغ من فرحة « كيوان » بالنصر ، أنه أطلق سيف التقتيل والذبح فى كل جنود « عابد النار » حتى أفناهم ، ثم انقلب إلى الجزيرة يقتل ويحرق كل من يلقاه من أهلها ، وأحال يوم نصره إلى يوم

مذبحة عامة ، تمتد إلى الشيوخ والنساء والأطفال ولا ترحم من أهل الجزيرة أحدا

ومضى الليل بطوله ، وصيحات المنصورين المخمورين المنتشين بطعم الدماء ، تمتزج بصرخات أهل الجزيرة ، الذين فتح لهم الهول أبوابه ، وأدركهم السيف الغاضب أينما توجهوا . وما كاد الصباح يشرق، حتى كان أهل الجزيرة قد امتدت اليهم يد الفناء جميعا ، فلم يبق منهم أحد . . ولكن « بقطوش » كان قد نسى فى غمرة النصر ، وفرحته بالنجاة من الميتة المرعبة ـ التى كاد يذهب ضحيتها ـ ما كان قد وعد به حراس كنوز الملك «كوش بن كنعان » من اعادة الذخائر اليهم ، فخرج هؤلاء غاضبين صارخين ، وانطلقوا إلى الجزيرة مدمرين ، فقتلوا كل من كان فيها . . وسرعان ما لحق المنتصرين بالمنهزمين ، وأصبحت الجزيرة ـ كما ترى يا مولاى ـ بلقعا خاوية ، ولم يبق بها إلا هذا العمود وهذا البناء اللذين لم تعد لهما قيمة . .

قال الملك « سيف » وهو يستسلم لجيوش الكرى تغزو عينيه :

ـ كم تبدو القصة حية ؟ . . وكم تبدو هذه الجزيرة ميتة ؟ . .

والتفت « الخيرقان » ليرد على الملك « سيف » فوجده قد نام ، فدثره بعباءته ، وابتعد قليلا عنه ، واستلقى بجسده الكبير على الأرض وهو يهمس لنفسه :

ـ ما اعجب هؤلاء البشر ، لا يوقف طموحهم شىء . . ولولا أنهم فانين لما أعجزهم شىء !

واستقبل بوجهه نسمات الليل الندية ، تحمل له روائح البحر ، الذى تحيط مياهه بالجزيرة ، تمور غاضبة . . وتأتى مندفعة بقوة نحو الشاطئ ، فاذا ما وصلت لاهثة اليه ، ردتها الصخور الصلبة ، فعادت متكسرة عليه، ثم أغمض عينيه ونام . .

- ٧ -

مع أولى نسمات الصباح الندية ، استيقظ الملك « سيف » وهو يحس نشاطا يملأ جسده ، وتحفزاً يدفعه إلى الحركة . . ووثب من مكانه ، يبحث عن « الخيرقان » الذى كان ما يزال يغط فى نومه العميق ، مجهدا من أثر الرحلة المضنية . . وايقظ الملك « سيف » المارد «الخيرقان» فوثب هذا من نومه وهو يقول :

ـ نعم يا ملك الزمان . .

قال الملك « سيف » :

ـ هيا بنا نستغل فترة الصباح الندية هذه ، قبل أن تخرج الينا الشمس بحرها ، لنكمل رحلتنا ، ونزور ما بقى أمامنا من جزائر . .

قال « الخيرقان » وهو يقوم من منامته فى فتور :

ـ ان الرحلة اوشكت على النهاية ، وأمامنا اليوم طويل . . ولكن ما دامت هذه رغبتك أيها الملك ، فهيا بنا . .

وحمله « الخيرقان » من الجزيرة المهجورة ، وطار به فى السماء . . وظل يخترق به السحاب حتى اشتد هجير الشمس ، وازداد حرها ، وعند الظهر قال « الخيرقان » :

ـ هذه هى الجزيرة ايها الملك

فقال الملك « سيف » ، وهو يعجب فى نفسه من هذا الفتور الذى أحسه فى سلوك « الخيرقان » :

ـ اذن فانزل بنا اليها . .

وفى بطء شديد نزل « الخيرقان » إلى الجزيرة ، وتمكن الملك « سيف» وهو يهبط إلى الجزيرة من أن يمتع عينيه بمنظر الجزيرة الخلاب وهو يشرف عليها من عل . . كانت واحة خضراء ، امتلأت باشجار كثيرة وارفة الظلال ، واصطفت فى نظام بديع وتنسيق متقن ، تقسمها انهار رقراقة ، أقساما متعددة ، يتميز كل قسم منها بلون خاص ، يسود ازهاره ، ويميز أشجاره . . وكانت الالوان فى تعددها وتناسقها ، تبدو كأنها الوان قوس قزح . وحين هبط المارد به إلى أرض الجزيرة ، استروحت رئتاه مزيجا من الروائح العطرة ، تشرح النفس ، وتبهج القلب وقال الملك « سيف » وهو يتلفت حوله :

ـ كأن هذه الجزيرة قطعة من الجنة . .

قال « الخيرقان » :

ـ لقد حققت لك أيها الملك ما أردت منى . . فدعنى الآن انصرف واعطنى لوحى ، واتركنى اتوجه إلى حال سبيلى . .

فدهش الملك « سيف » وقال « للخيرقان » :

ـ ألم نتفق على أن تصحبنى حتى نهاية جزائر واق الواق ؟

قال « الخيرقان » :

ـ وأنا قد فعلت هذا . .

فغضب الملك « سيف » وصاح به :

ـ أتريد أن تغدر بى أيها المارد الملعون . . أن هذه ليست سوى الجزيرة الخامسة ، وبقيت أمامنا جزيرتان غيرها . .

وانكمش المارد ، وظهرت عليه علائم الاضطراب ، وهو يقول :

ـ عفوك أيها الملك ، انما ضاقت نفسى من هذه الجزيرة . . ولست أحب أن أمكث فيها لحظة واحدة ، وأنت فيها أرى ، قد استهواك ما بدا

من جمالها ، وما كنت أخشى عليك الا من شرها ، فأردت أن أتحايل لابعادك عنها . . !

فعاد الملك « سيف » يلتفت حوله مندهشا ، فالجزيرة تبدو دوحة منسقة جميلة ، وروائحها عطرة منعشة ، والاصوات الرقيقة التى تنبعث من جوانبها ، تشرح الصدر وتملأ القلب بهجة ، وقال للمارد :

ـ بل قل إنك تعبت ، وتريد أن تتحايل لتنهى هذه السخرة التى فرضت عليك ، وانا لن أغفر لك انك تحاول ان تخدعنى . . !

قال « الخيرقان » :

ـ وهل أملك ـ واللوح المرصود معك ـ أن أخرج من أسرك ، أو أن أتحايل على خداعك . . أنما هى هذه الجزيرة ـ بما فيها من لعنة وشؤم ـ هى التى تخيفنى وتمرضنى

فهز الملك« سيف » رأسه فى عجب ، وهو يقول :

ـ انها أجمل ما رأينا من جزر ، بل لعلها اجمل مكان فى العالم . .

فقال « الخيرقان » :

ـ هذا ما يبدو من بعيد . . أما الجزيرة فهى فى حقيقتها جحيم لا يطاق ، ومهلكة لم ينج منها أنس أو جان . . فهيا بنا منها ، قبل أن نقع فى مهاوى الهلاك !

فضحك الملك « سيف » وهو يقول :

ـ إلى هذا الحد تخاف من سكان هذه الجزيرة . . ترى ايسكنها تنين أم أفعوان ، وما كنت احسب أنك تخاف من مخلوق أو حيوان !

فقال « الخيرقان » :

ـ أن هذه الجزيرة لا يسكن بها أنسى أو جان ، كما أنها مهجورة لا يطرقها حيوان أو طائر ، مهما كانت قوته . . وان زارها مخلوق ، فانها

يقصدها لهلاكه ، ولن يعيش بها حتى يروى ما رآه . . !

فاشتد عجب الملك « سيف » وبدأ الخوف يتسرب إلى قلبه . . وعاد يتلفت حوله ، فلا يرى الا أبهج المناظر الملونة ، تكسو الجزيرة كلها ، فتحيلها صورة حلوة لأبهج ما يخطر على قلب إنسان . . وأخذ يقارن بين ما يرى وما يسمع ، فتشتد دهشته ، وتعظم حيرته . وبينما كان كلام المارد، يستحثه على الهرب ، من الخطر المجهول الذى لا يراه ، كانت رغبته الشديدة تتزايد فى أن يعرف كنه هذه الجزيرة الجميلة وان يكشف اسرارها . . واطرق إلى الأرض لحظة ، فقال « الخيرقان » :

ـ ليس هناك مجال للتردد ايها الملك ، فهيا بنا نغادر هذه الأرض الملعونة . . وثق فيما أقول ، فاننى اخاف عليك واخاف على نفسى . .

فرفع الملك « سيف » رأسه ، وهو يقول فى تصميم :

ـ بل سنزور هذه الجزيرة ، مهما تعرضنا للاخطار . . وستصحبنى لتشرح لى أمر هذا الشىء المجهول الذى يخيفك . . !

وبدا الذعر على وجه المارد ، وهو يقول :

ـ أنا أصحبك يا مولاى ؟ . . أنا لا أريد أن أرى شيئا ، فاذهب أنت وسأنتظرك حتى تعود . . !

فنظر اليه الملك « سيف » وفى عينيه نظرة عزم وتهديد ، وهو يقول :

ـ بل ستأتى معى كما قلت لك . .

واطرق المارد ، وهو يقول فى تخاذل :

ـ ما دامت هذه مشيئتك ، فالأمر لك . .

* * *

اتجه الملك سيف إلى الدغل الكثيف الذى يواجهه ، ووراءه «الخيرقان» يتبعه فى استسلام وخوف . . وكان الدغل مجموعة كثيفة من الأشجار

المتشابكة التى تكسوها بدل الأوراق مجموعات كثيفة من الاعشاب الرفيعة التى تشبه الشعر الأدمى . . ووقف الملك « سيف » عندما وصل إلى أقرب الأشجار اليه يتأمل فى هذا المنظر الفريد الجميل ، فقد كانت الشجرة تكاد تختفى وراء شعر كث فاحم اللون يلمع فى ضوء الشمس المشرقة فى بريق زاه جميل . . بينما كانت الشجرة التى تجاورها تتألق فى بريق يخطف الابصار اذ تنعكس أشعة الشمس على شعرها الذهبى اللامع . . وأخذ الملك « سيف » يجيل البصر حوله فى دهشة وذهول ، فلكل شجرة شعر بلون مختلف عن الشجرة التى تجاورها . . هذه شعرها فضى اللون ، والاخرى تحمل شعرا احمر فى لون الحناء ، وثالثة فى لون شعرها الاسود بالاحمر فى مزيج عجيب جميل . . والتفت الملك « سيف » مبهورا إلى «الخيرقان » وقال له :

ـ أهذا ما يخيفك ايها المارد الخائر القلب ! . .

فقال« الخيرقان » وفى صوته نبرة غريبة :

ـ بل الازهار يا مولاى ، هيا بنا فهى لم ترنا بعد . .

قال الملك « سيف » وهو يضحك ساخرا :

ـ ما هى التى ترانا يا « خيرقان » . . ؟

قال « الخيرقان » وفى صوته خوف واضح :

ـ الازهار . . !

فانطلق الملك « سيف » و يضحك ساخرا ، ولكنه كف فجأة عن الضحك وقد تسلل إلى نفسه احساس مفاجئ بان عينا ترقبه ، وتكاد نظراتها تخترق ظهره . . والتفت الملك « سيف » وراءه فى حركة فجائية وقد ضايقه أن يقع فريسة لاوهام المارد « الخيرقان » . . ولكن الامر لم يكن وهما، فأمامه مباشرة ومن وسط الشعر الاسود الكثيف كانت تحدق فيه

عين سوداء لامعة . . ولم يصدق الملك « سيف » نفسه أول الامر ، ولكنها كانت أمامه حقيقة واقعة ، وفيها نظرة دهشة وتعجب . . وجاءه صوت «الخيرقان » الهامس ، تخرج كلماته متقطعة فى صعوبة :

ـ أرأيت ؟ . . ألم اقل لك ، هيا بنا نقطع هذا الدغل جريا ، فقد رأتنا العيون . . !

وتأكد للملك « سيف » أن ما رآه كان حقيقة ، فقال «للخيرقان » متسائلا :

ـ أهناك آدميون فى هذا الدغل ؟ . . انها عين آدمى . .

وعاد صوت « الخيرقان » يهمس :

ـ انها الازهار أيها الملك . .

ثم تغير صوته إلى صياح ، وهو يهتف فى ذعر :

ـ انظرأيها الملك ، لقد بدأت تظهر كلها . .

وعاد الملك « سيف » ينظر إلى الشجرة ، وأدهشة أن يرى فيها مالم يره من قبل . . فمن خلال الشعر الاسود الفاحم ، ظهرت فروع كثيرة ومتعددة ، تحمل فى آخرها أكماما مغلقة ، سرعان ما أخذت تتفتح ، لتبدو وسطها عيون سوداء تنظر اليه فى فضول ودهشة . . وكانت كل زهرة جديدة تتفتح ، تكشف عن عين جديدة تحملق ، وأدهشت هذه الظاهرة الفريدة الملك « سيف » ، وأذهلته عن نفسه . . فأخذ يبادل العيون المحملقة النظر فى صمت ، وهو يحس أنه يفقد قدرته على الحركة تدريجيا ، وجاءه صوت « الخيرقان » كالفحيح وهو يقول :

ـ انظر عن يمينك . . !

والتفت الملك « سيف » للشجرة ذات الشعر الذهبى ، فاذا بشعرها ينفرج عن اكمام كثيرة متعددة . . قد تفتح بعضها عن عيون زرقاء جميلة ،

واخذ البعض الآخر يتفتح أمامه فى سرعة مدهشة ، لتصبح الشجرة وكأنها اختفت تماما ، وراء هذه العيون التى تحدق فى فضول وتطلع . ولم يكن الملك « سيف » فى حاجة إلى تنبيه من المارد ، ليلتفت إلى الاشجار الاخرى . . ليجد أنها قد بدأت تمتلئ بالعيون التى تحدق واستهواه المنظر ، فنسى خوفه فقد كانت العيون من كل لون وشكل . . عيون سوداء ، وأخرى زرقاء ، وثالثة خضراء ورابعة عسلية وخامسة بنية ، وسادسة يختلط فيها اكثر من لون . . تحمل بعضها نظرات قاسية رهيبة ، وترسل اخرى نظرات حانية عطوفة ، ولكن كانت كلها ترقبه . . وعيون مستوية ، واخرى مائلة ، وثالثة مستطيلة ولكنها كلها ترقبه ، وعيون واسعة ذكية واخرى ضيقة خبيثة ، وثالثة عليها قتامة الغباء ، ورابعة تشع بالمكر والدهاء ولكنها كلها ترقبه .

وجاء صوت « الخيرقان » وكأنما يوقظ الملك « سيف » من سبات عميق وهو يقول :

ـ انها عيون السحرة ، اننى أفقد قدرتى على الحركة ، هيا بنا والا سحرتنا هذه العيون فى أماكننا

وبدأ احساس بالخوف ، يغزو الملك « سيف » فقد بدأ يحس ان هذه العيون تنفذ كلها إلى أعماقه ، وكأنها سهام مبرية النصل ، حادة الرءوس ، وقال وكأنما يطمئن نفسه :

ـ انها أزهار ، ألم تقل هذا . . ؟

فقال « الخيرقان » وهو يجذب الملك « سيف » من ذراعه :

ـ لقد ماتت . . وكانت تبكى وكأنها هى حزينة على نفسها . . !

وهل رأينا أزهارا بمثل هذه الحياة ؟ . . ان نظرات هذه العيون تحكى أسراراً رهيبة لا أدرى كنهها ، ولكنى أدرى أننى لو تركتها تحدق فى

هكذا فترة أخرى ، فسأجن حتما . . !

وقال الملك« سيف » وكأنما يبث الشجاعة فى نفسه هو :

ـ انها أزهار . . وهى لا تفعل شيئا ، سوى ان تنظر . . هل تخاف من الورود ؟ . انظر بنفسك أيها « الخيرقان » . .

ومد الملك « سيف » يده إلى واحدة من الفروع الرقيقة فجذبها بشدة من الشجرة واقتلعها فى يده وهو يقول :

ـ هى وردة فعلا . . ألم أقل لك . . ؟!

ولكنه لم يستطع أن يكمل حديثه ، فقد سمرته فى مكانه النظرة الغريبة ـ تطالعه من العين التى توسطت الزهرة التى أمسكها بيده ـ كانت أول الامر تحمل تعبيرا بالدهشة والاستغراب ، ثم تغير ما فى العين، فاذا هو ادراك وفجيعة ، ثم تغير حديث العين ليصبح حزنا ولوعة، وما لبث أن غشى العين ضباب رقيق ، ثم انسال من العين دمع، ما أن تساقطت قطراته على يد الملك « سيف » حتى أحس به دافئا سخينا ، كأنما هى قطرات دماء من قلب مجروح ، ثم كفت الدموع ، وراح سواد العين ، وبدأت الزهرة تنكمش على نفسها . . وعادت الاكمام تغلق فى تهدج ـ وقد قتم لونها ـ وما هى الا لحظات حتى ذبلت الزهرة كلها ، وما كان الملك « سيف » يمسك فى يده سوى بقايا نباتية ذابلة ، وهمس « الخيرقان» فى ذعر ودهشة :

ـ لقد ماتت . وكانت تبكى وكأنما هى حزينة على نفسها . . !

ولم يستطع الملك « سيف » أن يجيبه ، فقد جف حلقه ، والتصق لسانه فى فمه فهو لا يتحرك . . لقد كان ما رآه مازال يملأ عقله ، ويستولى على كل فكره . . وكان يستشعر فى قلبه حزنا دفينا ، أثارته مأساة هذه العين التى سبب لها كل هذه الفجيعة والحزن . وحين رفع رأسه ،

أصابه ذعر قاتل ، فقد كانت العيون تنظر اليه فى حقد وكراهية ، وكانت نظرات المقت وكأنها تصفعه وتدميه . . وأحس بالعيون تحاصره من كل جانب ، وجاءه صوت « الخيرقان » يقول :

انها تلتف حولنا . . !

وحين نظر الملك « سيف » حوله وجد هذه العيون تتشابك غصونها لتسد الثغرات بين الاشجار ، وهى كلها تنظر اليهما فى تهديد ووعيد . وأدرك أنه ان ظل فى مكانه لحظة أخرى ، فلن يجد لنفسه مخرجا من بين هذه الاشجار ، فاندفع يجرى بقوة ووراءه المارد ، والعيون تلاحقه فى كل خطوة . . تخرج فجأة من بين الشعر الكثيف الذى يحيط بالاشجار لتصفع وجهيهما ، وامتلأ الطريق بعيون تسد عليهما الطريق اذا ما اقتربا منها تراجعت لتفسح مكانا لعيون أخرى تحدق فى صمت رهيب وكراهية مرعبة . وكان الملك « سيف » يجرى وهو ينتزع قدميه من الأرض انتزاعا ، فقد بدأ يحس أن طين الأرض مبتل ، وفى كل خطوة يزداد المجهود الذى يبذله لينزع قدميه من الأرض المبتلة انتزاعا . . وبينما كانت العيون الحاقدة تحاصره وهو يجرى ، كانت الأرض تزداد ابتلالا إلى أن أصبح ينزع قدمه من وسط برك الماء فى صعوبة . . وهمس « الخيرقان » :

انها تبكى ، لتغرقنا بدموعها . .

وكاد قلب الملك « سيف » يكف عن خفقانه ، وهو لا يكاد يلتقط أنفاسه فى جريه اللاهث نحو الخلاص . . فقد أدرك أن العيون تستطيع أن تقتله ، وأنه كان واهما حين ظن بها ـ أول الأمر ـ العجز عن الايذاء . وأراد أن يغلق عينيه ، ليبعد عنهما هذه النظرات التى تحمل لقلبه السم القاتل . . وأراد أن يكف عن الجرى ويقف ليستريح أو يلقى بنفسه إلى الأرض ليبتلعه طينها الباكى المبلل بدموع ألف عين ، تبكى عينا ماتت

بيده الطائشة . . ولكن لم يكن هناك مجال للاستسلام والتخاذل ، فالموت تحت أقدامه ، والموت حوله يطل من كل العيون . . العيون التى تخرج فجأة ، كأنها من الهواء ، وتنبعث محدقه فيه ، كأنها لا تنتهى . . عيون من أمام ، وعيون من وراء ، وعيون من فوقه وعيون على الجانبين ، ودموع من تحته ترتفع لتغمر رسغ قدمه . . وفجأة وسط جريه اللاهث ، أحس أن أمامه ضوء الشمس من جديد ، وملأ رئتيه هواء نقى ، وأمامه كان فضاء يشرف على حافة نهر قريب فاندفع نحوه لاهثا وهو يحس بأنفاس «الخيرقان» تتردد فوق رأسه تماما ، وجاءه صوته وفيه نبرة أمل . .

ـ النهر . . هيا إلى النهر أيها الملك . .

ولم يكن الملك « سيف » فى انتظار من يستحثه على الجرى ، فقد كان منطلقا كالسهم نحو حافة النهر ، ولكنه حين وصل إليه ، وقف مكانه وقد تسمرت قدماه إلى الأرض ، وقال « الخيرقان » :

ـ اقفز أيها الملك فانى أحس بالعيون تتعقبنا وأخشى ان تدركنا . .

فقال له الملك « سيف » وهو ينظر أمامه فى ذهول :

ـ ألا ترى ما بالنهر . . ؟

وجاءه صوت « الخيرقان » يحمل كل نبضات الخوف ، وهو يقول :

ـ انه دم . . دم أيها الملك . . !

وكان النهر بالفعل لا يحوى ماء ، وانما تجرى بين ضفتيه دماء قانية ولم يكن فى هذا شك . . فليس لها قوام الماء ولا شكله ، ونظر الملك «سيف» حوله يبحث عن منفذ آخر ، ولكنه رأى من خلفه ، عشرات الالاف من العيون تبرز من وسط الدغل الذى فارقه بأعجوبة . . ولم يتردد لحظة فقذف بنفسه إلى النهر ، وظل يسبح بسرعة إلى الضفة الاخرى ووراءه المارد يتبعه عن كثب . . وحين لمست يده الضفة الاخرى تشبث بصخورها

بصعوبة فقد كانت يده مبتلة بذلك السائل اللزج الرهيب ، فأخذت تنزلق على الصخور ، دون أن ينجح فى الامساك بها ، وامتدت يد «الخيرقان » من ورائه ، تدفعه دفعة قوية ، فوصلت يده إلى اعشاب نامية، تشبث بها فى يأس ، وجر نفسه جرا إلى الضفة الاخرى حيث جلس يلهث، وهو يزيل من على وجهه وثيابه ذلك اللون الاحمر القانى ، الذى اصطبغت به ، وإلى جواره تمدد « الخيرقان » بجسده الضخم يلهث وينتفض !

* * *

لا يدرى الملك « سيف » كم ظل فى جلسته هذه على الضفة الاخرى من النهر ، يلتقط انفاسه اللاهثة ، ويعيد إلى ضربات قلبه المضطربة هدوءها وانتظامها . . ولكن اشعة الشمس الدافئة الحنون ، التى بعثت الدفء فى اطرافه المرتعشة ، والجفاف إلى ثيابه المبتلة ، اعادت الطمأنينة إلى قلبه ، فاعتدل فى جلسته ، وهو يقول للمارد :

ـ ما أجمل الجو هنا ، وما أرق الهواء . . أن هذه الرائحة المعطرة التى يحملها النسيم الينا ، لتنعش الافئدة وتحيى الآمال . .

قال المارد وهو يهب واقفا :

ـ ما أعجبك أيها الانسى . . ما أن بعدت عن الخطر ، حتى نسيته ، وعدت تتكلم عن الهواء والنسيم والروائح المعطرة !

قال الملك« سيف » :

ـ لقد كان الخطأ فيما حدث لنا ، هو خطئى انا . . فما كان ينبغى لى أن أمد يدى إلى هذه الزهرة فأقتلها قتلا !

وضحك المارد ضحكة خشنة ، وهو يقول :

ـ اننى اعرف كل جزء من هذه الجزائر ، بكل ما فيها من نبات وأثمار،

وبكل ما تحمل من مهالك ومخاطر ، الا هذه الجزيرة ، فان احدا من الجن الذين دخلوا فيها لم يخرج ليحدثنا بما وجد فيها وأنا لا أحب ان اسير فى أرض اجهلها ، فكفى ما لاقينا من اذى ، وهيا بنا احملك إلى الجزيرة التالية . .

قال الملك « سيف » :

ـ تريدنى أن أغادر هذه الجزيرة ، دون أن اعرف كل ما بها . . ؟!

فظهرت على صوت المارد نبرة التردد وهو يقول :

ـ أتعنى أنك لم تكتف بما حدث ، وتريدنا أن نرمى انفسنا فى مهلك جديد ؟!

وضحك الملك « سيف » وهو يقف ، وأخذ يسوى ثيابه وهو يقول :

ـ بل سنرى هذا الدغل الذى تبدو أشجاره امامنا ، واعدك اننى لن انزع زهرة من أزهاره فقط سأرى واتفرج ، فان الحوادث قد تتابعت ونحن فى الدغل الأول ، بحيث لم أمتع نفسى ، بمشاهدة هذه العيون عن قرب . .

قال المارد فى خوف :

ـ لقد متعنا انفسنا بما فيه الكفاية . . ويكفينا ما شاهدنا . .

فقال الملك « سيف » وهو يملأ رئتيه من الهواء العذب المعطر الذى يحيط به :

ـ لست احسب انه سيتاح لى أن أزور هذه الجزيرة مرة اخرى . . ولهذا فينبغى أن انتهز الفرصة لارى كل ما فيها ، مهما كانت أوهامك ومخاوفك . .

وما أن انتهى الملك « سيف » من حديثه ، حتى اسرع متجها إلى صف الاشجار التى تلمع شعورها المنسابة فى اشعة الشمس ، فتكون

شلالات من الضوء الملون ، تتماوج مع هبات النسيم فتختلط الوانها وتمتزج فى دعوة سحرية بمتعة حقيقية للعين المشاهدة ، واحس الملك «سيف» بخطوات المارد وهى تسرع إلى جواره وكان يقول :

ـ اذا كنت تريد الدخول إلى هذا الدغل الجديد ، فاعطنى لوحى واتركنى اذهب فى سلام . .

فقال الملك « سيف » وهو يقترب من الاشجار :

ـ بل ستأتى معى ، فكيف تكون ملك الجان فى هذه المنطقة وانت لا تعرف شيئا من اسرار هذه الجزيرة . . انظر ما ارق هذا الشعر وأنعمه وأجمله ، ان كل امرأة فى الوجود لتتمنى أن تنزل عن نصف عمرها ، لو منحها الله مثل هذا الشعر الكثيف ، الذى يتماوج فوق هذه الاشجار !

ولم يحر المارد جوابا ، فقد كانا قد دخلا فعلا بين صفين من أشجار الدغل السامقة ، وبهره كما بهر الملك « سيف » منظر هذه الاشجار ذات الشعور المنسابة ، وقال الملك « سيف » :

ـ سنرقب باعيننا فقط . . ولن تمتد ايدينا إلى زهرة أو ثمرة بأى أذى . .

وظل الملك « سيف » والمارد « الخيرقان » يسيران فى حذر ، يتأملان ذلك النوع العجيب من ألوان الشعور المنسابة من الاشجار ، فقد كانت ألوانها لا يعدها حصر ، ولا يدركها خيال . . وسرعان ما اصبحت خطواتهما اكثر اتزانا ، وقد اطمأن قلباهما وهدأت مخاوفهما وقال الملك «سيف» :

ـ ما أعجب الخالق ، وما أروع قدرته . . لن يستطيع مخلوق ، أن يحيط باسرار ابداعه وخلقه . .

قال المارد ، وقد نسى خوفه ، واسترد طمأنينته :

ـ أصبت ايها الملك . .

فقـال المـلك « سيف » فى دهشة :

ـ ماذا تقول ؟ . .

ولم يجد « الخيرقان » فيما قاله ما يستدعى دهشة الملك ، والتفت اليه وفتح فمه ليكرر الجملة ، ولولا أن النظرة المرتسمة على وجه الملك أوقفت الكلام فى حلقه ، فقد كان الملك « سيف » ينظر فى حذر وتطلع كأنما يستمع صوتا غريبا . . قال الملك « سيف » :

ـ أصمت . .

وكان صوت الملك غريبا ، بدا وكأنه يتحدث فى بئر ، يرجع أصداء الصوت . وعاد الصوت المزدوج يقول فى ذعر ، والملك يشير بيده :

ـ انظر . . ما هذا ؟

وتطلع المارد إلى حيث اشار الملك « سيف » فاذا به يرى غصنا رقيقا يبرز من بين شعر احد الاشجار ، وقد حمل زهرة ذات شكل عجيب وجعل يتأمل هذه الزهرة فى ذهول ، فلم يسبق له أن رأى شيئا مثل هذا ، وكانت النظرة فى عين الملك « سيف » ترسم محاولته المضنية ليتذكر أمرا غاب عن ذهنه ، وفجأة قال الملك « سيف » فى ذهول ، وصوته يتردد برجع كالصدى :

ـ انها اذن بشرية . .

ولم يكن فى كلام الملك « سيف » شك ، فقد كانت الزهرة فعلا أذنا بشرية كاملة . . وقال الملك « سيف » فى رعب :

ـ انها تسمعنا . .

قال المارد :

ـ انها تردد ما نقول ، تلتقط حديثنا وتعيده فيتضخم الصوت . .

ولم يكد المارد يتم حديثه ، حتى لاحظ الاثنان ، غصنا آخر يخرج من

بين شعر الشجرة نفسها ، وهو يحمل زهرة ضخمة مقفلة الاكمام . . سرعان ما انفتحت أكمامها وانبسطت ، لتبدو وسطها زهرة جديدة تشبه الاذن تماما ، وقال الملك « سيف » فى دهشة :

ـ أذن أخرى . . ؟!

وكان ترجيع الصوت فى هذه المرة اشد واقوى ، فقال المارد فى خوف شديد :

ـ لقد ازدوج الصدى

وتسمرت اقدام الاثنين وهما يرقبان عشرات الغصون ، وهى تخرج من الشجرة تتفتح مسفرة عن اذان جديدة ، وقال الملك « سيف » فى صوت خافت متخاذل :

ـ ان كل الشجرة آذان . . !

ورغم صوته الهامس ، فقد تردد الصوت وكأن هذه الجملة قد نطقها الف فم . . واحسا بحيرة عظيمة ، فقد ادركا ان حديثهما يوقظ آذانا اخرى من هذه الازهار . . فتخرج لتضخم اصواتهما من جديد ، اذ بدأت ثمار أخرى تظهر من خلال كل ما حولهما من أشجار . وكانت كل أذن ما أن تتفتح عنها أكمام الزهر حتى تتجه نحوهما فى اصغاء ، ولم تكن هذه الأذان متماثلة ، فقد كانت منها الكبيرة الضخمة التى تتعدد تعاريجها ، وتتسع طاقتها ـ وهى تتجه نحوهم فى اصغاء تتسمع ـ وآذان صغيرة رقيقة ، دقت تعاريجها ، وضاقت طاقتها ، واتجهت نحوهم فى اصغاء تتسمع . . وآذان طويلة واخرى قصيرة ، وآذان عريضة واخرى رفيعة ، وكلها تتجه نحوهما فى اصغاء تتسمع . . كل كلمة ، كل همسة ، كل نأمة تلتقطها الاف الاذان ، وترددها وتضخمها لينقلب الدغل إلى جحيم من الصوت ، وقال الملك « سيف » فى همس مبحوح :

ـ لنسكت تماما . . فلعلها ، ان لم تسمع لنا صوتا عادت تنام من جديد . . !

وتردد حديثه فى رجع رهيب ، فأخذ يتلفت حوله فى ذعر . . وكأنما ضبط متلبسا يتآمر على هذه الآذان الصاغية ، التى لا تفوتها أدق الاصوات واخفتها . واحس أنه كمن يقف عاريا . . تكشف الآذان عنه كل ثيابه ، تسمع حتى صدى الافكار فى رأسه ، وأخذ يستجمع نفسه ، فما كان ينبغى أن يخاف من أزهار ، لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا . وهمس « الخيرقان » فى رعب :

ـ لا تتحرك أيها الملك ، فان صوت حركتك يكاد يصم أذنى . .

وكاد رأس الملك « سيف » ينفجر . . فقد أخذت جملة « الخيرقان » تتردد ، وتتردد . وتتردد ، حتى لكأنه وسط مدينة مذعورة ، تصرخ كلها بهذه الجملة وحدها فى رعب وخوف . وكف الاثنان تماما عن كل حركة ، فقد كان سبيلهما الوحيد إلى النجاة أن تنام الآذان

واستقر كل شىء حولهما فى صمت رهيب . . وكأنما الكل يرقب وينتظر ، وهما فى وقفتهما الجامدة وكأنما فقدا كل حياة ، لا تتحرك منهما سوى العيون الوجلة، تدور فى ذعر وهى ترقب هذا السور الرهيب ، الذى أحاطهما من كل مكان ، سور من الآذان عن يمين وعن شمال ، اختفت خلفه الاشجار ، وسد عنهما كل مجال للرؤية . . وبدأ صوت ضئيل ممتد يتردد فى بطء ، يغيب ثم يعود اشد قوة ، كأن ريحا تهب ثم تتلاشى لتعود أشد عنفا ، كأنها موجة بحر تتكسر ثم تعود أقوى صخبا ، ورفع الملك « سيف » رأسه إلى أعلا . . وكانت السماء صافية والشمس ساطعة ، ونظر أمامه ـ وكانت الازهار ساكنة لا تتحرك ـ ومع هذا فزفيف الريح يشتد ويتعالى ، حتى أصبح كالعاصفة تتلاحق الريح فيها ،

وتأخذ بتلابيب بعضها ، وهى تتعاقب فى صوت متعال مخيف ، وعاد الملك « سيف » ينظر حوله ، وقد بدأ الصوت الرهيب يصك أذنيه فى عنف ، ويقتحم طريقه إلى عقله ، يكاد يشله عن الادراك والفهم . وجاء صوت المارد يتردد فى تكرار مخيف :

ـ انه صوت أنفاسنا . . !

ومد الملك « سيف » يده بسرعة يكتم نفسه فتضاءل الزفيف الرهيب بشكل ملحوظ ، ونظر المارد اليه ثم رفع يده يمنع بها تردد الانفاس فى صدره ، فتلاشى الصوت ومات . . ولم يكن الملك « سيف » يدرى كيف سيستطيع ان يحتمل هذا الخطر الذى ترغمه عليه الظروف . . إلى متى سيظل قادرا على حجب الهواء عن رئتيه ، ولكن لم يكن هناك بد من هذا فاما الصبر والتحمل ، واما أن يعود الصوت من جديد يحيل أنفاسهما ريحا عاصفة تعصف بهما وتودى بعقليهما . . وسكن كل شىء وبدأ صدر الملك « سيف » يؤ لمه ، وأحس بحاجته إلى الهواء تتزايد ، ولكن لابد من التحمل . .

ربما لو منع عن نفسه الهواء نجا ، ربما لو نجح فى أن يكتم انفاسه المدة الكافية أنقذ نفسه وزميله ، فالصمت عن الكلام لا يكفى ، والصمت عن الحركة لا يكفى ، ولكن لابد من الصمت ، الصمت كله ، حتى نأمة الهواء التى تدخل الرئة الظامئة ينبغى أن تتوقف . . وجال بعينيه من حوله ، وكانت الآذان تتجه اليهما فى انحناء كأنها تبحث عن شىء تردده ، كأنها تريد أن تتأكد أن كل شىء قد مات .

وارتفع وسط السكون دوى خفيف ، أخذ يزداد شيئا فشيئا ، وتبادل الملك « سيف » والمارد نظرات مدهوشة مرعوبة ، والضربات تعنف ، وصوت كالمطارق الجبارة ترفعها ألف يد قوية ، من أيادى المردة ، تهبط

بها فى طرق عنيف ، والخبطات القوية تزداد شدة وكأنها تنصب فوق رأسيهما مباشرة

وعاد الملك « سيف » يتلفت حوله فى ذعر ، وهو يحصى هذه الطرقات التى تتردد فى انتظام ورتابة . . ولكن سرعتها تزداد من لحظة لأخرى وفجأة اجتاحه خوف قاتل ، وأسرع يمد يده إلى صدره ، ويضعها هناك لحظات ، أدرك بعدها سر ذلك الصوت الرهيب . . لقد كان صدى دقات قلبه ممتزجا بصدى دقات قلب المارد . . وحين نظر إلى وجه المارد ، أدرك من تعبير عينيه المذعورتين أنه عرف هو الآخر سر هذه الطرقات المنتظمة العنيفة التى كادت أن تحطم كل ما يربطهما بالحياة ، وتبادل الاثنان نظرة متسائلة ، ثم انطلقا يجريان معا بكل ما يملكان من قوة ، واصوات أقدامهما على الأرض ، تتزايد وتدوى كأنها أقدام جيش مذعور يفر فى معركة خاسرة ، وأصوات أنفاسهما اللاهثة تتعقبها كأنها زفيف ريح غاضبة ، ودوى خفقات قلبيهما المذعورين يدوى فوق رأسيهما كأنه آصوات صخور ضخمة انتزعتها عاصفة غاضبة ، وهوت بها متتابعة إلى قرار سحيق . .

كانا يجريان جنبا إلى جنب فى سرعة مذهلة ، وقد وضع كل منهما يديه على أذنيه ، يحجب عنها قدر ما يستطيع تلك الاصوات الممتزجة المختلطة التى تطاردهما ، والآذان من كل مكان تتحول نحوهما ، من كل حجم ، من كل شكل ، من كل لون . . آذان تسمع وترجع الصدى ، وآذان تلتقط الصدى وترجعه مرة أخرى ، وهما يلهثان فى يأس ، يجريان فى رعب ، يهربان من الهول حولهما . . وأحس الملك « سيف » وهو يجرى ، أنه لم يعد يحتمل كل هذه الضجة

كانت رأسه تكاد تنفجر ، وقلبه يكاد يكف عن ضرباته ، وأنفاسه

تكاد تحتبس فى صدره ، وقد أخذ الاعياء منه كل مأخذ ، وحاصر الخوف عزيمته فاعتقلها ، وكاد يتهاوى إلى الأرض يائسا مستسلما ، حين رأى بعينيه المذعورتين نهاية الدغل تقترب ، ولمح ضوء الشمس يبدو من خلال فرجات الاشجار التى تشكل آخر حاجز بينه وبين النجاة ، فأشار بيده إلى المارد واندفعا معا يخترقان ذلك الحصار الذى فرضته عليهما الآذان التى تطل من آخر صف من الاشجار ، وكان الصوت قد بلغ أقسى شدته ، والصدى أعنف درجاته ، فاندفعا فى عنف ليشاهدا أمامهما نهرا ، يفصل هذا الدغل المقيت عن باقى الجزيرة . . فقفز اليه دون تردد ، ليغمسا آذانهما المرهقة تحت مياهه ، وليسبحا فى عنف نحو الشاطئ الآخر ، وما زالت أصداء جريهما تتبعهما ، وهما يسبحان فى النهر ، ولكنها أخذت تخف تدريجيا كلما ابتعدا عن الشاطئ ونظر الملك « سيف » ـ وهو يسبح ـ إلى المارد يشق الماء إلى جواره وقال :

ـ لقد نجونا . . !

وقال المارد :

ـ ألا ترى ماء النهر الذى نسبح فيه ؟

وحين نظر الملك « سيف » إلى الماء الذى يضربه بذراعيه بقوة ، انتابه ذعر جديد ، فقد كان يسبح فى نهر من دم . . !

* * *

ما أن وصل الملك « سيف » والمارد « الخيرقان » إلى ضفة النهر ، حتى ركع المارد أمام الملك مبتهلا فى ضراعة أن يعطيه لوحة ، ويدعه ينصرف إلى حال سبيله ، وقال المارد :

ـ ان مهمتى هى أن أصل بك إلى جزيرة البنات فى نهاية جزر واق

الواق، وليس فى هذه المهمة على الاطلاق أن نتعرض لهذا الجحيم الذى تصر أن تقذفنا فى مهلكه ومخاطره

وأنهى المارد « الخيرقان » حديثه قائلا :

ـ فشىء من اثنين . . اما أن احملك واذهب بك فورا إلى جزيرة البنات واما ان تعطينى لوحى وجزاك الله خيرا . .

وابتسم الملك « سيف » وهو يقول :

ـ لقد أحالك الرعب أيها المارد إلى جبان رعديد . . وما كنت أظن أن الامر يصل بك إلى حد التفكير فى الهرب . . !

فتأوه « الخيرقان » فى ألم وقال :

ـ أنت لا تعرفنى أيها الملك . . ليس فى هذه الجزائر كلها من هو أشجع منى من الجن أو الانس ، ولكن هذا الامر الذى نعانيه فوق الشجاعة وفوق الاحتمال . . أننى فى الحرب لا أهاب الموت ، وكم من مردة عتاة أذلتهم قوتى ، وكم من جموع غفيرة واجهتها وحدى ، ولكننى كنت دائما أعرف من أقاتل ولماذا أقاتله . . أما هنا فنحن نخرج من مجهول لنقع فى مجهول ، ونرى هذه الأشياء المهلكة تواجهنا بالعداء بلا سبب ، وتريد أن تقضى علينا دون جريره . . !

فقال الملك « سيف » :

ـ ولكنك نسيت أيها المارد « الخيرقان » أننا نعرف الآن مالا يعرفه أحد غيرنا ، والمعرفة نفسها غاية تبرر أن نقاتل وان نتحمل

فقال « الخيرقان » وهو يهز رأسه فى عناد :

ـ قد يكون هذا صحيحا بالنسبة لكم معشر البشر ، ولكنه عندنا نحن ليس له قيمة . . ولست أريد منك أن تتراجع عما تريد من معرفة ، فهاهى أمامك انهل منها كما تشاء ، أما أنا فاتركنى أذهب إلى حال سبيلى

أحسن الله جزاءك ، وأنا لك ما تريد من معرفة . .

فضحك الملك « سيف » وهو يقول :

ـ نحن الآن فى وسط الجزيرة تماما ، وقد شاهدنا نصفها . . فينبغى الا نتراجع عن مشاهدة النصف الآخر ، وأظن أننا قد انتهينا من أخطر ما فى الجزيرة ، ولن يكون أمامنا الا ما يشابه النزهة ، نقطع فيه النصف الآخر من الجزيرة آمنين مطمئنين

فوثب « الخيرقان » فى ذعر وهو يصيح :

ـ إذن فأنت مصمم على دخول هذا الدغل الجديد ، ولم يكفك ما لاقيت من جنون ورعب ، فيما شاهدناه حتى الآن فى هذه الجزيرة الملعونة . . !

ووقف الملك « سيف » وهو يقول :

ـ نعم سنشاهد معا سر هذا الجمال الرائع ، الذى يشع سحره من أشجار هذا الدغل القريب الذى أظنه يفوق كل ما رأينا سحرا وفتنة . .

ثم تحول عنه واتجه إلى الدغل الذى كانت ألوان الشعور المنسابة من أشجاره أشد غرابة وأكثر فتنة ، من كل ما رأى الملك « سيف » فى حياته من ألوان الزينة ، ومظاهر الجمال ، وقد استهواه هذا المزيج الغريب من الألوان الذى أخذ يتألف تحت أشعة شمس ما بعد الظهيرة ، كأنه موسيقى مبهمة تشاهدها العين فتسمعها الاذن وتطرب لها ، وكلما اقترب الملك « سيف » من الدغل ، ازداد احساسه بأنه أمام لوحة رائعة امتزجت فيها الألوان فى براعة فائقة ، وشدته روعتها شدا ، كأنما هو مسوق تدفعه اليها خيوط خفيفة وقال :

ـ ان الشعور فوق هذه الأشجار ، أشد كثافة من غيرها أيها المارد ، وان سحرها وجمالها لكفيلان بأن يقتلا أكثر النساء فى عالمنا حسدا وغيره !

ولكنه انتبه إلى أن المارد لا يرد عليه ، وحين نظر إلى جواره تأكد أنه لا يتبعه على الطريق . . ووقف الملك « سيف » ونظر وراءه . . وهناك عند حافة النهر كان « الخيرقان » يقف منكمشا وكأنه يخفى جسده الضخم وراء الاعشاب القصيرة ، التى انتشرت على ضفة النهر ، فصاح عليه الملك « سيف » مناديا ، ولكن «الخيرقان» ازداد انكماشا محاولا الاختفاء عن أنظاره ، وظل الملك « سيف » يناديه و « الخيرقان » مع كل نداء يجدد محاولته الساذجة للاختفاء خلف الاعشاب التى ما كانت لتصل فى طولها ركبته ، ولم يجد الملك « سيف » بدا ، من أن يعود على أعقابه إلى حيث وقف « الخيرقان » ، وصاح فيه قائلا

ـ أنت تعلم أننى أستطيع أن أحرقك ـ ان شئت ـ ان خالفت أمرى ، فلوحك المرصود معى . . وأنا آمرك أن تكف عن هذه المحاولات الصبيانية المضحكة ، وأن تأتى معى ، لنكمل مشاهدة باقى الجزيرة

وكان الخوف المرتسم على وجه « الخيرقان » يؤكد أنه يفضل أى شىء على القيام بهذه الرحلة . . ولكن اطراقة رأسه ، وسيره المذعن وراء الملك «سيف » كانا يؤكدان أنه لا يفضل الحرق بأى حال من الاحوال !

وهكذا عاد الملك « سيف » متجها إلى الدغل ووراءه « الخيرقان » المذعور يسير بخطوات مترددة وجلة ، وقال الملك « سيف » مشيرا إلى الشعور المنسابة ، من أشجار الدغل الذى اقتربا منه ووقفا أمامه تماما :

ـ ألا ترى كل هذا الجمال . . ؟

وجاء صوت « الخيرقان » المذعور وهو يقول :

ـ لست أخاف فى هذه الجزيرة الا من الجمال . . فكلما ازداد المظهر جمالا ، أخفى وراءه المصائب والكوارث ، فيا خوفى من هذا الجمال . .

ولم يكن الملك « سيف » يستمع اليه . . فقد مرت نسمة هواء رقيقة

عذبة ، تماوجت لها الشعور ، فامتزجت ألوانها ، كأنها شلال لون تتابع فيه كل ألوان الطيف فى اتساق ونغم . . وكلما تحرك الملك « سيف » متأملا تلك القدرة الخارقة فى ابداع الألوان ومزجها ، تبعه « الخيرقان » وهو يتلفت حوله فى حذر وترقب وقد أعمى الخوف عينيه عن رؤية أى جمال فى كل ما حوله . . وعاد الملك « سيف » يقول وهو كالمبهور :

ـ ان مثل هذا الجمال يحتاج إلى شاعر قدير ليصف حسنه ، ويبرز جماله .

ولم يرد « الخيرقان » لانهما كانا قد أصبحا فى وسط الدغل تحيط بهما الاشجار من كل مكان ، وكانت هذه الاشجار تبدو له أكثر ضخامة من أشجار الدغلين السابقين ، وكانت شعورها تبدو له أشد كثافة مما كان يكسو الاشجار السابقة ،وكانت تتنازعه رغبة شديدة ، فى أن يقتحم شعر أحد هذه الاشجار ، ليتأكد مما فيها ، وليسرع فى مجابهة الخطر الذى كان متأكدا أنه يجثم متحفزا متوثبا خلف هذا البريق ، الذى تعكسه هذه الشعور الملونة المتماوجة . . ولكن الخوف كان يمنعه من أن يفارق الملك «سيف » ، فظل يتبعه عن كثب ، وهو يتوغل فى داخل الدغل ، وقد أرهف أذنيه ، وفتح عينيه ، وتوفزت عضلاته كلها فى انتظار المجهول . .

كان الملك « سيف » مشدود البصر إلى ما حوله فى استمتاع كامل ، واستغراق حقيقى ، يستهويه لون أحد الاشجار فيظل أمامه فترة طويلة ويرفع عينيه متتبعا هذه الاسلاك الحريرية من الشعر المفهاف حتى أعلا الشجرة حيث تخرج من قلبها ثم تنحنى فى أنسياب . . وكانت القمة دائما تستهويه ، حيث تنعكس أشعة الشمس على انحناءة هذا الموج الكث من الشعر ، فيشتد لمعانه ، وتصبح لالوانه امتدادات تشع ضوءا وسحرا ، وقد بدأ الاطمئنان يملأ قلبه ، وبدأت الثقة تعود إلى نفسه . . وازداد ايمانا

بما قاله « للخيرقان » من أن مجال الخطر قد انقضى ، فقد مضى عليهما فى الدغل فترة طويلة ، ولم يشاهدا فيه الا الأمن والسلام يشعهما الجمال من حولهما ، وملأه احساس بالاسف ، لان كل هذا الجمال معزول هنا بعيدا عن الناس ، لا يراه أحد ، ولا يعرف بوجوده مخلوق حينما أحس بلمسات خفيفة على كتفه فقال :

ـ لا تصرفنى عما أنا فيه أيها « الخيرقان » ، فان الجمال هنا لمذهل . . !

وجاءه صوت « الخيرقان » وهو يتقدم ليقف أمامه :

ـ ماذا تقول أيها الملك ؟ . .

ثم توقفت الكلمات فى حلق « الخيرقان » وجحظت عيناه وشحب وجهه ، وارتعشت شفتاه ، ونظر الملك « سيف » اليه فى دهشة وهو يقول :

ـ ماذا بك أيها المارد . . ؟

وعادت اللمسات إلى كتفه مرة أخرى ، فجفت الكلمات على شفتيه ، وقد أحس بنفسه يتسمر فى مكانه . . فها هو « الخيرقان » المذعور يقف أمامه ، وليس معهما أحد فى الدغل ، ومع هذا فان اللمسات التى يحسها على كتفه ، لمسات يد لا شك فيها ، وهى تربت على كتفه فى رفق ، كأنما تريد ان تلفته إلى شىء ما . . وفى بطء شديد ، أخذ الملك « سيف » يحول رأسه تدريجيا ناظرا إلى كتفه الايمن ، وهناك كانت يد رقيقة صافية البشرة ، دقيقة الاصابع ، طويلة الاظافر فى اتساق وجمال تربت برقة ونعومة فوق كتفه . . وجاء صوت « الخيرقان » متقطعا مبحوحا يخرج كالفحيح وهو يقول :

ـ أنها يد . . !

ولم يكن هناك شك فى أنها يد . . ويد أنثى رقيقة . . لعل هذا الدغل

تسكنه حوريات من الجنة ، ذوات جمال وفتنة ، تكشف عنها هذه اليد الرقيقة . . ورسم الملك « سيف » على شفتيه ابتسامة مرحبة ، وهو يلتفت نحو فاتنة الدغل التى تربت على كتفه الايمن ، وكاد قلبه يكف عن الخفقان وماتت الابتسامة على شفتيه . . فوراء اليد الرقيقة الناعمة كانت ذراع بضة وردية ، ثم لا شىء الا الشجرة ، وجاء صوت « الخيرقان » تهزة الرجفة ويحشرجه الذعر :

ـ أنها زهرة . .

وأمعن الملك « سيف » النظر ليرى فى هذه المرة ، أن اليد ترتكز على أوراق متفتحة ، ثم غصن طويل يرتبط بالشجرة . . ولاحظ وعيناه تكاد تخرجان من مآقيهما عشرات الاغصان تخرج من الشجرة ، تحمل كل منها برعما طويلا مضموما . . ما أن يخرج من وسط الشعر الكثيف حتى يتفتح بسرعة مذهلة ، لتخرج منه ذراع رقيقة تمتد وتستطيل إلى أن تصبح فى حجم الذراع الآدمية ، ثم تتجه اليه تتحسس وجهه وتلمس عنقه المندى بالعرق ، وتمسك برقة بأجزاء ثيابه وشعره وكانت لمساتها مبتلة ، كأن الايدى مغطاة بشىء لزج ، تبعث كل لمسة منها القشعريرة فى جسده . . وبينما كان الرعب يغلف قلبه أحس أنه أصبح هدفا لعشرات الايدى تجسه وتلمسه وتستكشفه ، وتقيس أبعاد جسده ، وكأنه سقط فى مدينة من العميان ، يرقبونه بعيون جوفاء ميتة ، ويتحسسونه بأيد شرهة مقيتة

وصاح « الخيرقان » فى رعب شديد ، فالتفت إليه الملك « سيف » . . وهناك على كتفه وعند وسطه وفوق رأسه وحذاء ساقه امتدت أيادى من الشجرة التى يقف إلى جوارها غليظة خشنة مليئة بالشعر الكث ، تتقوس فيها الاظافر كأنها مخالب ، وتتحرك الاصابع فى قوة تبرز العضلات النافرة التى تملأ الكف والساعد

لقد كان « الخيرقان » هدفا هو الآخر لتجربة لعلها أشد وأقسى من تجربة الملك « سيف » الا أن « الخيرقان » لم يكن مستسلما للمسات هذه الأيدى الممتدة حوله من كل مكان ، بل أخذ ينفض السواعد عنه فى قوة ، وصرخاته تتعالى وحركاته العنيفة تشتد ، وسرعان ما أصبح فى معركة حقيقية مع الشجرة التى أخذت الايدى تخرج منها بكثرة مذهلة . . وكلما أبعد يدا اتجهت اليه يدان ، وكلما أزاح قبضة أسرعت اليه قبضتان ، وهو يضرب بيديه وقدميه ورأسه الضخم يشتد ويتعالى ، ينبعث منه رنين الحرب وصيحات القتال . .

وأدرك الملك « سيف » أن نتيجة المعركة بالنسبة « للخيرقان » معروفة ، فقد بدأت الايدى تبرز بكثرة من مختلف الاشجار حولها ، ومهما كانت قوة « الخيرقان » فان اصراره على القتال وهو واقف فى مكانه سيؤدى به إلى الهزيمة . . فاندفع متجها اليه ليخرجه من هذه المعركة الخاسرة ، ولكنه أحس بشىء يجذبه إلى الخلف ، وفى ذعر شديد أدرك الملك « سيف » أن الأيدى الرقيقة التى كانت حتى الآن تتلمسه قد أمسكت به تثبته فى مكانه، والتف فى قوة محاولا تخليص نفسه فاذا بالقبضات تشتد قوة ، تطبق على كتفه وعلى قدمه ، وعلى ساعده . . وأخذ يخلص نفسه بصعوبة ، وهو كلما حرر قدما ، اعتقلت الايدى الناعمة اللزجة قدما أخرى ، وكلما خلص كتفا امتدت القبضات تمسك كتفا آخر، واشتدت حركات الملك « سيف » عنفا ، وهو ينتزع ذراعيه من الايدى الممسكة بها انتزاعا ، وصيحات « الخيرقان » تثيره وتلهب حماسه . . وسرعان ما وجد الملك « سيف » نفسه فى معركة حقيقية مع الايدى العديدة التى أخذت تتزايد وتتضاعف كلما ازدادت مقاومته عنفا وشدة وصاح الملك « سيف » فى جنون :

ـ أيها « الخيرقان » أمدد يدك . .

والتفت اليه « الخيرقان » ـ وقد أدرك ما يعنيه ـ فخلص احد ذراعيه بعنف ومد يده إلى أقصى ما يستطيع ، بينما خلص الملك « سيف » هو الآخر احد ذراعيه ومدها بسرعة ، ليقبض على يد « الخيرقان » الممدودة ، وأخذ كل منهما يجذب الآخر نحوه ، وقد وضع كل قوته فى هذه الجذبة التى كانت تمثل لهما الحياة أو الموت ، بينما اشتد تعلق الايدى فى كل شجرة ، بما تمسك به من أطراف وثياب من يجاورها منهما ، وعاد الملك «سيف » يصيح :

ـ اهدأ تماما أيها « الخيرقان » حتى تطمئن الايدى وتتراخى ، فنتخلص منها . .

وبينما أمسك كل منهما بكف الآخر ، توقف تماما عن المقاومة بذراعه الاخرى ، وسكن جسداهما دون حركة ، واشتدت القبضات على كل منهما لحظات ، أحس فيها الملك « سيف » بقرب النهاية ، وفشل خطته ، ثم بدأت الايدى تتراخى قليلا ، لتعود إلى اللمس مستكشفة ما تقع عليه من أجزاء جسديهما ، وحبس الملك « سيف » أنفاسه مترقبا ثم صاح فجأة :

ـــ الآن . .

وجذب « الخيرقان » بكل قوته ، بينما جذبه « الخيرقان » بعنف . . فاذا بهما يصطدمان فى شدة ويقعان على الأرض ، وقد تخلصا من الايدى الممتدة من الشجرتين باحثة عنهما متحسسة الهواء حيث كانا يقفان . . وما كادا يلمسان الأرض حتى أخذ كل منهما ينظر إلى الآخر فى ذعر ، وقد هالتهما الميتة المرعبة التى كادت تودى بهما ، وهبا واقفين وأسرعا يجريان متلازمين فى سرعة متجهين إلى الناحية الأخرى من الدغل ، وقد أخذا يلهثان بينما ملأ العرق المتصبب جسديهما ، وانداحت حباته فوق

جبينهم، تكاد تحجب عنهما الرؤيا ، وقال الملك « سيف » وهو يجفف عرق وجهه المتصبب :

ـ لقد نجونا بأعجوبة . .

فرد عليه المارد وهو يجرى إلى جواره قائلا :

ـ اننا لم نخرج من هذا الدغل المجنون بعد . .

وفجأة طرق سمع الملك « سيف » صوت المارد وهو يصيح محذرا :

ـ انظر حولك أيها الملك ، ان الايدى تخرج من بين الاشجار من أمامنا وخلفنا فى سرعة مذهلة . .

وبعين ذاهلة ، وقلب واجف ، رأى الملك « سيف » ما سبق أن رآه المارد ، فكأنما سرت دعوة مفاجئة إلى كل الاشجار ، فاستيقظت من سباتها ، وانبثقت الازهار العديدة من بين الشعور الملونة ، تتفتح بسرعة مذهلة ، وتخرج منها الايدى لتنمو وهى تمتد نحوهما ، وكأنها تدرك من قبل مكانهما . .

أيد رفيعة طويلة معروقة اصابعها كالمخالب ، وتمتد اظافرها حادة كأطراف الخناجر ، تمتد فى جنون نحوهما . . وأخرى غليظة مربعة سواعدها قوية مفتولة ، والشعر الكث يغطيها ، واصابعها الغليظة القصيرة تنتهى باظافر متسخة سوداء ، تمتد فى جنون نحوهما . . واخرى رقيقة حلوة ، بضة الساعد ، طويلة الاصابع مصقولة الاظافر تمتد فى جنون نحوهما . . واخرى مفتولة العضلات قوية الساعد ، كأن اصابعها أفاعى صغيرة ، تطل رءوسها فى جنون وهى تتجه نحوهما . . وأيد ملتوية، مشوهة الكف ، منثنية الاصابع ، تنتهى بأظافر حادة ، كأنها أسنان حيوان مفترس . تمتد فى جنون نحوهما. . . وأيد قد خلت من اللحم وبدت العظام فيها ناحلة بيضاء ، وخرجت الاصابع قطعا من العظم

المشوهة ، كأنها خارجة من قبر ، تمتد فى جنون نحوهما . .

وهما يجريان ويجريان . . يلهثان ، يتعثران ، يرتطم كل منهما بالاخر ، وتصلهما بين الحين والحين لمسات مخيفة ، وتبرز أمامهما كل حين أياد جديدة تترقب فى صمت صاخب ملىء بالتهديد والوعيد

وانحنى الطريق أمامهما فجأة ، فلم تكن هناك فرجة بين الاشجار التى اختفت شعورها وراء الايدى الممتدة ، سوى هذه الانحناءة التى تبدو من بعيد ، وبين الانفاس اللاهثة هتف الملك « سيف » :

ـ لعل هذه الانحناءة تقودنا إلى خارج الدغل . .

ولم يرد عليه « الخيرقان » فقد كانت عيناه الذاهلتان تتطلعان حوله وأمامه فى ذعر مجنون . . ولكنه ضاعف من سرعته ليلحق بالملك «سيف» الذى اتجه نحو هذا المنعرج تحفه اشجار مليئة بالايدى ، وماكاد الملك «سيف » يدور مع المنحنى حتى أحس بيد ثقيلة توضع على كتفه فى عنف ، فملأه ذعر مجنون ، إذ لاح له ضوء الشمس واضحا فى نهاية الطريق الضيق الذى ولجه . . لقد كانت نهاية الكابوس قريبة ، لا يفصله عن الحرية سوى خطوات قليلة ، وها هى هذه اليد الغليظة تحاول أن تعيقه ، وبكل ما يملك من قوة جذب نفسه من هذه القبضة ، فانتزع نفسه منها ، ولكنه لم يستطع أن يستعيد توازنه . . فظل مندفعا إلى الخلف خطوات قليلة ، كانت كافية لان يحس نفسه فريسة لعشرات الايدى ، التى تتلقفه من الشجرة التى كانت خلفه تماما ، وحاول أن يجذب نفسه من جديد ، ولكن الايدى كانت تتزايد ، تمنعه من الحركة ، وتشل قدميه عند رسغ القدم يد ، عند الساق يد ، عند الركبة يد ، عند الفخذ يد ، فوق كل جزء من جسده يد جديدة ، تخرج من حيث لا يدرى لتمسكه فى جنون وقوة

وأحس باليأس الخانق يجثم على أنفاسه ، وبالرعب المميت يشل حركته ، واضطربت أنفاسه وتحشرجت ، وغامت عيناه واهتزت الرؤية ، وكاد يفقد وعيه حينها أعاد اليه الانتباه صوت « الخيرقان » وهو يصيح فى ولولة باكية حزينة فيها اليأس والمرارة وفيها العجز والفشل ، وأمامه كان « الخيرقان » قد وقع فريسة لشجرة ضخمة ، أطبقت الايدى الممتدة منها عليه . . مئات الايدى تحيطه وتمسكه وتعتقل حركته ، ومئات أخرى تخرج وليدة من الشجرة ، برعم مقفول يتفتح فى سرعة مذهلة وتخرج اليد صغيرة ضئيلة ، ثم تكبر وتكبر وتمتد وتمتد ، لتجد طريقها هى الأخرى إلى جزء من جسد « الخيرقان » الضخم ، تطبق اصابعها عليه فى شدة وقوة وكان هو يحس فى كل لحظة بوقع يد جديدة تخرج لتجد لها مكانها فوق جزء من جسده ورآه «الخيرقان»فصاح متأوها :

ـ أهذا أنت أيها الملك ؟ . . لقد ظننتك قد هربت . .

ونسى الملك « سيف » خوفه وهو يرى النظرة الغريبة على وجه المارد، نظرة العجز والخوف واليأس وقال :

ـ أين جبروتك أيها « الخيرقان » ، أهذا حقا ملك الجن فى هذه الجزائر؟!

وانطلق يضحك ملء رئتيه من صميم قلبه بكل قوة حنجرته . . كان يضحك ويضحك ويضحك ، وأحس بجسده كله يهتز ، والضحكات المجلجلة تنفجر من فمه فى عصبية وقوة وطفرت الدموع من عينيه غزيرة وقوية . . الملك « سيف بن ذى يزن » من دانت له قوى الانس والجن ، من ركب الهواء وغاص فى الماء ، من فتح الممالك وأذل العتاة و «الخيرقان » ملك الجان يقطع مسيرة عام فى يوم ، ويحمل الجبال بين يديه ، يدك بها المدن ويحطم بها الجيوش . . وعاد يضحك ويضحك من جديد حتى أحس برئتيه تكادان تنفجران . . فهدأ وهو يشرق بأنفاسه ويسمع بأذنيه

دقات قلبه المتعالية ، وجاءه صوت « الخيرقان » وهو يقول :

ـ وهل يخرجنا الضحك مما نحن فيه أيها الملك ؟

فرفع الملك « سيف » رأسه . . ونظر إلى الوجه المذعور يكاد يختفى هو الآخر وراء الايدى العديدة التى بدأت تمتد إلى شعره واذنيه وأنفه ، وقال فى همس وقد بدت فى عينيه نظرة أمل :

ـ السيف ، الايدى لا تحارب الا بالايدى . .

وفجأة بدأت يد الملك « سيف » اليسرى تقوم بمجهود كبير لتقاوم الايدى الملتصقة بها ، كما بدأ يضرب بقدميه فى عنف ، واسرعت الايدى إلى اعضائه التى تتحرك فى جنون ، وكانت يد الملك « سيف » اليمنى لا تتحرك كأنها شلت فى مكانها ولكنه احس بالامل يغزو قلبه حين رأى بوادر نجاح خطته ، اذ بدأت الايدى تتخلى عن يده اليمنى وتتجه إلى يده اليسرى وقدميه التى اشتدت حركتها وزادت مقاومتها ، وحين أحس أن اللحظة المناسبة قد جاءت ، أطاح بيده اليمنى بكل قوة لتتخلص من الايدى القليلة التى كانت ممسكة بها وتمتد فى سرعة خارقة إلى مقبض حسامه يمتشقه ليلمع نصله فى أشعة الشمس وهو يهوى بشدة فوق الايدى العديدة التى تحيط به وتتساقط الايدى ، ويرتفع السيف ويهوى فى قوة وبأس

وتتساقط أيد جديدة ينبثق منها سائل أحمر كالدم ، وقطرات من السائل الكريه تنزل على وجهه ، ومزق الايدى تتساقط أمامه ، وهو يضرب ويضرب ، وأشلاء الايدى تتراكم عند قدميه ، وبركة الدماء التى تنزف توحل الأرض حوله ، ولكنه يضرب ويضرب بدون وعى وبلا تفكير، وأيقظته صيحة « الخيرقان » مليئة بالامل ، طافحة بالاستبشار . . وحين جذب الملك « سيف » نفسه هذه المرة ، لم يكن هناك ما يعوقه سوى

جذبات ضعيفة ، ثم تحرر ، واتجه ناحية « الخيرقان » وهو يصيح ويهدر صيحات الحرب ، وارتفع السيف وهوى فى عنف ، وتحطمت ايدى وانبثقت دماء ، ثم ارتفع السيف وهوى مرة أخرى وصاح « الخيرقان » :

ـ إلى اليسار أيها الملك ، لا شلت يدك ، ولا انثلم سيفك . .

وارتفع سيف الملك من جديد ، ليهوى إلى يسار « الخيرقان » وخرج «الخيرقان » من وسط الايدى التى كانت تحيط به وهو يمزق بكل قوته ما ظل عالقا به من الايدى الممتدة . . وصاح الملك « سيف » :

ـ ضوء الشمس يبدو هناك . . فهيا بنا اليه . .

ولكن الطريق لم يكن ممهدا كما ظن الملك « سيف » ، فكأنما جنت الاشجار . . وفى الطريق أمامهما كانت ألف يد تمتد كلها وتتطاول لتسد الطريق ، لتحجب عنهما ضوء الشمس ، لتقفل أمامهما باب الامل ، فرفع الملك « سيف » حسامه وهو يصيح « ياالخيرقان » :

ـ اتبعنى . .

واندفع يجرى وهو يضرب ويضرب ، ليشق لنفسه طريقا وسط الايدى الممتدة التى اخذت تتساقط امام ضرباته ، والاظافر تمتد لتدمى وجهه وتمزق ثوبه والقبضات القوية تمتد لتلطمه وتضربه وسيفه يمزق ذلك الحاجز الرهيب يرتفع وينخفض ، والدماء تسيل والاشلاء تتطاير ، و«الخيرقان » من ورائه يجذب الايدى ويمزقها ، ويكيل الضربات والركلات وهو يحطم ويبيد ، وفجأة وجد الملك « سيف » نفسه يواجه ضوء النهار الذى أخذ يميل إلى الغروب ، فاندفع يجرى بكل قوته ، وهو يحس بخطوات المارد تتعقبه إلى أن رأى نهرا أمامه فقفز اليه واخذ يسبح بكل قوته ، وسرعان ما سمع صوت المارد وهو يقفز إلى الماء وضرباته القوية تشق صفحة النهر ، لتبتعد به عن دغل الايدى الرهيبة . . ونظر

الملك « سيف » وراءه ليتأكد من أن ما سمعه هو صوت « الخيرقان » فرأى وجهه يبرز من بين الماء ويختفى من جديد وهو يشق صفحة النهر متجها اليه ، واستوقف نظر الملك « سيف » لون ماء النهر ، وسرعان ما ادرك انه يعوم من جديد فى بحر من دم . . !

* * *

ليس يدرى أحدهما كم ظلا جاثمين على الأرض المعشبة إلى جوار حافة النهر ، وقد اجتمع عليهما البلل والتعب ، وعديد من المشاعر المتباينة المتناقضة ، تخلفت عن هذه التجربة المريرة التى كادت تكلفهما حياتهما ، وقال المارد وهو ينظر إلى السماء :

ـ أوشك النهار أن ينقضى ايها الملك ولم تأكل شيئا . .

فقال الملك « سيف » ، وهو ينظر أمامه فى اهتمام واستغراق :

ـ ان من يشاهد مثل هذا الجمال ، ينسى كل ما يتعلق بالاكل والشراب . .

فقال المارد فى دهشة :

ـ أتسمى هذا العذاب المقيت جمالا ؟!

فعاد الملك « سيف » يقول ، وهو ينهض على قدميه :

ـ انى اتحدث عما أراه الآن امامى . .

والتفت « الخيرقان » إلى حيث ينظر الملك « سيف » ولم يملك نفسه . . فبدرت منه صيحة دهشة واعجاب خافتة ، فأمامهما كانت مجموعة كثيفة من الاشجار ، تشترك مع ما رأياه فى هذه الجزيرة من أشجار فى أنها مكسوة بشعر كث غزير متعدد الألوان ، ولكنها تختلف عن كل ما رأياه فى انسجامها المذهل ، وجمال الوانها ، وتنوعها ، وتداخلها فى اعجاز يشد البصر ويذهل العقول

وكانت أشعة الشمس التى بدأت تميل إلى الغروب ، تنعكس بضوئها الشاحب على أشجار هذا الدغل ، بينما تتماوج خصل من الشعر مع هبات نسمات الغروب ، لتحيل المنظر كله ، إلى تموجات راقصة رقيقة ، كأن ألف فاتنة قد مضت ترقص نشوانة على نغمات سحرية لا تسمعها أذن ، وانما يعكسها التموج الرتيب لشعورهن المسدلة فى دلال ورقة ، تكاد تدل على الاجساد الفاتنة الرخصة التى تختفى وراء هذه الثروات الرائعة من الشعر الاثيث ، وانتزع المارد « الخيرقان » نفسه انتزاعا من سحر المنظر الذى يراه ، وهو يقول :

ـ ان هذا الدغل ليبدو أروع ما رأينا فتنة ، ولا شك أنه يخفى أبشع ما فى الجزيرة خطرا ومحنة . . !

ولكن الملك « سيف » لم يكن يسمع له ، فقد اتجه ذاهلا وكأنما تسحره قوة غريبة عن نفسه ، إلى حيث اصطفت الاشجار الأولى التى تكون الدغل الأخير فى هذه الجزيرة ، وأسرع المارد وراءه حتى لحق به ووضع يده على كتفه وهو يقول :

ـ أيها الملك ، أيها الملك ، إلى أين . ! .

فالتفت اليه الملك « سيف » وهو يقول :

ـ ألا ترى كل هذا الجمال ؟! .

فقال « الخيرقان » :

ـ نعم أنى اراه ، وأنت أيضا قد رأيته ، وهذا يكفينا نحن الاثنين ، فهيا بنا نغادر الجزيرة

فقال الملك « سيف » وفى صوته رنة عناد :

ـ بل لابد لى أن أرى هذا الجمال عن قرب ، وأن أعرف سره ، وما يخفيه . .

فقال « الخيرقان » متوسلا :

ـ ألا يكفيك أيها الملك ، كل الاسرار التى عرفناها . . أن جسدى كله ليئن من وقع اخر الاسرار التى اكتشفناها ، وجلدى قد تمزق من أظافرها المسنونة . .

فضحك الملك « سيف » وهو يقول :

ـ أن هذا يا صديقى ، هو ضريبة المعرفة ، فلكل شىء ثمنه . .

فهز« الخيرقان » رأسه فى عناد ، وهو يقول :

ـ ولقد دفعت كل ما لدى من اثمان حتى أفلست ، وان شئت أن تحرقنى الآن فافعل فان مصيرى أن أحرق على أية حال ، والنار التى أعرفها خير من هذه الأشياء الملعونة التى لا خبرة لى بها . .

وأحس الملك « سيف » من لهجة المرارة فى صوته ، ومن نبرة العزم والتصميم الهادئة التى يتحدث بها ، أنه يعنى ما يقول فالتفت اليه قائلا :

ـ اذن فأنت لا تريد أن تصحبنى هذه المرة . .

فقال « الخيرقان » فى نبرة متوسلة يائسة :

ـ أننى أصحبك فى كل مكان وإلى أى مكان ، فقط أخرج بنا من هذه الجزيرة الملعونة وكفانا ما أصابنا من أذاها وتأكد أيها الملك أننا لو خرجنا من هذه الجزيرة ، لكنا أول الاحياء على وجه الأرض ، التى تدخلها ، وتعود لتخرج منها من جديد ، فقد كنا فى عالمنا نحن معشر الجن ، نسمع كثيرا عن سفن تحطمها الرياح بالقرب من هذه الجزيرة وتقذف الاقدار بحارتها اليها ، ولكنهم ما كانوا يظهرون مرة ثانية ، وكأن هذه الجزيرة وحش هائل يلتهم ما يلقى اليه فى نهم وشراهة ولا يبقى منه على شىء . وفى أول الامر كان الشباب منا معشر الجن ، الذين تزدهيهم قوتهم ، وتغرهم شجاعتهم ، وتنسيهم حماستهم كل حذر وحيطة ،

يتراهنون على اكتشاف سر هذه الجزيرة ، وكانوا يخرجون فرادى وجماعات ، ويندفعون إلى هذه الجزيرة طائرين ، وقد اطمأنت قلوبهم اليها ، واستراحت نفوسهم لرؤية جمالها المذهل الذى يبدو من السماء ، والوانها البراقة وسحرها الجذاب ، ثم تمضى الأيام ، وتمتد الأعوام ، وهم لا يعودون . . وحين يتقادم العهد نعرف أنهم ضاعوا فى هذه الجزيرة إلى الابد ، وتعلم من يومها شيوخنا أن يحذروا أطفالنا من هذه الجزيرة ، فكل أرض واق الواق مباحة لنا معشر الجن ، الا هذه الجزيرة ، فقد ظلت لغزا محيرا لا يعرف سره احد . .

وأطرق الملك « سيف » إلى الأرض وهو يقول :

ـ ولكنك رأيت وشاهدت وعرفت وما زلت حيا . .

فقال « الخيرقان » :

وكفانى ما رأيت أن اردت ان أظل حيا ، وقد قلت لك ان بقائى على الأرض يفقدنى أهم ما يتميز به المردة من القدرة على الحركة ، والحرية فى التصرف . . فمجالى الذى استطيع أن استخدم فيه قوتى ، ليس سطح الأرض أنما هو ، ذرا الريح وفضاء السماء

وظل الملك « سيف » صامتا فترة طويلة ، وعينا « الخيرقان » ترقبان شفتيه فى قلق وتحفز ، وربت الملك « سيف » على كتف «الخيرقان » فى مودة وهو يقول :

ـ لست أريد أيها الصديق ، أن أكرهك على ما تكره . . والواقع أنه لا يجدر بنا أن نقذف بأنفسنا معا إلى مجال الخطر ، فنهلك دون ان يستطيع أحدنا أن يمد يد المعونة إلى الآخر ، ونحن ما خلصنا من دغل الايدى المشئوم الا بما يشبه المعجزة ، ولو انك كنت حرا طليقا فى الفضاء ، لا ستطعت ان تنقذنى دون عناء . .

وكانت أسارير المارد متهللة ، ووجهه منشرحا وهو يقول :

ـ ان روحى فداك ايها الملك . .

فقال الملك « سيف » :

ـ اذن اتفقنا ، سأدخل انا هذا الدغل اتمتع بجماله قبل ان تغرب أشعة الشمس ، بينما تصعد أنت فى الجو لترقبنى ، فاذا ما انتهيت من مشاهدة كل ما فى الدغل ، أمكنك ان تهبط لتصعد بى إلى السماء ، ونستأنف رحلتنا . .

وانحنى المارد مبتهجا على يد الملك « سيف » يقبلها ، وقد ملأه شعور بالخلاص والراحة وقال للملك :

ـ نعم ما رأيت . . ولن أدعك تغيب عن بصرى ، ولن يستطيع خطر أن يمسك بسوء ، وأنا موجود ، أحلق فوق الجزيرة . .

وتركه الملك « سيف » واتجه مسرعا إلى الدغل ، وسرعان ما غاب بين أشجاره واختفى جسده بين طيات الشعر المتكاثفة . . وما ان غاب الملك «سيف » عن ناظريه حتى اعترى « الخيرقان » شعور قاتل بالوحدة . . فهو وسط هذه الجزيرة الملعونة وحيد ، ليس له مكان فوق أرضها ، فسرعان ما ركل الأرض بقدميه وانطلق محلقا فى الفضاء ، وقد بدأ احساسه بقوته وجبروته يعود إليه ، فيملأ أعطافه زهوا ، ينسيه مرارة ما لاقى على الجزيرة من تجارب مريرة ولكن هذا الاحساس سرعان ما توارى . . ليترك مكانه شعور مرير بالخزى ، فكيف يترك الملك « سيف» وحده، ويفر هو من مواجهة الاخطار التى سيتعرض لها . كيف وهو جنى مارد ، بل وملك الجن فى جزائر واق الواق ، يهرب من ميدان لم يجفل أمامه انسى عادى لا يملك مثل قوته ، ولا يتمتع بمقدرة كمقدرته ، أيكون هذا الإنسان القزم العاجز أقوى منه قلبا ، وأثبت جنانا ، وأقوى بأسا ؟

ودار « الخيرقان » فى الجو وعاد متجها إلى الجزيرة . . وقد انتوى ان يهبط إلى الأرض ليلازم الملك « سيف » فى تجربته ويواجه ما يتعرض له من اخطار ، ولكنه حين عاد إلى الجزيرة وأخذ يحلق فوقها ، اختلط عليه الامر، وتشابهت أمامه الادغال . . ولم يعرف فى أيها ترك صديقه الملك ، فقد كانت الادغال الاربعة تقتسم الجزيرة تماما ، تفصل بينها أنهار حمراء اللون ، ولكنها كلها متشابكة ، واقترب « الخيرقان » أكثر من ذى قبل حتى صار يطير فوق رءوس الأشجار ، وراح يحدق فى شدة ، عله يلمح ما يرشده إلى كيفية البحث .

وقطع « الخيرقان » الجزيرة طائرا فوقها مرتين ، قبل أن يبدأ احساس رهيب بالخوف يتسلل إلى قلبه . . ألم يكن مغرقا فى التفاؤل حين وعد الملك « سيف » أن يظل يرقبه من السماء ؟ . . الم يكن جبانا لا يريد الا ان يحصل على حريته ، وان ينطلق إلى الجو بعيدا عن الخطر المجهول ، دون ان يحفل بأمر صديقه فى شىء ؟ . .

وتذكر « الخيرقان » كيف خلصه الملك « سيف » بحسامه البتار، وضرباته الجبارة ، من الايدى المتكاثفة التى أمسكت به وكادت تعدمه الحياة بعد ان أعدمته الحركة . . وبعيون غائمة من الحزن والاسى ، أخذ «الخيرقان » يتطلع للمرة الثالثة إلى رءوس الأشجار فى الجزيرة ، وهو يطير فوقها باحثا فى يأس واصرار ، وترقب واصغاء ، وأشعة الشمس تميل تدريجيا نحو الغروب ، والنهار يلفظ اخر انفاسه ، والرؤية تصبح أشد عسرا والبحث يبدو أقل جدوى . ! .

* * *

حين ترك الملك « سيف » المارد «الخيرقان » واتجه إلى الدغل ، كان يحس بالرضى يغمر نفسه اذ ما كان يغفر لنفسه ، لو أصاب «الخيرقان »

سوء بسببه وما كان يصر على اصطحابه ، الا لتوهمه أنه يعلم من أمر هذه الجزائر ما يجهله هو ، ولكنه حين اكتشف أن «الخيرقان » يجهل من أمر هذه الجزيرة مثل ما يجهل ، وان «الخيرقان» يخشى من أمر المجهول أكثر من خشيته للموت ، لم يعد هناك ما يبرر أن يعرض المارد لأخطار لا مبرر لها . .

ولعله مما يبهج النفس حقا ، أن يحس الإنسان أن هناك قوة خارقة كقوة المارد «الخيرقان » تسهر عليه ، وتحرسه وتحميه

وسرعان ما عادت صور الجمال الراقصة ، تتماوج مع تماوج الشعور الملونة تعبث بها هبات نسيم الغروب تلفت نظره ، وتستحوذ على اهتمامه فنسى أمر «الخيرقان » واتجه بكليته يتأمل هذا الجمال الخارق ، الذى يعكس أروع الصور لقدرة الخالق عز وجل على ابداع الجمال وتكوينه

وكانت أشعة الشمس المصفرة تخترق الشعر الكث ، وتعكس له ظلالا على الأرض تتخللها نقط من الضوء وشرائح طويلة بيضاء ، فتتحول الأرض نفسها إلى مزيج من الضوء والظل يتحركان معا فى تناغم وتناسب ، بينما ينبعث من أعطاف اشجار عطر حالم رقيق يعطر الجو كله، ويملأ القلب باحساس هادئ يهدهد المخاوف ، ويزيل الاضطراب

ومع هذا فقد كان الملك « سيف » يتطلع حوله فى حذر ، وهو يخشى أن ينسيه ما حوله من جمال الاستعداد الخطر المخبوء الذى تعود أن يلقاه فى كل دغل من أدغال هذه الجزيرة ، ولكن شيئا لم يحدث . . بل كلما ازداد الدغل جمالا ، كلما ازداد الملك « سيف » فيه توغلا ، ولم تفقد المناظر المتكررة جدتها ، فقد كانت رغم تشابهها تزداد غرابة وتشتد تنوعا

ونسى الملك « سيف » تدريجيا حذره وخوفه . . فلم يكن هناك شك

فى أن هذا الدغل آمن من المخاوف أو بدا له أن هذه الأشجار السامقة قد استعاضت عن الازهار فيها بدقة مالشعورها من ألوان ، وروعة مالها من تكوين ، ووقف الملك « سيف » يتأمل احدى الأشجار الغريبة ، ومد يده يلمس شعرها على حذر . وكان الملمس رائعا كأنما يمسك بيده خيوطا من حرير متقن الصنع ، واستهواه جمال الملمس ، كما طمأنه أن شيئا لم يحدث ، فمضى يملأ راحتيه بخصل من هذا الشعر ، يستمتع بملمسها ، ويمتع عينيه بألوانها ، وقربها من وجنته ليزداد احساسه بقرب هذا الجمال ، فملأ رئتيه رائحة « عذبة » جميلة ، تنبعث من خصلات الشعر الاثيث يملأ راحتيه

ومضى يلتهم الهواء برئتيه التهاما . . يستنشق هذه الرائحة العطرة ويحتفظ بها فى رئتيه المتعطشتين ، ثم يزفرها فى ارتياح واستمتاع . . ومضى يسير الهوينى ، وهو يقف أمام كل شجرة بعضا من الوقت ، وقد بدأت أشعة الشمس تتجه إلى الغروب ، وتلقى بظلالها على الدغل ممتزجة بلونها الشاحب الحزين . . وازدادت رقة الهواء ، وعذبت الروائح المتصاعدة ، وكأنما يسير الملك « سيف » فى روض من رياض الجنة ، أو فى دنيا مسحورة فتن ساحرها بمزج كل أنواع الجمال فى اتساق ونغم هادئ يهدهد القلب ، ويريح النفس . وفجأة مزق الصمت عواء طويل ممدود ، كأنه ينبعث من ذئب جائع عثر على فريسته ، وأجفل الملك « سيف » وقد أحس أن مشاعره تتشتت ، وانه يتمزق ، وقبل أن يلتفت إلى مصدر الصوت ، أصابته ركلة عنيفة لم يدر مصدرها فاذا هو ملقى على الأرض الصلبة ، وسط مجموعة من الحشائش المنداة ، وخفق قلبه فى عنف وهو يحاول أن يلتفت ليرى مصدر هذه الركلة العنيفة . . ولكنه ما كاد يرفع رأسه ، حتى أصابته ركلة أخرى فوق وجهه ، فاذا هو ملقى مرة أخرى إلى

الأرض ووجهه إلى السماء ، ومازال ملمس القدم المفتولة العضلات التى ضربته على وجهه يملأ ذهنه كله ، ويثير فى نفسه عديدا من الاسئلة ، ولكن عيناه اصطدمتا بالشجرة أثناء تجوالهما الحائر فى كل ما حوله ، واذا به يرى ـ وقلبه يكاد يكف عن الخفقان ـ عشرات الاقدام تبرز من الشجرة وهى تتجه نحوه فى توتر ، وكأنها تستعد لركلة من جديد ، لو بدرت منه أى حركه .

وتملكه رعب طاغ . . فقد كانت هذه الاقدام تنتهى عند الشجرة ، ولا يبدو أنها تلتصق بأى جسم بشرى . . كانت الشجرة كأنها نبتت لها عشرات الاقدام ، خرجت كلها فى حركة غاضبة تترقب منه أى حركة لتبرز ركله من جديد ، وبينما كان يتأمل الاقدام البارزة فى خوف وحذر، رأى شعر الشجرة ينفرج فى أكثر من موضع ، لتخرج منه أغصان طويلة ، تنتهى ببراعم مستطيلة كبيرة الحجم ما ان تبرز حتى تتفتح بسرعة مذهلة ، وتخرج من وسطها أجساد صغيرة تنمو بسرعة لتصبح هذه الاقدام القوية المفتولة العضلات ، ثم تلتفت نحوه فى توتر وكأنها تستشعر مكانه بقوة خفية لا يعرف مصدرها

ومع كل قدم جديدة تبرز من الشجرة ، كان احساسه بالرعب يتضاعف ، وكان خوفه مما ينتظره يتزايد ، وفجأة تملكه احساس عارم بالخوف المميت فهب من رقدته مسرعا ، واندفع قافزا يجرى ولكنه لم يسر خطوات حتى اعترضت طريقه قدم برزت فجأة فاذا به يسقط فوق وجهه ، وتصطدم رأسه بالأرض . وقبل أن يتحرك من مكانه ، كانت الركلات تنهال عليه فى تتابع مذهل وسرعة خارقة ، فوق كتفه ، فوق ظهره ، فوق ذراعه ، فوق رأسه ، فوق أنفه ، فوق عينيه . .

ولم يكن هناك وقت أمام الملك « سيف » ليعرف من أين تأتى هذه

الركلات ، بل لم يكن الملك « سيف » يحس بالألم أو بالخوف ، فقد سلبت الركلات المتتالية كل قدرة على الاحساس أو التفكير . . فقط كانت العضلات القوية المفتولة تغوص فى لحمه وتصك جسده ، وتصطدم بعظامه فى قوة . وكانت الدنيا تغيم ، ورائحة حريفة كأنها رائحة الغبارة تملأ رئتيه ودوائر سوداء أمام عينيه ، ثم لم يعد يحس بشىء . . !

* * *

كان اليأس قد تملك « الخيرقان » فى أن يعثر على أثر للملك « سيف » حين طرق سمعه صوت عواء طويل ممتد ، يبعث القشعريرة فى أشد القلوب قساوة ، وشل الصوت الجائع الملهوف تفكيره وأوقف حركته ، وقد انقبض صدره ، وأحس بيد قاسية تضغط على قلبه ، وملأه احساس غامر بأن الملك « سيف » يتعرض لخطر مجهول ، فقد كان الصوت يحكى فرحا وحشيا لحيوان جائع عثر على فريسة ، ولم يكن هناك شىء حى فوق الجزيرة سوى الملك « سيف » . . وما أن استرد «الخيرقان » وعيه الذى شتتته الصرخة العاوية ، حتى اندفع كالمجنون نحو مصدرها مخترقا الهواء فى عنف .

ومست أقدامه رءوس الاشجار ، فاعتدل فى طيرانه ، وقد انتابه شك فى أن تكون هذه الجهة هى مصدر الصوت المرعب . . فلم يكن تحته الا دغل هادئ ساكن لا يكاد يتحرك تحت الهبات الرقيقة لنسمات الغروب ، ولم يطل تردد « الخيرقان » فلم يكن هناك وقت يضيعه فى التفكير بل اندفع مسرعا إلى اليسار يحدق بكل قوته فى الاشجار المتشابهة المتراصة ، حتى وصل إلى آخر الجزيرة فى لحظات دون أن يرى شيئا .

وفى لهفة محمومة انحرف إلى اليمين ، ومضى يدقق النظر فى كل شجرة

يمر فوقها ، وهى تتتابع تحته بريئة المظهر ساكنه الحركة ، وعندما اصطدمت عيناه مرة أخرى بالبحر المحيط بالجزيرة أيقن انه يتخبط فى بحثه ، وأنه لا يستطيع تحديد الاتجاه الذى صدر منه هذا العواء المخيف ، وعاد احساسه بالخوف يطغى عليه ، ويملأ قلبه . . فاستدار مرة أخرى . عائدا إلى الجزيرة يبحث من جديد ، وقد فترت همته وملأ الحزن نفسه ، وأخذ اليأس يتسرب إلى قلبه .

عندما فتح الملك « سيف » عينيه ، كان يحس فيهما بثقل وألم ، وكأنما يحمل جفناه أثقالا من الرمال ، تمنع حركتهما ، وتؤلم عينيه . . فعاد يغلقها من جديد ، وقد بدأت صورة ما حدث له تعود إلى ذهنه المضطرب تدريجيا فتذكر الركلة القوية ، التى فاجأته بعد أن أذهله ذلك الصوت المرعب الممتد . . وأحس بالقشعريرة تعود لتهز جسده كله ، وبدأت الآلام تنبعث من كل جزء من جسمه ، وهو يتذكر الركلات العديدة التى انهالت عليه ، وارتسمت أمام عينيه المغمضتين صورة الشجرة وقد خرجت منها الاقدام المتوعدة المهددة ، طويلة الساق ، مفتولة العضل ، التوت نحوه كأنما ترشدها قوة مجهولة وعاوده أحساس طاغ بالخوف . . وتذكر هذه اللطمات التى أصابت رأسه وأنفه وعينيه وكيف راح فى دوامة مظلمة ألقت به فى بحر قاتم لا يعرف له قرار ا حتى غاب عن وعيه ، وعاد إلى ذهنه احساس مبهم ، بلمسات قاسية تتحسس جسده الساكن كله ، خفت تدريجيا حتى أصبحت لينة خفيفة ، تجسه وتتحسسه كأنما تتأكد أنه فقد الحركة وفارق الحياة ، وعرف الملك « سيف » أن سلمته رهن بجموده وسكونه ، فلا شك أن هذه الاقدام قد كفت عن ضربه حينما سلبه الاغماء كل مظاهر الحياة . .

وعاد الملك « سيف » يفتح عينيه بجهد كبير ، وهو يخشى أن يطالعه

منظر الاقدام المهدده ، ولكنه لم ير الاشجار الوادعة الجميلة ، تتماوج شعورها الملونة تحت أشعة الشمس الغاربة فى فتنة وسحر ، والتوت شفتاه المتقلصتان فى سخرية . . فما كان هذا الجمال ليفتنه مرة أخرى ، عن حقيقة الهول المرعب الذى يخفيه ، وانعشت وجهه هبة رقيقة من نسيم الغروب ، حاملة إلى رئتيه تلك الرائحة المنعشة العذبة التى تتضوع من الشعور الكثة الجميلة التى تحيط به

وانتعشت نفسه وهدأت ضربات قلبه وهو يتذكر أن «الخيرقان» موجود فوق الجزيرة يترقب دعوته ، لينتشله من وسط هذا الدغل المميت . . وكأنما أعادت له هذه الفكرة قواه ، فاذا به يحس بالدماء تتدفق إلى شرايينه وبالنشاط يدب فى أعطافه ، بينما بدأ احساسه بالالم يخفت ويتلاشى ، أمام هذا الاحساس الجديد الغامر بالامل . . ما كان عليه الا أن يقف وينادى بكل قوته عليه ، وما هى الا لحظات حتى يكون فوق ظهره القوى الآمن يشق الفضاء بعيدا عن هذه الجزيرة وأهوالها . . وهب الملك «سيف» واقفا ، وأخذ يسوى ملابسه المشعثة ، وينفض الغبار عنها ، ثم رفع رأسه إلى السماء وصاح :

ـ أيها المارد « الخيرقان » . .

وتردد صوته يشق السكون المحيط به ، وانتظر الملك « سيف » ولكن لم يعد اليه سوى الصدى وحده ، يحمل إلى قلبه القلق والاضطراب . . ربما كان « الخيرقان » ينتظره عند نهاية الدغل ، فلم يصل إليه صوته ، وربما كان صوته ضعيفا أثر ما حل به من انهاك جسدى ، فلم يستطع أن يخترق ما يحجبه من أشجار كثيفة ، وأسرع الملك« سيف » يسير متلاحق الخطو فى الاتجاه الذى حسبه أنه يقوده إلى نهاية الدغل ، وهو يصيح هذه المرة فى صوت أقوى ، يكاد يصل إلى الصراخ :

ـ أيها المارد «الخيرقان» . .

وحينما عاد اليه الصدى بصوته مرتعشا مذبذبا ، زاد احساسه بالوحدة ، وأخذت قدماه تسرعان ـ دون أن يحس ـ حتى غدا يجرى ، وقد امتزج صوت أنفاسه اللاهثة بصوت ضربات قلبه المتعالية ، وعيناه تجولان فى محاجرها فى ترقب وهو لا يرى سوى الاشجار تحيط به وتمتد إلى ما لا نهاية ، وتذكر فجأة والرعب يغزو قلبه أن « الخيرقان » لم يسع إلى نجدته حين سقط فريسة للاقدام التى تناولته ضربا وركلا ، وجف حلقه وابتدأ الذعر يتملك منه ، فصاح فى يأس ومرارة وقد جمع كل قوته فى صيحته :

ـ أيها المارد « الخيرقان » . .

وما كاد صوت الصدى يعود إلى أذنيه ، حتى ارتفع صوت العواء الرهيب مرة ثانية يشل حركته ، يوقف ضربات قلبه . . كان صوتا جائعا طويلا ممتدا فيه فرح وحشى ، وفيه وعيد مميت . والتفت الملك « سيف» حوله فى رعب قاتل ، ثم انطلق يجرى بكل قوته ، وكأنما تتعقبه الشياطين . . ومن جديد تعثرت قدماه فى قدم برزت فجأة فسقط على وجهه وقد غاص رأسه فى التراب ، وانقضت عليه ضربة قاسية فأحس بطعم التراب فى فمه

وحاول أن يعتدل فانهالت عليه الضربات ، وأخذ يقاوم بيديه وبقدميه يتلقى الركلات بذراعيه الممدوتين ، ويرد الاقدام بقبضتيه ، يلوى قدما ويضرب أخرى حتى كلت قوته ، وضعفت ضرباته ، وفترت همته ، والاقدام تتزايد من الشجرة ، والضربات تنقض عليه فى كل جزء من جسده ووجهه

وأحس بسائل لزج ينبثق من أنفه . ويتدفق من فمه وعرف أنه يدمى . . وعاد يسترد من يأسه قوة ، وسط الضربات المتزايدة استطاع أن

يقف على قدميه ولكن للحظات . . فما لبث أن أصابته ركلة فى بطنه ، التوى لها جسده كله ، ثم استقر على الأرض اثر ركلة عنيفة اجتاحت وجهه كله، فامتزج فى فمه طعم الدماء بطعم التراب . . بينما اختلطت أمام عينيه صور شعور ملونة تتماوج ، وأقدام ترقص فى جنون . تدك رأسه وتدق جسده ، وكأنها تغيبه فى بطن الأرض . .

وكان يردد ، وكأنما لنفسه فى همس متحشرج ، لعله يدور فى رأسه ، ولعل لسانه يدور به فى فمه :

ـ أيها المارد « الخيرقان » . . المارد . . أيها . . « الخيرقان » . . «خيرقان» . .

* * *

وكان « الخيرقان » قد سمع أولى صرخات الملك « سيف » فانتشله الصوت الاليف اليه من حيرته وابتدأ يتجه فى حذر وهدوء نحو مصدر الصوت ، وقد آنس فى نبرات الصوت الذى وصل أذنيه المرهفتين ، نوعا من الثقة والهدوء جعله يطمئن إلى سلامة صديقه

وأزاح يد اليأس التى كانت قد أطبقت على قلبه ، ولكنه ما لبث أن سمع الصرخة الثانية وعندما رددها الصدى مرة أخرى ، كانت مليئة بالاضطراب والخوف ، فعاد القلق يغزو نفسه ، وعاد الاضطراب يؤثر فى اتجاهه ، وجاءته الصرخة الثالثة مرعوبة خائفة تتردد فى أصداء متعددة تأتى من أمامه وعن يمينه وعن يساره ومن خلفه

ووقع « الخيرقان » فى حيرة عظيمة ، وتمالك نفسه بصعوبة شديدة حتى لا يضطرب فى اتجاهه ، فيفقد الاثر الذى وقع عليه . . وسرعان ما صكت أذنه الصيحة العاوية الجائعة ، فجمدته فى مكانه ، وكانت وكأنها تصدر من كل مكان . . كأن أرض الجزيرة نفسها هى التى تصرخ فى ذلك

العواء الجائع المحموم ، واشتدت ضربات قلبه ، ولكنه بذل جهدا خارقا ليظل متمالكا لامر نفسه . .

ومرت لحظة الخوف ، وأخذ « الخيرقان » يسترد جأشه ، وقرر أن خير وسيلة لمعرفة مكان الملك « سيف » هى أن يغامر بالنزول إلى أرض الجزيرة ، وسط دغل من أدغالها ، ليحدد مكان الدغل الاخير الذى دخل فيه الملك . . وعجب « الخيرقان » لنفسه حينما استقرت قدماه فوق أرض الجزيرة ، اذ أحس أن كل خوف قد زايله وتقدم رابط الجأش نحو الدغل الذى يواجهه ، وقد قرر أن يقامر بكل شىء فى سبيل نجاة صديقه

* * *

حين بدأ الملك « سيف » يستعيد وعيه . . هاجمه احساس طاغ بالحقيقة التى تحيطه ، وكانت الآلام التى تنبعث من كل عضو فيه ، تذكره بالتجربة القاسية التي مر بها . . وتذكره أيضا بأنه فقد الامل فى كل عون خارجى ، وقفز إلى ذهنه سؤال رهيب : ترى هل تنتهى كل محاولة من محاولاته بمثل هذه النهاية الرهيبة حتى يقضى نحبه ، ويموت فوق هذه الأرض الغريبة ، تركله أقدام قاسية ، حتى الموت؟ . . لقد حاول بكل قوته أ ن يقاوم هذه الاقدام المجنونة ، ولكنها كانت أقوى منه ، تعرف كيف تركل وأين ، فتشل الحركة ، وتقضى على المقاومة وعادت إلى ذهنه مغامرته فى دغل الايدى وكيف استطاع حسامه أن يشق طريقه الدامى خلالها ، ولكن هذه الاقدام ، تبدو أكثر قدرة من تلك الايدى وأشد قسوة . . وهناك كان « الخيرقان » بجانبه يساعده بقوته الهائلة ، أما هنا فهو وحده دون معين . . لو ظل مكانه ساكنا لتركوه فى سلام يلفظ أنفاسه خوفا ورعبا ، وجوعا وعطشا ، ويتحلل جسده على الأرض ليغدو غذاء دسما لهذه الاشجار المتعطشة إلى دمائه ، وما أبشعها ميتة له . .

وهوالملك الذى يحكم الانس والجن ، ويثير اسمه الرعب فى الممالك ، ويلقى ذكره الخوف فى القلوب . .

ان « سيف بن ذى يزن » الفارس ينبغى أن يلقى مصيره وسيفه فى يده ، يواجه الموت بما هو جدير به من شجاعة وبسالة . . وفتح الملك «سيف» عينيه ، وكان الضوء قد ابتدأ يشحب ، ولون السماء قد ابتدأت تشوبه حمرة « الغروب » وارتدت عيناه إلى الاشجار ، فاذا هى هادئة ساكنة ، ما تزال تحمل مظهرها الآمن الخادع ، فهب من رقدته وهو يضغط على أسنانه حتى لا تخرج منه صيحات الآلام أثر ما أحس فى جسده كله من رضوض وكدمات

وتحامل قليلا على نفسه حتى مرت لحظة الضعف ، ثم امتشق حسامه فى يده ، ومضى يسير فى اصرار وهو يتلفت حوله محاذرا ، وعيناه تترددان، بين أسافل الاشجار واعاليها ، ومن بعيد لاحت له فرجة تبدو بين الاشجار تظهر فيها أضواء النهار الغاربة . . ولمحت عيناه أغصنا تخرج من بين الاشجار فى بطء ولكنها تخرج ، وتتفتح أكمامها ، وتبرز منها السيقان تكبر وتكبر . .

وضم شفتيه فى حزم ، وشدد قبضته على سيفه ، ومضى فى خطوات ثابتة متجها نحو الضوء الذى يبدو له من بعيد ، وعيناه تدوران فى قلق وتحفز ، وانبعث صوت العواء الرهيب مرة ثالثة ، و لكنه لم يترك فى نفسه هذه المرة سوى المزيد من العزم والتصميم على القتال حتى النهاية

وفجأة لمعت أمامه ساق بيضاء تخرج من قلب شعر احدى الاشجار قريبة من الأرض كأنما اندفعت ليتعثر فيها . . وما كان ليراها لولا أنه كان يترقب مثل هذا الامر وارتفعت يده بالسيف وانقضت فوق الساق تجزها جزا ، واندفق منها سائل قان ، وتهاوت إلى الأرض واندفع يجرى ، وهو

يضرب بسيفه كل ما يلقاه ، والضربات تنهال عليه من كل اتجاه . . أقدام مفرطحة سوداء تخرج من سيقان غليظة كثيفة الشعر تلتوى فى الهواء ثم تضرب فى عنف ، وأقدام مستوية بيضاء ، سيقانها ملفوفة العضلات ، بادية القوة ، تلتف ثم تضرب فى قسوة ، وأقدام رقيقة مناسبة تخرج من سيقان شفافة اللون ، طويلة ترتفع ثم تضرب بلا هوادة ، وأقدام مشوهة تبرز منها أظافر كالمخالب ، سيقانها رفيعة معروقة تلمع بلونها الاسمر وتشق الهواء وهى تهوى فوقه بلا رحمة . . اقدام تضرب ظهره ، أقدام تخبط رأسه ، أقدام تصيب وجهه ، وهو يضرب ، والدماء تنبثق والاشلاء الهامدة تتناثر . . والضوء يقترب والاشجار من حوله تتراجع ، وتبتعد

وفجأة أصابت ذراعه ركلة قوية أطاحت بالسيف من يده ، وانقضت قدم تضربه بعنف فوق جبهته ، وأطاحت ضربة ثالثة بتوازنه فتهاوى إلى الأرض وهو يضرب الهواء بساعديه . . وقد أحس بدنو النهاية مع وقع الاقدام وهى تركل فى عنف وتضرب فى غضب ، وتهوى فوقه فى وحشية . . وتشبث بالأرض ، وأمسكت قبضتاه بالحشائش ، وأخذ يجذب جسده زاحفا إلى أمام ، ورأسه يرتطم فى عنف لتتفجر الدماء من أنفه ، ثم يرفعه فى يأس وهو يستأنف زحفه الدامى ، وضربات الاقدام تشتد ضراوة ، ويعود رأسه ليرتطم بالأرض مرة أخرى ، ليتدفق الدم من فمه

ويشد جسده . . فى يأس ، فى تشبث ، فى اصرار ، ويرتطم رأسه بالأرض مرة ثالثة ، ويحس بالدم يتدفق من بين عينيه ، ولم تكن هناك جدوى من كل هذا ، فقواه قد بدأت تخور ، وعيناه قد بدأتا تغيبان ، وطنين رهيب يدوى فى أذنيه ، والمرارة تأسر قلبه ، وترتفع لتترك طعمها ملء فمه

وفجأة أحس بيد قوية تنتزعه من الأرض انتزاعا وتحلق به فى الهواء ،

وفتح عينيه الغائمتين ليرى بركة الدماء وقد امتلأت بأشلاء ومزق ، ومئات الاقدام تخرج من الاشجار لتضرب الهواء فى عنف وحيرة . . والشعور الملونة تضطرب ألوانها وتمتزج ، وتختلط بلون الدم القانى وأشعة الغروب الحمراء ، لتكون مزيجا من دماء متراقصة . . ثم راح فى غيبوبة عميقة . .

* * *

أحس الملك « سيف » ـ وهو يفتح عينيه ـ بحفيف الهواء البارد وهو يضرب وجنتيه ويتخلل جسده كله . . وكان يشعر أنه يتحرك بسرعة مذهلة ، ولكنه كان يدرك أنه يرقد فوق جسد قوى ، ليس له صلابة الأرض ، ولا رخاوة الطين . . وفتح عينيه ليرى أمامه السماء وقد سطعت وسطها النجوم ، وأحاطت بها العتمة التى تشتد رويدا رويدا ، وتحرك قليلا ليعتدل ، فجاءه صوت «الخيرقان» ليقول فى ارتياح .

ـ اذن فقد أفقت أيها الملك . . لكم خشيت أن أكون قد وصلت اليك متأخرا . .

واستعاد الملك « سيف » احساسه بالامان والطمأنينة ، وقال من بين شفتيه المنتفختين :

ـ بل لقد تأخرت كثيرا أيها الصديق ، حتى يئست من قدومك . . !

فقال « الخيرقان » وهو ما يزال مندفعا فى الهواء ، حاملا الملك «سيف» فوق ظهره :

ـ لقد أضلتنى هذه الجزيرة الملعونة ، بأدغالها المتشابهة حتى لقد اختلط الأمر على . . وعندما سمعت صيحاتك التى كانت تتردد بشكل عنيف من أكثر من مكان ، قررت النزول إلى الجزيرة . . وعندما دخلت الدغل الذى كان تحتى مباشرة ، عرفت سر هذا الترديد الذى أضاع منى الاتجاه الصحيح للصوت ، ذلك لانى وجدت نفسى فى دغل الآذان التى

أيقظها صراخك وذلك العواء الرهيب المجهول ، فمضت تردده فى عنف وقسوة . . ولكن هذا أفادنى فى تحديد مكانك ، فطرت متخطيا دغل الايدى لاراك فريسة لهذه الاقدام الرهيبة !!

واقشعر جسد الملك « سيف » وهو يتذكر تلك المحنة التى مر بهاوقد تداعت اليه الآلام من كل جزء من جسده . . تذكره بالركلات واللطمات التى تلقاها دون رحمة ، وأطرق لحظات ثم قال :

ـ أتذكر حين حدثتنى عن البحارةالذين كانوا يدخلون الجزيرة ، ولا يعودون . . وهؤلاء النفر من شباب الجن المتحمسين ، الذين شاءوا أن يكشفوا عنها القناع ، فلم يعد واحد منهم ، لينبئ بما رأى . . ؟

فقال «الخيرقان » فى دهشة :

ـ أرأيت أحدا منهم أيها الملك ؟

فقال الملك « سيف » وهو يمر على وجهه المتورم ويلمس بأصابعه دماءه المتجمدة :

ـ بل لقد رأيتهم كلهم . . أن هذه الجزيرة لا تسمح لشىء أن يعيش فيها الا اذا تحول إلى جزء منها ، تبتلعه الأرض ، لتتحول دماؤه وجسده قطعة من أحد الادغال المفترسة التى تكون هذه الجزيرة الملعونة !

قال « الخيرقان » :

ـ أننى أشعر أننى ولدت من جديد وأنا أعود إلى التحليق فى السماء ، وقد مرت على لحظات حسبت أننى لن أعتلى ظهر الهواء من جديد !

قال الملك « سيف » :

ـ لقد أنقذتنا العنايةالتى تحرسنا يا صديقى ، وما كنا لولاها الا ملاقين مصير من سبقنا . .

وعاد « الخيرقان » يقول وهو يشق الهواء بقوة :

ـ سينقضى الليل كله قبل أن نصل إلى الجزيرة السادسة . . وأظنك جائعا أيها الملك ، فأنت لم تأكل شيئا طوال هذا النهار . .

فخرجت من بين شفتى الملك « سيف » ضحكة خشنة وهو يقول :

ـ ستنقضى أزمانا كثيرة قبل أن استرد شهيتى للاكل مرة أخرى ، فلقد أكلت فى هذا النهار من ا لعذاب كفايتى . . !

وعاد الملك « سيف » يحس بطعم الدماء الممزوجة بالتراب بين شفتيه ، فقال فى مرارة :

ـ ان طعم الدم فى فمى يكفينى حتى طلوع النهار . .

فزاد « الخيرقان » فى سرعته وهو يقول :

ـ أن أشد ما يحيرنى فى أمر هذه الجزيرة ، هو هذه الانهار الغريبة التى تتدفق بالدماء بدلا من الماء . . !

وازدادت ابتسامة الملك « سيف » وهو يقول فى صوت خافت :

ـ فى مثل هذا العالم الذى لا تعيش فيه سوى العيون التى ترقب وتحملق ، والآذان التى تتسمع وتردد ، والايدى التى تمسك وتعتقل ، والاقدام التى تضرب وتركل ، لا يكون هناك من غذاء سوى الدم . . !

وسكت الملك « سيف » لحظات ثم قال :

ـ سأنام أيها الصديق فوق ظهرك ، وحين تصل إلى بغيتك أيقظنى . .

فقال « الخيرقان » وهو ماض فى طريقه :

ـ سنصل عند الفجر وسأوقظك مع أشعة النهار البيضاء . .

- ٨ -

حينما فتح الملك « سيف » عينيه طالعته أشعة الشمس تغمر وجهه وجسده كله . . وتطلع حوله ليجد نفسه وحيدا فى وسط مجموعة من الازهار الملونة الزاهية ، وخليط من الاصوات العذبة الجميلة تردد كلمة واحدة فى تنغيم وغناء . . وجلس الملك « سيف » وهو يطرق بأذنيه محاولا أن يلتقط هذه الكلمة التى تتردد بأكثر من طبقة وفى أكثر من نغم . . وكلما أرهف الملك « سيف » سمعه ، جذبته حلاوة الانغام وأطربته رقتها وعذوبتها ، واستطاع أن يميز الكلمة التى تتردد فى صعوبة بالغة ، فهب واقفا وقد غادره كل كسل اللحظات الأولى من الاستيقاظ ، فقد كانت الكلمة هى :

ـ واق الواق . .

اذن فهو فى الجزيرة السادسة . . وصلها نائما على كتفى «الخيرقان» الذى تركه مستغرقا فى نومه ، وذهب دون أن يوقظه . . وأحس بالجوع الشديد ، فقد مضى عليه أكثر من يوم دون أن يذوق طعاما فى تلك الجزيرة الملعونة المليئة بالازهار الجهنمية . . واعترت جسده كله رجفة ، وصورة العذاب البشع الذى قضى فيه أمسه إلى تأمل ما أتى به اليوم من صور جديدة فى هذه الجزيرة السادسة . . وعاد ذهنه يقف عند الكلمة التى تتردد بأكثر من نغم وبأكثر من صوت . .

ـ واق الواق . .

وحاول أن يحدد مصدر الصوت ، ولكن محاولته كانت عبثا . . فالصوت يأتى من كل مكان : من الهواء حوله ، ومن الأرض تحت قدميه، ومن السماء فوقه . . من كل مكان يأتى الصوت فى حلاوة وفى عذوبة . . فى توافق وانسجام . وفجأة وقف ذاهلا وهو يحدد بصره فى الزهرة الجميلة الملونة التى تهتز مع النسمات العذبة أمامه تماما . . كانت الزهرة تغنى الكلمة من فمها الحلو . . فم شابة جميلة لها وجه رقيق برىء يحوطه شعر كث فاحم ، وعينان ذاهلتان . . وحين أمعن النظر تأكد أن الشفتين تتحركان وتصدران صوتا منغوما واضحا . . كما تأكد أن العينين لا يخالط بياضهما سواد . . كانت رائعتين حزينتين بلا انفعال . . كان الوجه الرقيق الحالم الذى يشكل الزهرة الملونة الجميلة لا يرى . . كان فقط يغنى فى تعبد واستغراق كلمة واحدة :

ـ واق الواق . .

والتفت الملك « سيف » حوله ، وقد بدأ يدرك أن هذه الأصوات الرقراقة العذبة انما تصدر عن الازهار البديعة التكوين التى تملأ كل مكان يحيط به . . زهرة على هيئة وجه امرأة ناضجة حلوة ، وزهرة على هيئة وجه طفل صغير برىء ، وزهرة على هيئة وجه شيخ عجوز طيب ، وأخرى على هيئة وجه كلب ، وثانية على هيئة وجه أسد ، وثالثة على هيئة وجه حصان . . وجوه الناس ، ووجوه الحيوانات أليفة ومتوحشة ، كلها زهرات ملونة تكاد تنبض بالحياة لولا نظرات باهتة فى العيون البيضاء المنطفئة ، ولولا عى فى الالسنة بحيث لا تخرج منها سوى النغمات المتكررة الرقيقة . .

ـ واق . . الواق . .

ووقف الملك « سيف » ذاهلا وهو لا يكاد يصدق نفسه . . ان

الازهار تعيش فى انهماك كامل مردده الكلمتين ، وكأنها تؤدى واجبا مقدسا تخشى أن يفوتها أداؤه . . الصوت الغليظ القاسى ، والصوت الرقيق الحالم . . النغمات القوية الصارخة ، والنغمات الهادئة الناعمة . . كلها تختلط وتنسجم فى لحن واحد ، لا تكاد تبدو منه سوى الكلمتين الوحيدتين اللتين تعرفهما هذه الشفاة المبتهلة . .

ـ واق . . الواق . .

وأحس الملك « سيف » بحركة غير عادية خلفه ، فالتفت وراءه ليجد المارد « الخيرقان » يتقدم نحوه ، وهو يحمل بين يديه مجموعة ضخمة من الفواكه النادرة ويقول .

ـ لقد كنت يا مولاى تنام نوما عميقا فلم أحب أن أوقظك ، وانما أسرعت أحضر لك ما تأكله . .

ثم وضع حمله الثقيل على الأرض ، وجثم إلى جواره يعد مجلس الملك «سيف » ويزيل عن الفواكه قشرها . . وقال الملك « سيف » وهو يتأمله أثناء انهماكه فى العمل :

لقد خشيت أن يكون الرعب قد ركبك فقررت أن تتركنى لمصيرى على هذه الجزيرة الغريبة . . !

فرفع المارد رأسه وهو يقول :

ـ أننى لا أعرف الرعب أيها الملك من كل ما أعرف . . وان كنت تشير إلى ما حدث فى الجزيرة الملعونة ، فمرده إلى أننى لم أكن أعلم عنها شيئا . . أما الآن وقد عرفت ما بها من مهالك فأنا مستعد أن أعود معك اليها ان أردت . .

واحس الملك « سيف » بقشعريرة باردة تتملك جسده كله . . وقال بسرعة :

ـ أما أنا ـ وقد عرفت ـ فلن تستطيع قوة أن ترغمنى على العودة اليها . . !

فقال « الخيرقان » وهو مستمر فى اعداد الطعام :

ـ وهذا هو الفرق بيننا وبينكم يا معشر الانس . . ان كل رغبتكم تنحصر فى أن تعرفوا المجهول ، وما أن يصبح هذا المجهول معلوما حتى يفقد قيمته لديكم . . !

ثم رفع رأسه وهو يقول :

ـ والآن أيها الملك ، أحسبك جائعا . .

وتذكر الملك « سيف » أنه لم يأكل زادا منذ يومين ، فجلس إلى الطعام وهو يقول « للخيرقان » :

ـ عندما استيقظت من النوم كانت شهيتى للطعام عارمة ، أما الآن فقد صرفنى عن الطعام ذلك الشىء الغريب الذى اكتشفته حولى . . !

فقال « الخيرقان » وهو يد فع إلى الملك بثمرة ناضجة :

ـ الاكل أولا ، ثم الحديث بعد ذلك . .

وتنهد الملك « سيف » ثم مد يده يأخذ الثمرة ويرفعها إلى فمه . . فملأت أنفه رائحتها الذكية ، وأثارت فيه من جديد احساسات الجوع . . فمضى يقضم الثمرة وقد استشعر لمذاقها حلاوة أنسته الاسئلة الكثيرة التى تملأ رأسه . ولكن « الخيرقان » أعاد إلى ذهنه كل هذه الاسئلة حين قال :

ـ لعلك اكتشفت حقيقة الازهار فى هذه الجزيرة . . ؟!

فالتفت الملك « سيف » اليه يسأله :

ـ أكنت تعرف أن أزهار هذه الجزيرة على هيئة وجوه آدمية وحيوانية . .

فابتسم « الخيرقان » وهو يقول :

ـ طبعا ، فقصة هذه الجزيرة يعرفها صبية الجن منذ يشبون عن الطوق . . وأحب أن أصحح لك حديثك أيها الملك . فهذه الازهار ليست على هيئة وجوه آدمية وحيوانية ، بل هى بالفعل وجوه آدمية وحيوانية تحولت إلى أزهار . .

وتوقف الطعام فى فم الملك ، وارتسمت فى عينيه نظرة ذاهلة مستنكرة . . وحين وجد صوته أخيرا همس فى دهشة :

ـ ماذا تقول ؟ . .

فعاد « الخيرقان » يبتسم وهو يقول :

ـ هل أزعجتك أيها الملك ؟ . .

وابتلع الملك « سيف » ما كان بفمه من طعام ، ثم التفت إلى «الخيرقان» صائحا :

ـ تقول إنها وجوه آدميين وحيوانات تحولت إلى أزهار ؟! . .

فقال « الخيرقان » وهو يمد يده بثمرة أخرى للملك « سيف »

الطعام أولا أيها الملك . .

فهب الملك « سيف » واقفا وهو يصيح :

ـ لا طعام ولا شراب . . أريد أن أعرف أولا معنى هذا الذى تقوله . . !

فقال « الخيرقان » فى صوت هادئ :

ـ وستعرف أيها الملك كل شيء . . فقط لابد أن تأكل أولا . .

فأبعد الملك « سيف » يد المارد الممتدة بالثمرة وهو يقول :

ـ بل هيا بنا . .

فهب « الخيرقان » واقفا وهو يقول ، ويده تمتد لتسد الطريق أمام الملك « سيف » :

ـ إلـى أيـن أيـها المـلك ؟ . .

ـ سأذهب لأرى . . سأبدأ جولتى فى الجزيرة حالا . .

فقال « الخيرقان » وهو ما يزال يسد الطريق أمام الملك :

ـ وماذا سترى ؟ . . ليس فى الجزيرة شىء الا ما تراه الآن أمامك . . أزهار من كل لون ، وكل زهرة لها وجه ، هو مرة وجه إنسان ومرة وجه حيوان . . وكلها تغنى هذه الاصوات التى تسمعها . . فماذا سترى ؟ . .

ـ هذا الذى كنت تقوله الآن . . ؟!

فأنزل « الخيرقان » يده ، وعاد إلى مجلسه على الأرض وهو يقول :

ـ أن هذا لن تعرفه بالرؤيا ، وانما وسيلة معرفته هى السماع . . أجلس وأبدأ فى أكلك أيها الملك ، وسأقص عليك من أمر هذه الجزيرة ما استغلق عليك فهمه ، وأثار دهشتك واستنكارك . .

ووقف الملك « سيف » يحدق فى « الخيرقان » لحظات ، ثم عاد فى بطء شديد إلى مجلسه الأول ، ثم أطرق برأسه وهو يقول :

ـ اذن أحك ، أريد أن أعرف كل شىء . .

فعاد « الخيرقان » يبتسم ، وهو يقول :

ـ الاكل أولا يامولاى . . هذه الثمرة الشهية ستعيد اليك الرغبة فى الطعام ، وسأقص عليك أعجب حكاية يمكن أن يسمعها إنسان . .

فجمع الملك « سيف » أطراف ثيابه واستراح فى جلسته ، ومد يده يأخذ الثمرة من « الخيرقان » ويقضمها فى سكون ، وعيناه متعلقتان بشفتى « الخيرقان » الذى مضى يقول :

ـ بدأت هذه الحكاية أيها الملك منذ عهد بعيد جدا . منذ ذلك الزمن الذى كانت فيه هذه الجزيرة عامرة بسكانها من رجال ونساء ، يعيشون فى نعيم مقيم وسلام دائم . . فالانهار فى الجزيرة جارية بالماء العذب

والخير الوفير ، والاشجار فى الجزيرة مزهرة أبدا بأحلى أنواع الفواكه والثمار. . والحيوانات ترتع كلها فى طمأنينة وسلام فى ربوع الجزيرة . . فهذه الجزيرة كانت جزيرة الحب والسلام . . لم يعرف أهلها أكل اللحم ولم يسفك فيها دم . . حتى حيواناتها لم تكن تعرف رائحة الدماء ولا طعمها ، بل كل طعامهم من خيرات الأرض وثمار الأشجار . .

ولهذا لم يكن غريبا أن يسود بين الجميع شعار المحبة ودافع السلام . . وكان سكان الجزيرة جميعا يحسون فى أعماقهم بالأمن والطمأنينة فليس فى تاريخهم حروب ، ولم يشهد آباؤهم وأجدادهم ما يحدثه البغض والانانية فى حياة الناس من تنازع وشقاق . ومن أين يأتى الشقاق وكل ما فى الجزيرة متاح مباح . . كل متعة حلال ، وكل رغبة مجابة ، وكل أمنية محققة . . ولم تكن الحكايات التى يقصونها على أطفالهم تحمل سوى أقاصيص التعاون والتعاطف و التواد . .

وكان الملك « سيف » قد انتهى من الثمرة التى فى يده ، فمد يده يتخير ثمرة أخرى جميلة اللون ذكية الرائحة ، ومضى يديرها فى يده وهو يتشممها ويقول

ـ ألم يتغلب الخيال بعض الشىء على حكايتك أيها الصديق المارد . . ؟

فقال «الخيرقان » وهو ينظر إلى وجه الملك « سيف » :

ـ أننا معشر الجن لا نعرف هذا الذى تسمونه خيالا ، أننى أحكى لك ما يعرف كل جنى فى هذه البلاد أنه الحقيقة . . لقد كان آباؤنا يتسللون إلى الجزيرة ليشهدوا ما بها من معالم السعادة ، كما كانوا يصحبوننا ونحن صغار إلى هنا لنتعلم من هؤلاء البشر ، بل ومن الحيوانات التى تعيش معهم معنى المحبة والود . . بل لقد كنا نترنم بتلك الأغنية العذبة الجميلة التى كانوا جميعا يرددونها كل صباح وكل مساء . .

فالتفت الملك « سيف » اليه فى دهشة وقاطعه صائحا :

ـ كانوا يغنون ؟! . .

ـ الأطفال والشباب والشيوخ ، النساء والعذارى والصغيرات . . الطيور فوق أشجارها ، والوحوش فى مكامنها ، والأنعام فى مراعيها . . الكل يغنى والكل يسبح . .

ـ حتى الطيور والحيوانات ؟! . .

ـ كل من عاش ، وما عاش فى جزيرة الله هذه ، يحوطه الحب ، وتغمر قلبه السعادة . . كان لابد أن تغمر نفسه سكينة الايمان فيترجمها إلى أغنية تعبد وابتهال إلى خالق السعادة ومانح السكينة . .

ـ أو كانوا يعرفون الله ؟! . .

ـ وكانوا يعبدونه فى كل ما يعملون ، وكل ما يقولون ، ويتغنون دائما باسمه بأرق الاصوات وأحلاها . . وفى هذه الجزيرة الوادعة الآمنة ما كنت تسمع سوى الأغنية العذبة الرقراقة تشترك فيها كل الأصوات فى تبتل وابتهال . . كلهم يغنون : سبحان الملك القهار . . سبحان الملك القهار . .

فقال الملك « سيف » :

ـ ولهذا سميت الجزيرة بجزيرة الله . .

فقال « الخيرقان » وقد سهمت عيناه بعيدا وكأنها يسترجع ذكرى عزيزة :

ـ لقد سميناها ، وسماها كل من كان يسكن هذه الجزر بعدة اسماء . . سموها جزيرة الله لأنهم اعتبروا ما يعيش فيه أهل الجزيرة من سلام ورضاء من الله اختص به سكانها ، كما أسميناها أيضا جزيرة الصوت . .

فقاطعة الملك « سيف » سائلا فى دهشة :

ـ الصوت ؟! . .

فقال « الخيرقان » وقد أعاده سؤال الملك « سيف » إلى أرض الواقع :

ـ نعم ، أيها الملك ، جزيرة الصوت . . فما كان أعذب وأحلى وأرق تلك النغمات المتسقة الحلوة تتعالى من كل جزء فى الجزيرة ، وتتصاعد من كل مكان فيها لتملأ الجو حولها بغلالة من النغم تردد كلها : سبحان الملك القهار . . سبحان الملك القهار فتمتم الملك « سيف » مرددا فى همس :

ـ سبحان الملك القهار . .

وأطرق متأملا لحظات ، ثم رفع رأسه يسأل « الخيرقان » :

ـ ولكن ، ماذا حدث ؟ . . وأين ذهب ناس الجزيرة وحيوانها ؟ . . وما سر هذه الأزهار ؟

فقال « الخيرقان » :

ـ هذا ما أريد أن أحدثك بأمره أيها الملك ، فما حدث للجزيرة حدث فى الماضى . . أما الآن فالجزيرة كلها لا تفعل شيئا سوى الانتظار . .

فعاد الملك « سيف » ينظر إلى « الخيرقان » فى دهشة وهو يقول :

ـ انتظار ماذا ؟ . .

فقال « الخيرقان » فى صوت هادئ :

ـ كل شىء له أوان أيها الملك . . ولن تعرف ما ينتظرون الا اذا عرفت ما حدث . . !

فأطرق الملك « سيف » وهو يهمس :

ـ أنت محق . . هيا إذن احك لى القصة منذ بدايتها . .

قال « الخيرقان » :

ـ قلت لك أيها الملك أننا كنا نسمى هذه الجزيرة بجزيرة الصوت ،

فقد كانت أصوات التسابيح على ألسنة الناس والحيوانات فى هذه الجزيرة أحلى نغم عرفته آذاننا . . وكنا نحن ـ معشر الجن ـ كما كان العابرون من بنى آدم لا يستطيعون الا الوقوف طويلا بالجزيرة يشنفون آذانهم بهذا الدعاء الصادر من القلوب المخلصة والذى كان يهز كل القلوب مهما غلظت وقست . . الا قلبا واحدا . . كان لساحر عجوز كافر ، مر بالجزيرة يوما فاستهوته هذه الأصوات العذبة فاستقر فى الجزيرة لا يبرحها . . الا أن قلبه الأسود ما كان يهدأ وهو يسمع اسم الله صباح مساء تردده كل الشفاه التى تعيش فى أمن وسلام . . وظل زمنا يعيش فى كهف بعيد . ، هناك فى آخر الجزيرة حيث لا إنسان ولا حيوان محاولا أن يحجب عن أذنيه أصواتهم الحلوة ، ولكن الصوت مع هذا كان يتسلل إلى سمعه كلما صحا وكلما نام . . يحس له فى قلبه لذع السياط ولدغات العقارب ، فيظل يجرى مبتعدا عن الأماكن المعمورة بالجزيرة حتى وصل ذات يوم إلى حافة مستنقع بعيد آسن الماء ، راكد الهواء ، وأخذ يجرى بين أعشابه الطويلة المتشابكة حتى اختفى الصوت تماما ، ولم يعد يسمع شيئا من غناء الجزيرة التى خلَّف أجزاءها المأهولة وراءه تماما . . وجلس فوق صخرة سوداء وهو يضع رأسه بين يديه ويلتقط أنفاسه اللاهثه . . وليس يدرى الساحر العجوز كم ظل فى جلسته تلك ، ولكنه رفع رأسه وقد طرق سمعه صوت غريب ، ليس كتلك الاصوات التى يسمعها فى الجزيرة ، وانما صوت حاد رفيع ، لا نغم فيه ولا لون له . . صوت قبيح منفر يتردد فى خفوت وعلى استحياء وكأنما يخشى صاحبه أن يسمعه أحد . .

وأخذ الساحر العجوز يتلفت حوله دون أن يعثر على مصدر هذا الصوت الغريب ، ولكنه بينما كان يمعن النظر عند حافة بركة موحلة رأى

صرصارا كبيرا يهز شواربه الطويلة مع نغمات الصوت الناشز الذى يسمعه . . فركز انتباهه على الصرصار ، وسرعان ما أدرك أنه هو مصدر هذا الصوت المنفر القبيح الذى استرعى انتباهه منذ أول الأمر . . وابتسم الساحر العجوز وهو يشهد هذه المحاولةاليائسة من الصرصار لأن يفعل بصوته شيئا ، ثم قام من مجلسه محاذرا واقترب فى حرص من الصرصار الذى لم يلتفت اليه وقد أنساه انهماكه فى الصراخ كل ما حوله . . وانحنى الساحر العجوز فى لطف حتى كادت لحيته البيضاء الطويلة أن تمس سطح الماء الموحل الآسن ، وهمس فى رقة مخاطبا الصرصار :

ـ ما أجمل هذا الصوت أيها الصديق وما أعذبه . . !

فأجفل الصرصار ، وكفت شواربه الطويلة عن الحركة . . وكاد يسرع هاربا لولا أن ما سمعه من هذا الشيخ الذى ينظر اليه بعينيه الكبيرتين مس وترا حساسا فى نفسه ، فتوقف عن الهرب ورفع شواربه نحو الشيخ ذى اللحية البيضاء الكثه . . وقال :

ـ أيعجبك صوتى أيها الشيخ الطيب حقا ؟ . .

فقال الشيخ وهو يكسو صوته لهجة الجد والاخلاص :

ـ اننى منذ وطأت قدمى هذه الجزيرة المزعجة لم أسمع صوتا كصوتك أيها الصديق الطيب . . !

فاستراحت نفس الصرصار إلى قول الشيخ وهدأت حركاته ، والتفت إليه قائلا فى رزانة :

ـ ان هذه الجزيرة الملعونة بما تصدر من أصوات سمجة لا تترك مجالا لمثلى لكى يرتفع صوته . . !

وكاد الساحر الشيخ أن ينفجر ضاحكا . . ولكنه كتم رغبته العارمه فى الضحك ، وتصنع الجد وهو يقول للصرصار الذى اعتدل فى وقفته بحيث

أصبحت شواربه الطويلة تتحرك فى مواجهة الساحر المنحنى :

ـ حقا انك مغبون الحق ، ولك مثل هذا الصوت الساحر . . !

وهنا صاح الصرصار طربا وهو يقفز وينط ، وقد تداخلت كلماته المنفعلة حتى استطاع الساحر أن يميزها بصعوبة :

ـ أنت إنسان لك مثل أنفهم ، ولعينيك مثل لمعة عيونهم ، ولصوتك رنة تشبه رنة أصواتهم ، ولكن حديثك غير حديثهم ، وكلامك غير كلامهم . .

فضحك الساحر العجوز وهو يقول :

ـ أتكره الناس إلى هذا الحد . . ؟

وهنا اعتدل الصرصار ، وقال وهو يشير حوله بشواربه الطويلة :

ـ أترى . . أن هذا المستنقع النائى هو المكان الوحيد لى ، ولكل أخوانى الصراصير ، ولأبناء عمومتنا العناكب . .

ونظر الساحر حوله فوجد نفسه وسط دائرة هائلة من الصراصير والعناكب تجمعت حولها أثناء انهماكه فى الحديث مع الصرصار دون أن يحس بها . . وانتابه شعور عنيف بالتقزز والخوف ، ولكنه تمالك نفسه ، ورسم على وجهه ابتسامة مرحبة وهو يقول فى صوت حرص أن تكون نبراته جادة تماما :

ـ مرحبا . . هذا صحيح ، انكم كلكم هنا . .

فقال الصرصار فى نبرات متألمة :

ـ ان مكاننا ليس هنا . . كنا نعيش فى البيوت على أجمل المأكولات وأشهاها ، وكنا نعيش فى المروج وسط أحلى الأزهار وأنضجها . . ولكن الإنسان هو الذى طردنا من دنياه ، وأقصانا عن الجزيرة ليعيش فيها وحده مع الحيوانات التى خدعها وجعلها تنسى غرائزها الحقيقية بدعوى

كاذبة عن السلام والحب ، ومضوا جميعا ينشدون هذه الكلمات الغريبة التى تسمعها منهم ليل نهار . .

قال الساحر فى خبث ، وقد بدأ يستشعر راحة فى حديث الصرصار الذى يتجاوب مع ما بنفسه :

ـ أنهم يسبحون الله ويقولون : سبحان الملك القهار .

فصاح الصرصار ، وقد امتلأ الجو بصرير رهيب صادر عن الجمع الحاشد من الصراصير الذين التفوا حولهما :

ـ اصمت . . الآن اصبح صوتك مثل اصواتهم ، وكلامهم مثل كلامهم . . أننا ما هربنا من الجزيرة كلها الا لتستريح اذاننا من سماع هذه الكلمات . .

فأسرع الساحر العجوز يقول فى تأكيد :

ـ أننى أيضا هربت إلى هذا المستنقع لابتعد عن صدى اصواتهم وهم يرددون هذه الكلمات ، فمشكلتى مثل مشكلتكم ، وحكايتى كحكايتكم . .

وران على الجمع الحاشد صمت طويل ، وبدا وكأن الصراصير يفكرون فى كلامه مكذبين ، واخيرا تحدث الصرصار قائلا :

ـ ولكنك تستطيع أن تغنى مثلهم . . !

فقال الساحر :

ـ ولكنى لا استطيع أن أردد هذه الكلمات ، وليس لديهم من نشيد سواها . . كما أننى لا استطيع أن أعيش وسطهم فانا لا أعيش حيث يحل السلام والأمن . . ان حياتى فى أن أرى الدم المراق ، وفى أن أشهد الشقاق والخلاف ، وفى أن أبذر الطمع والجشع لاسيطر وأسود . . !

فصاح الصرصار ، وفى صوته رنة فوز :

ـ أنت غريب عن الجزيرة . . انك لست من أهلها . . أنك من هذا الصنف الذى رأيناه كثيرا يفر هاربا إلى المستنقعات حيث يموت جوعا ، أو يجن فيقذف بنفسه إلى البحر ليبتلعه الموج . . لقد عرفتك . . !

فقال الساحر فى دهشة :

ـ أهناك غيرى . . ؟!

فقاطعة الصرصار قائلا :

ـ دائما هناك غيرك ، ولكنهم لم يكونوا يفهمون لغتنا أو حديثنا . . وكانوا فى جريهم يطئوننا بأقدامهم ويتخبطون فى نسيج ابناء عمومتنا العناكب إلى أن يموتوا فى يأس رهيب . .

وعلت وجه الساحر ابتسامة صفراء وهو يقول فى تؤدة :

ـ ولكننى لست كغيرى . . أننى استطيع أن افهم حديثكم ، كما ان لدى من القوة ما يفوق قوة أهل الجزيرة مجتمعين . .

وسكت لحظات ، ثم التفت إلى الجمع من حوله وهو يقول موجها الحديث اليهم جميعا :

ـ ولو ضمنت مساعدتكم لجعلتكم تحلون محل الناس والحيوانات فى الجزيرة . . !

وسرعان ما ارتفعت الصيحات من كل مكان يشوبها فرح جنونى وأمل غامر . . ولكن الصرصار رفع صوته فسكتوا جميعا ، والتفت إلى الساحر قائلا :

ـ ونغنى نحن ؟ . .

ـ ويصمتون هم . . !

ـ ونقول ما نشاء ؟ . .

ـ ولا تصبح هناك كلمات غير كلماتكم ، ولا اصوات غير أصواتكم . . .

وعاد السكون يغمر المستنقع كله لحظات ، ثم انفجر الجميع فى صياح متعال مدو . . واحس الساحر بزهو وهو يلتفت إلى أنصاره الجدد، ويدبر فى فكره ما يستطيع أن يفعل بقوتهم الهائلة . . ثم رفع يده فسكت الجميع دفعة واحدة . . وعاد الساحر يقول :

ـ فقط عليكم ان تطيعونى طاعة عمياء ، لا يسأل أحد عن شىء ، ولا يتردد واحد فى تنفيذ أوامرى . . !

وعاد صوت الصراصير يدوى فى هتاف هستيرى . . وشاهد الساحر عنكبوتا ضخما يتقدم نحوه فى اتئاد حتى يقف إلى جوار الصرصار الذى يخاطبه ، وحين شاهده الجميع كفوا جميعا عن الصراخ بينما قال العنكبوت الضخم :

ـ لقد عانينا من الحياة فى الجزيرة الامرين ، فان كنت حقا تستطيع أن تعيد لنا مكاننا فى الجزيرة فنحن معك . . وسنقف إلى جوارك ـ نحن الصراصير ـ مهما كانت التضحيات التى تطلبها منا . . فقط نريد أن نعرف لماذا تعاوننا وانت واحد منهم ؟ . .

فقال الساحر العجوز وهو يهز لحيته البيضاء :

ـ لقد قلت لكم أننى اكرههم . . هؤلاء الذين يعيشون فى سلام ويعبدون الله ، وليس لمثلى مكان وسطهم . . !

فهز الصرصار شواربه وهو يقول :

ـ أنه مثلنا . .

فقاطعه العنكبوت فى صوته المتئد سائلا الساحر :

ـ أتحب الشمس ؟ . .

فصاح الساحر :

ـ لا . .

واستمر العنكبوت :

ـ أتكره الدماء ؟ . .

فصاح الساحر :

ـ بل أحب أن أرى لونها القانى يخضب الأرض . . !

وعاد العنكبوت يسأل :

ـ والنظافة ؟ . .

وهنا صاح الساحر :

ـ لا استطيع أن أعيش فى مكان نظيف . . ان مكانى الكهوف الرطبة . ولعبتى حنايا النفوس الضعيفة حيث يكمن أقذر ما فى الإنسان !

وهنا صاح العنكبوت :

ـ اذن فانت منا ، ونحن معك ، ؟ . . فماذا تريدنا أن نفعل ؟ . .

وعادت الابتسامة تملأ وجه الساحر العجوز وهو يقول :

ـ اذن اسمعوا . .

والتفوا جميعا حوله وهم يصغون السمع لما يقول . .

* * *

وسكت المارد « الخيرقان » وهو يتأمل فى وجه الملك « سيف » وقال :

ـ وهكذا بدأت حكاية . . هذه الجزيرة . .

فقال الملك « سيف » وهو يقوم من مجلسه :

ـ لنبحث عن مكان ظليل فقد توسطت الشمس كبد السماء ، ثم تكمل لى هذه الحكاية الغريبة . .

وسار الاثنان والملك « سيف » يتأمل الازهار المسبحة ، ونظرات عيونها الجامدة تثير فى قلبه اشجانا غريبة . . ومازال صدى «الخيرقان» وهو يحكى له يتردد فى رأسه . . وعند شجرة عالية غزيرة الاغصان جلس

الملك « سيف » وقد اراح ظهره إلى جذعها الضخم ، بينما افترش «الخيرقان» الأرض أمامه . . وقال الملك « سيف » :

ـ والآن يا « خيرقان » اكمل حديثك . .

قال « الخيرقان » :

ـ منذ ذلك اليوم بدأ غزو الصراصير والعناكب لناس الجزيرة وحيواناتها . . ما يفتح احدهم صيوانا للملابس الا ويجد الصراصير قد اتلفت له كل ما فى الصيوان من ملابس الشتاء والصيف . . ولا يقرب احدهم طعاما الا ويجد فيه أثار الصراصير ما يجعله يقذف بالطعام إلى النهر . . أما الحيوانات فقد عافت نفوسها كل طعام ، فحوله وبداخله خيوط العنكبوت الترابية تثير التقزز وتقتل كل شهية فى طعام . .

وبدأ الناس حربهم العنيفة مع الصراصير ، ولكنها كانت حربا يائسة . . فلا القوة تستطيع القضاء على جموعهم الكبيرة ، ولا النظافة استطاعت أن تمنع تناسلهم المستمر الغزير . . وخرج الناس جماعات إلى العراء يدعون الله أن يرفع عنهم الغمة ، ولكن الصراصير بقيت تنغص حياتهم ، كما أن العناكب استمرت تضايق الحيوانات فى عيشها . .

وهجر الناس منازلهم ولجئوا إلى الكهوف والمغائر ، ولكن الصراصير سرعان ما اكتشفت اماكنهم ، وسرعان ما احتلت هذه الكهوف بأعداد غزيرة جعلت البقاء فيها مستحيلا . . وفزع الناس هاربين إلى الخلاء . . وهناك كانت الحيوانات تحتشد فى ذعر وقلق فلم يعد لها مكان فى عالم تسيطر عليه العناكب . . !

ووسط هذا الذعر القاتل ، واليأس المرير ، سرت اشاعة بين الناس والحيوانات لا يدرى احد مصدرها أن بالمستنقع البعيد ساحرا عجوزا يستطيع أن ينهى هذا الكرب الذى حل بالجزيرة ، وعنده الدواء الناجح

الذى يستطيع به القضاء على الصراصير والعناكب معا وفى الحال . . وما أن سرت هذه الاشاعة وسط الجمع المحتشد حتى هرعوا جميعا متدافعين نحوالمستنقعات التى لم يكن قد قصدها احد منهم من قبل . .

قال الملك « سيف » مقاطعا « الخيرقان » وهو يعتدل فى جلسته ليظل فى الظل :

ـ وكيف أمكنهم أن يعرفوا مكانها ؟ . .

قال « الخيرقان » :

ـ أيها الملك ان أحداً منهم لا يعرف من الذى اخبرهم بامر الساحر ، كما ان احدا منهم لم يكن يعرف كيف انساقوا إلى المستنقعات . . وانما هم وجدوا انفسهم يندفعون فى تسابق مجنون نحوالمستنقعات ، وكان دليلا حاذقا يقودهم ويدلهم على الطريق . .

فقال الملك « سيف » :

ـ ان هذا لا يهم الآن . . تابع قصتك الغريبة ايها المارد . . ماذا وجدوا فى المستنقعات ؟

قال « الخيرقان » وهو يتطلع بعينيه إلى الافق البعيد :

ـ حين وصل الجمع الحاشد إلى المستنقعات اصابته رهبة غريبة فسكت كل صوت ، وران سكون غريب على الجزيرة كلها وكأنها كلها فى انتظار شىء خطير . . ومن وسط الضباب المنعقد فوق ماء المستنقع الآسن خرج عليهم الساحر العجوز وكأنما هبط من السماء أو انشقت عنه الأرض . . ولم يعرف فيه احد ذلك العجوز ذا اللحية البيضاء الكثة الذى مر بجزيرتهم منذ حين ليس ببعيد ، فقد تغير شكله تغيرا كاملا . . وغدا شيئا لا ينتسب إلى جنس ، فلا هو إنسان كامل ، ولا هو حشرة كاملة ، بل هو مزيج غريب من الاثنين . . الشعر الابيض اصبح بلون التراب

المقيت وتحت انفه امتدت شوارب طويلة شبيهة بشوارب الصراصير . .
وعند مفرقيه ظهر قرنان غريبان يملأهما الشعر ، وكسا جلده كله زغب
غريب اشبه بالزغب الذى يملأ جسد العناكب . . وبهت الناس ووقفوا
ينظرون إلى هذا الكائن الغريب الذى طلع عليهم من وسط الضباب . .
وحين تحدث كان صوته اشبه بصرير الصراصير ، حادا رفيعا صارخا . .
وقال الساحرالعجوز :

ـ أنا أعرف لماذا اتيتم إلى . . انكم تريدون الملجأ والملاذ من الصراصير
والعناكب . . لقد حاربتموها فهزمتكم ، واستعنتم عليها بالدعاء فلم
ينفعكم . . والآن جئتم صاغرين إلى ، إلى أنا . . أنا وحدى أملك الحياة
لكم . . أنا وحدى الذى يستطيع أن ينقذكم من البلاء الذى انتم فيه ،
وأنا مستعد لهذا ، ولكن بشروط . . !

وتعالت الاصوات من كل مكان ، من اليمين ومن الشمال ، ومن
الناس ومن الحيوانات . . كانوا جميعا يصيحون فى نفس الوقت وكأنما
تتزاحم اصواتهم لتبلغ أذنيه . .

ـ كل شروطك مجابة . . اطلب ما تشاء . . أغثنا . . أغثنا

وسكت الساحر العجوز وقرناه العجيبتان تجولان فوق رأسه فى زهو ،
وشواربه السوداء الطويلة تتحرك فى انتصار ، ثم صاح بصوته الحاد الرفيع
اللزج :

ـ وتلبون شرطى . . ؟!

وعاد الصياح من كل مكان يردد كلمة واحدة :

ـ نعم . . نعم . .

ومرة أخرى سكت الساحر العجوز وهو يهز ذراعيه الطويلتين
المغطاتين بزغب اسود مقزز :

ـ وتقسمون على هذا . . ؟

وانفجر الصياح فى صبر نافذ :

ـ نقسم . . نقسم . .

واندفع الساحر العجوز يصرخ ، وكل جسده العجيب يهتز فى رجفة غريبة مخيفة ، وكأنها يرقص لوثن لا يراه أحد سواه :

ـ تقسمون ؟ تقسمون ؟ . . وبماذا تقسمون ؟! الهكم لم ينفعكم . . أنا الذى انفعكم وأنا الذى اضركم . . باسمى أنا يكون القسم ، ولى أنا يكون التسبيح . . اقسموا ، اقسموا بى أنا ، أنا الواحد القهار ، أنا لا غير . اقسموا بالساحر العظيم . . بالقهار . . بى أنا . . !

وران على الجزيرة وجوم رهيب ، وسكت كل صوت الا صوت الساحر الذى استخفه الطرب فمضى يرقص ويغنى ، وهو يردد كلماته بصوته الرفيع اللزج وكأنها مات كل الاحياء الا هو :

ـ أنا الامل فى الخلاص . . أنا الحياة والاستقرار والأمن . . أنا القوة . . اركعوا . .

وتسمرت اقدام الجميع وقد احسوا بلفح قائظ يشوى وجوههم ويكتم أنفاسهم ، بينما ترددت صرخات الساحر ترجعها الاصداء فى المستنقع الآسن . . و احس الساحر بالوجوم يخيم وسط الجمع المحتشد حوله . . فسكت لحظات وشواربه الرفيعة الداكنة تتحرك فى سرعة ، وعيناه اللامعتان تطلان فى كل وجه . . وفى صوت هادئ مهدد واضح النبرات أخذ يهمس فى فحيح مخيف :

ـ ألم تقولوا أن كل شروطى مجابة ؟ . . الم تقسموا على هذا ؟ . . ألم تأتوا إلى هنا صاغرين . . ؟!

وتحرك قرناه فى عصبية ، وهو يلتقط أنفاسه فى صعوبة ، وعاد يقول فى

نفس الصوت الذى يشبه الفحيح :

ـ ليس لكم من مهرب . . لقد احيط بكم . . من شاء أن ينجو فليركع هنا أمامى ، ومن لا يريد أن يتمتع بحمايتى فليذهب من أمامى . . فليعد إلى الجحيم هناك فى الجزيره أن كان يستطيع أن يجد له مكانا . . !

وتردد الجمع لحظات ، ثم اندفعوا يفرون بكل قوة . . كانوا يندفعون فى عنف وأقدامهم تتعثر فى الحشائش النامية والاحجار المتناثرة ، ويسقط بعضهم فلا يجد من يقيل عثرته ، وتشج رءوس بعضهم فى تعثرهم فى الاغصان الطويلة الممتدة من الاشجار وتتفجر دماؤهم تسيل بغزارة وهم لا يحسون . . فقط يجرون بكل ما فى أجسادهم من قوة ، وبكل ما فى أرواحهم من اصرار . . وضحكات شيطانية مرعبة فى صوت رفيع حاد ، صرير يؤلم النفس وينهش القلب نهشا ، تتعقب خطواتهم ، وتدفعهم فى جريهم دفعا ، وتغلق منافذ الهرب أمامهم فيتعثرون ويدمون . .

ولكنهم يجرون ويجرون . . وحين وصلوا إلى الجزيرة قصد كل منهم إلى بيته ليجد بابه مغلقا وقد احتلته عائلة ضخمة من الصراصير تصرخ بأعلى اصواتها فى صرير يصم الآذان . . وحين توجهت الحيوانات إلى أوكارها لم تستطع دخولها ، فقد غطت منافذها تماما ستائر كثيفة من خيوط العنكبوت المتشابكة المتداخلة . . ووسط الجزيرة مضى الناس والحيوانات يتخبطون فى ذهول ورءوسهم تكاد تطحنها الاصوات الرهيبة الحادة التى تتردد من كل مكان فى الجزيرة . .

* * *

وسكت « الخيرقان » ، وظل الملك « سيف » صامتا وقد استغرقته افكاره التى انسته المكان والزمان ، وأمام عينيه يرتسم هذه المشهد الرهيب الذى حكاه « الخيرقان » . . وتنهد الملك « سيف » وهو يعود ببصره إلى

الازهار المسبحة من حوله يتأملها فى حنان وعطف . . وهمس قائلا :

ـ عالم تحكمه الهوام . . الصراصير فى المنازل ، والعناكب فى الحقول والكهوف ، والناس والحيوانات تتخبط دون أمل ودون هدف ما ابشع هذا . . ان الامر ليحتاج إلى شجاعة نادرة لاحتماله . . شجاعة فوق طاقة البشر . . !

قال « الخيرقان » بسرعة كأنما لا يريد أن تفوته عبارة الملك «سيف» :

ـ لقد اصبت كبد الحقيقة يا مولاى . . كان الامر يحتاج إلى شجاعة فوق طاقة البشر . وقد حدث أنه حينما فر الجمع المذعور من أمام الساحر، أن عاد الساحر ببصره وقد تملكه يأس مخيف ، ولكنه رأى على الأرض قلة من رجال ونساء ، ومجموعة ضئيلة من الحيوانات تركع فى المستنقع الخالى الا منه ومن الصراصير والعناكب . .

فقاطع الملك «سيف» المارد «الخيرقان» وهو يقول وفى صوته تحفز:

ـ هؤلاء هم من خانتهم شجاعتهم . . !

فابتسم « الخيرقان » ابتسامة فيها مرارة وهو يقول :

ـ كان هذا أول الغيث يا مولاى . . !

فصاح الملك « سيف » فى حدة :

ـ تعنى أنه كان هناك آخرون . .

قال المارد وابتسامته المريرة تزداد اتساعا :

ـ أنت لا تريد أن تصبر علىَّ يا مولاى . . هلا امهلتنى لأحكى لك الحكاية بالترتيب . .

قال الملك « سيف » :

ـ حسنا . . لقد نظر الساحر العجوز فرأى حثالات الناس والحيوانات راكعين تحت قدميه . . ثم . .

قال « الخيرقان » :

ـ لقد عاد الامل إلى الساحر . . عاد عارما قويا جبارا . . وأحس أنه انتصر ، والتفت إلى الراكعين تحت قدميه وهو يقول :

ـ أنتم أعقل أهل هذه الجزيرة وأكثرهم فهما . . بيوتكم لكم لن يشارككم فيها شيء ، سأمنع عنكم الصراصير والعناكب ، كل خيرات الجزيرة لكم . . وأنتم وحدكم من سيسمح لهم بالغناء ، فقط أنتم تعرفون لمن سيكون الغناء والانشاد . . أنه لى أنا . .

وارتفعت الاصوات هزيلة مترددة وجله ، وأصحابها لا يرفعون اعينهم عن الماء الآسن الذى يركعون وسطه :

ـ سبحانك أنت . . سبحانك أنت . .

وكان صوتهم شاذا غريبا . . كان حادا ، اشبه الاصوات بصوته هو . .

وعاد الساحر يصيح :

أعلى . . أريد أن اسمع أصواتكم أكثر ارتفاعا من هذا

وعادوا يصيحون فى قوة أكثر :

ـ سبحانك أنت . . سبحانك أنت . .

وفى هذه المرة كانت تشاركهم أصوات رفيعة غريبة تنبعث من كل مكان فى المستنقع ، وحين التفت الناس حولهم وجدوا آلاف الصراصير والعناكب وكلها تهتز كما يهتز الساحر ، وتهتف معهم نفس الهتاف فى صرير حاد رفيع . . وعاد الساحر يصيح :

ـ أعلى . . أعلى . .

وعادوا يصيحون وأجسادهم تهتز على نغمات أصواتهم ومع ايقاع حركة الهوام حولهم :

ـ سبحانك أنت . . سبحانك أنت . .

وصاح الساحر العجوز فجأة صارخا :

ـ اسكتوا . .

وساد السكون العميق المستنقع كله ، وأخذ الساحر يتلفت حوله بعينيه الخبيثتين الماكرتين ، ثم قال فى صوت كالهمس :

ـ لتعودوا الآن إلى الجزيرة ولا تكفوا لحظة عن التسبيح باسمى ، وستنعمون تحت حمايتى بكل خير . . فمن الآن لن تخشوا شيئا . . فقط أريد أن أحس أنكم لا تنكرون الجميل ولا تتنكرون للعهد . . أريد أن أعرف من الذى يحرض على الناس والحيوانات ، من الذى يمنعهم عن التسبيح لى ، لأزيحه عن طريقى ، لأريكم قوتى وجبروتى ، ولأعلم الآخرين من هو صاحب الامر فى هذه الجزيرة !

ودار بعينيه فيهم دورات سريعة ، ثم عاد يصيح بصوته الرفيع الحاد :

ـ أفهمتم . . ؟ اركعوا . .

وعاد الجمع كله يركع أمام الساحر العجوز ، وهم يلصقون جباههم بالأرض تحت أقدامه . . وانطلق يضحك ولحيته المغبرة تهتز ، والقرنان الغريبتان عند رأسه تتراقصان فى الهواء . . ثم صاح :

ـ والآن اذهبوا إلى منازلكم وجحوركم وكهوفكم فقد منحتها لكم . .

وحين انطلق الناس يهرولون ، وحين اندفعت الحيوانات تجرى ، كانت نفوسهم خاوية ، وقلوبهم يحتلها الفراغ ، وعيونهم لا ترتفع عن الأرض الموحلة ، أرض المستنقع الآسن . .

وصمت المارد « الخيرقان » . . ثم رفع عينيه إلى وجه الملك « سيف » الشاحب وقال :

ـ هل ضايقتك الحكاية يا مولاى إلى هذا الحد . . ؟

قال الملك « سيف » :

ـ أنى أحس بحزن غريب يفترس قلبى ، وبشىء كالجبل يرزح فوق صدرى . . ومع هذا فلتكمل لى الحكاية . .

فقال « الخيرقان » :

ـ ان موعد غذائك قد حل ، وأرى أن تأكل أولا ثم نواصل الحكاية . .

فقال الملك « سيف » :

ـ ليست بى أية رغبة لأى طعام . . . . ان حديث هذه الجزيرة لم يبق فى رغبة لأى شىء . .

فقال « الخيرقان » :

ـ لو أذنت لى يا مولاى فسأغيب عنك لحظات أعود لك بعدها بالطعام . .

فقال الملك « سيف » :

ـ بل سأحضر أنا الطعام ، واحك أنت باقى القصة . .

وأخرج الملك « سيف » القدح ، ووضع فوقه الفوطة ، ثم قال :

ـ خبز وثمرات . .

وحين رفع الفوطة ، كان الخبز أمامه ومعه ثمرات ناضجة . . فشرع يأكل فى صمت ، بينما عاد « الخيرقان » إلى حديثه قائلا :

ـ من يومها وأصبحت الحياة فى الجزيرة جحيما رهيبا . . فيكفى أن يطمع أحد هؤلاء الزاحفين الذين شهدتهم المستنقعات يركعون تحت قدمى الساحر فى منزل أو حقل حتى يشى بصاحبه إلى الساحر . . وسرعان ما يختلى الساحر بنفسه فى بيت رصده ، ثم يخرج بدمية صغيرة يزرعها فى الأرض فاذ بصاحب المنزل أو الحقل قد تحول إلى شجرة صغيرة ملتصقة بالأرض لا تستطيع حراكا . . ولم يمض وقت طويل حتى غدا كل أهل الجزيرة من حيوانات وأناس ممن رفضوا التسبيح للساحر العجوز نباتات

ثابتة فى الأرض كهذه النباتات التى نراهافى كل مكان . . ولكن أصواتهم لم تسكت لحظة عن تسبيح الله وحمده ، فلم يكونوا سوى الاصرار ، فمضوا جميعا يرددون بأصوات حزينة :

ـ سبحانك الخلاق . . سبحانك الخلاق . .

بينما أخذت الجزيرة تعيش فى فوضى كاملة ، تحكمها العناكب والصراصير ، ويعيش بينهم رجال أشبه بهم ، وحيوانات تزحف بدلا أن تسير على أربع . . وسرعان ما ذهبت الصراصير والعناكب إلى الساحر العجوز تشكو هؤلاء الدخلاء الذين تخلوا عن قومهم ليشتروا حياتهم ووجودهم ، وقال الصرصار :

ـ ان أصواتهم لا تقل قبحا عن أصوات هذه الازهار المنكودة التى ما تزال رغم نكبتها تجحد فضلك وتنكر قوتك . .

واطرق الساحر العجوز برأسه التى اختفت منها كل المعالم التى تربطها بالرأس الإنسانية وغدت أشبه برأس الصرصار ، ثم قال :

ـ سأخرس ألسنة هذه الازهار الملعونة . .

ثم انفلت إلى كهفه تاركا الصراصير تنظر إلى بعضها فى عجز ، وقال الصرصار مخاطبا الجمع المحتشد حوله :

ـ أنه لم يفهم شكوانا ، وكل ما يهمه هو الازهار التى لا تسبح له . . فننصرف الآن ونعود له مرة أخرى فيما بعد . .

وحين عاد الصراصير إلى الجزيرة لم يكونوا يسمعون فيها صوتا واحدا يسبح الخالق ، فقد خرجت ألسنة الزهور جميعا وفقدوا القدرة على النطق . . بينما كان الناس من حلفائهم الطائعين يرقصون فى فرح ، وهم يصيحون فى أصوات رفيعة حادة ، وقرون الاستشعار التى بدأت تظهر على رءوسهم تهتز فى عنف :

ـ سبحانك أنت . . سبحانك أنت . . أيها الساحر العظيم . .

ولكنهم حين شاهدوا جمع الصراصير العائد إلى الجزيرة كفوا عن الرقص وقد علاهم الوجوم . . ووسط هذاالسكون الشامل الذى ساد الجزيرة كانت هناك عيون تلمع ، تنظر فى اتهام ، وفى لوم . . وهى ترفع أهدابها فى كل حين إلى السماء كأنها ما تزال تنطق بدون صوت :

ـ سبحان الخلاق . . سبحان الخلاق . .

والتفت أشباه الناس حولهم فى قلق ، ثم اندفعوا يجرون نحو المستنقع . وهم يرددون التسبيح للساحر العجوز . . ونبهت الضجة الساحر فخرج من كهفه يطل عليهم . . وما كادوا يرونه حتى خروا إلى الأرض ساجدين . . واهتزت شوارب الساحر العجوز فى افتتان بنفسه وقوته ، وصاح بهم :

ـ ماذا تريدون . . ؟!

وصاحوا قائلين :

ـ أن هذه الصراصير الملعونة لا تقل اجراما عن الازهار التى ما تزال تحدق بعيونها فينا تمنعنا من النوم ، ثم ترفعها إلى السماء فى ابتهال صامت أكثر تحديا لقدرتك من أصواتهم المنكرة . .

وسكت الساحر لحظة ثم قال فى صوته الرفيع الحاد :

ـ الازهار الملعونة . . أنها لن تنظر بعد الآن ، سأحرمها عيونها التى تبتهل ، كما حرمتها ألسنتها التى تغنى . . !

ثم هرول إلى داخل كهفه تاركا أشباه الناس وأشباه الحيوانات ينظرون إلى بعضهم فى قلق وهم يقولون :

ـ أنه لم يفهمنا ، أننا نشكو من الصراصير فيتحدث عن الازهار . .

وهمس أحدهم :

ـ حذار لعله يسمع . .

فركعوا جميعا فى الأرض ، وهم يقولون :

ـ هو الاعلم ، هو الاقدر ، لعله ينصفنا من الصراصير والعناكب فى مرة أخرى . .

ثم بدءوا ينسحبون واحدا أثر الآخر فى صمت واستسلام وحين وصلوا إلى الجزيرة كانت الصراصير والعناكب ترقص فى انتصار وهى تطوف حول الازهار وتتسلقها فى نشوة وأصواتها الرفيعة تصم الآذان . .

وكانت الازهار تقف مستسلمة صاغرة وقد غدت عيونها بيضاء ولا ترى ، وألسنتها خرساء لا تنطق ، وأجسادهم مقيدة لا تتحرك . .

ووجموا جميعا وجعلوا يتبادلون النظرات فى يأس ومرارة . . ألمثل هذا ذهبوا لكى يقابلوا الساحر العجوز ؟ . . أهذه هى النهاية لكل من كانوا يعيشون معهم ويأكلون معهم ، لكل من ترنموا بالصوت الشادى الجميل ، لكل من زرعوا الحب والحنان والسلام . . ؟

وحين شاهدتهم الصراصير والعناكب توقفت عن رقصها الصاخب ، وأخذت تتجمع فى سرعة حولهم ، ثم راحت كلها تصيح وهى تضرب وجوههم وأجسادهم وأعناقهم بأيديهم اللزجة وشواربها الرفيعة السوداء :

ـ الدور عليكم يا أشباه الآدميين . . سنحيلكم إلى أحجار . . إلى صخور ، إلى تراب . . الجزيرة لنا ، لنا وحدنا . .

وفجأة انفجر كل شىء دون سابق تأهب فانقض الناس الذين باعوا أنفسهم للساحر ، وانقضت الحيوانات التى عفرت جباهها أمام أقدامه . . انقضوا جميعا وكأنها كانوا على موعد محدد نتيجة خطة مبيتة على الصراصير والعناكب ، يمزقونها بأيديهم ، يركلونها بأقدامهم ، يسحقونها بأجسادهم . . وهم يصيحون فى وحشية :

ـ لقد خاننا الساحر . . لقد خاننا الساحر . .

وفوجئت العناكب والصراصير بهذا الهجوم المفاجئ ، فوقفت حيرى صامتة ذاهلة وهى تتقبل الضربات والصفعات والركلات . . ثم اندفعت فجأة فى غضب تقاتل فى وحشية واصرار ، تعض وتخمش وتمسك بكل ما فيها من قوة ، وتتجمع باعدادها الهائلة لتشل المهاجمين عن الحركة وتعجزهم عن الرؤية وتمنعهم من التنفس . .

وهى تصرخ فى غضب مذعور :

ـ لقد خاننا الساحر . . لقد خاننا الساحر . .

ولم يكن الساحر يدرى من الامر شيئا . . كان فى كهفه البعيد وسط المستنقع ، وكلما تناهت اليه الأصوات الغاضبة لم يسمع منها سوى كلمة «الساحر » وهى تتردد على ألسنة العناكب والصراصير مرة ، وعلى ألسنة أنصاف الآدميين والحيوانات مرة أخرى ، فيفرك كفيه فى ارتياح وسرور ، وهو يهمس لنفسه فى سعادة :

ـ كلهم يسبحون باسمى ، اسمى أنا وحدى . . أناالقادر . . أنا القوى . . أنا الساحر . .

ثم ينطلق فى ضحكة حادة صاخبة تحجب عن أذنيه كل صوت الا ما تهمس به شفتاه هو فى اصرار وافتتان :

ـ الساحر . . الساحر . .

واستمرت المعركة الرهيبة دائرة طوال النهار . . وحين أسدل الليل أستاره فوق الجزيرة الدامية انفصل الفريقان الملتحمان ، وكل منهما يتأهب للمعركة الفاصلة فى الغد مع طلوع أول أشعة الشمس الجديدة . . أما الصراصير والعناكب فقد اجتمع رأيهم فى الليل على أن ينفثوا سمومهم فى الماء الجارى فى الجزيرة ، فاذا ما اصبح الصباح وأقبل أشباه الناس وأشباه الحيوانات على الماء ليشربوا منه سرى السم فى أجسادهم . . وسرعان ما يقضى عليهم قبل أن تتوسط الشمس السماء . .

وأما الفريق الآخر فقد اجتمع رأيهم على أن يظلوا ساهرين ، فاذا ما أوت الصراصير والعناكب إلى شقوقها سدوا هذه الشقوق بنبات سام يقضى عليها جميعا قبل طلوع الشمس ويترك لهم الجزيرة وحدهم . . !

ولكن اتفاقين آخرين كانا قد تما بمعزل عن الفريقين المتنازعين المتحاربين . . ذلك أن فريقا من الصراصير يتزعمه ذلك الصرصار الذى كان أول من خاطب الساحر العجوز فى المستنقع ، وفريقا من العناكب يتزعمه ذلك العنكبوت الضخم الوقور الذى أعلن تضامن العناكب مع الصراصير ، قررا أن يتسللوا جميعا أثناء الليل للقضاء على الساحر العجوز الذى خانهم وأسلم الجزيرة لانصاف الآدميين وأنصاف الحيوانات الذين خانوا بنى جنسهم وعبدوه . .

وكذلك اتفق نفر من الفريق الآخر على التسلل قبيل الفجر إلى كهف الساحر العجوز حيث ينتهزون فرصة نومه العميق فى هذه الفترة لبناء حاجز ضخم من الحجارة فوق باب الكهف ، بحيث يتعذر على الساحر الخائن الذى أسلم رقابهم للصراصير والعناكب ، وقضى على اخوانهم من الآدميين والحيوانات ، فيموت وحيدا فى الكهف المظلم من الجوع والعطش وفساد الهواء . . !

وما أن حل الظلام على الجزيرة حتى زحفت العناكب والصراصير إلى منابع الماء الموجودة فى الجزيرة كلها ، وهناك أخذت تنفث سمومها فوجا وراء فوج . . ثم أخذت مجاميع الصراصير والعناكب تجرجر قتلاها التى سقطت فى معركة النهار وتقذف بها إلى الأنهار والعيون حتى كادت تسدها لكثرة عددها وكبر حجمها . . ثم انفلتت الصراصير والعناكب مجهدة متعبة تأوى إلى جحورها وشقوقها . .

وما كاد آخر صرصار وآخر عنكبوت يختفى من فوق أرض الجزيرة

حتى هرع أنصاف الناس وأنصاف الحيوانات يجمعون أعدادا ضخمة من النبات السام يسدون به كل منافذ الشقوق والجحور ، وقبل الفجر بلحظات انتهوا من عملهم فعادوا إلى المنازل يأوون اليها وقد هدهم التعب واضناهم الجهد . .

وفوجئ الساحر وسط أحلامه الناعمة بالمجد والسيطرة بخيوط دقيقة تلتف حول قدميه ، وحول ساعديه ، وحول رقبته وتضغط . . وهب واقفا يزيح عن عينيه ثقلا بغيضا لزجا يحاول أن يطبقها بنسيج رقيق ناعم الملمس ، واندفع نحو باب الكهف يحاول ازاحته للخروج من ظلام الكهف المخيم . . ولكن الباب استعصى على دفعاته القوية التى أخذت تشتد وتشتد حتى أقعده الجهد وهده التعب ، فبدأ يصرخ فى عنف وهو يضرب باب الكهف المسدود بقبضتيه وقد اختلط فى لحيته الدم الذى أخذ يتكون فى عزم واصرار طبقة وراء طبقة ومجموعة وراء مجموعة . . وجلس إلى الأرض يائسا وقد تحول صراخه إلى عويل ، وأحس بمئات الحشرات تزحف نحوه من كل جانب وبآلاف الخيوط تحيط به ، وتشل حركته ، وتدور حول رقبته ، وصرخاته المذعورة لا تكاد تبين . .

* * *

وعند الصباح لم تظهر للعناكب والصراصير أية آثار ، فقد فعل النبات السام فيهافعله القاتل المدمر . . وانتشى أشباه الناس وأشباه الحيوانات بنصرهم ، فأقبلوا على الطعام بشهية ثم اندفعوا يعبون من الماء عبا . . وما توسطت الشمس كبد السماء حتى كانوا يلهثون جميعا لصق الأرض ، وقد تمكن السم من أجسادهم . . وعند المساء الحزين كان الشيء الوحيد الذى مازال يحيا هو هذه النباتات العمياء الخرساء التى تهتز مع النسيم فى ابتهال صامت حزين . .

قال الملك « سيف » :

ـ ولكنها الآن تتكلم ؟ . .

قال الخيرقان :

ـ نعم أيها الملك ، مع مرور الزمن بدأت هذه الازهار تنمو وبدأت عيونها البيضاء تدب فيها نقاط سوداء ، كما بدأت أصواتها تعودمبهمة غامضة . . ولكنها عادت فى هذه التسبيحة الخرساء . . واق الواق . . وهو ما استطاعت أن تنطقه من جملتها القديمة ـ سبحان الخلاق . . سبحان الخلاق . .

فقال الملك « سيف » وهو يطرق برأسه إلى الأرض :

ـ أجل أيها المارد . سبحان الخلاق . . سبحان الخلاق . . .

واستمر المارد يقول :

ـ وحين يتم نضج عيونها لترى ، وألسنتها لتنطق ، ستعود إلى هيئتها الأولى اناسا يعمرون الأرض . .

وهمس الملك « سيف » :

ـ يعمرونها بالحب الصامد القوى الذى يدفع ثمن البقاء والخلود ، ثم الصمود الذى يهزم كل بطش . .

قال « الخيرقان » :

ـ أوشك الليل أيها الملك أن يحل بالجزيرة ، وما زالت رحلتنا طويلة وشاقة . . فهيا بنا لنصل إلى بغيتنا عند طلوع النهار . .

ـ ٩ ـ

كان الظلام حالكا كثيفا ، والملك « سيف » يقطع الفضاء فوق ظهر «الخيرقان » الذى أخذ يشق به السماء فى سرعة مذهلة . . وبين الحين والحين تلمع أمام الملك « سيف » نجيمات براقة تبدو شديدة البياض واضحة المعالم . . وبدأ الخدر يدب فى جسده وهو يريح رأسه فوق راحتيه المعقودتين خلف ظهره حين أحس بوهج يتصاعد من تحته كالنار ، وحين فتح عينيه ـ وقد غادرته كل رغبة فى النوم ـ رأى تحته منظرا رهيبا جعله يجلس فوق ظهر « الخيرقان » فى توفز واضطراب . . كانت الأرض تحته كرة من النيران المشتعلة تتصاعد منها شرارات ملتهبة كأنها سهام تقذف بها الكرة نحو السماء . . وأحس « الخيرقان » بحركة الملك « سيف » فقال له وهو مستمر فى طيرانه السريع :

ـ لا تجزع أيها الملك فهذه هى الجزيرة السابعة واسمها جزيرة الزمهرير. . !

فقال الملك « سيف » فى جزع واستنكار :

ـ وهل تنوى أن تنزل بى اليها . . ؟ . .

فقال « الخيرقان » وهو يضحك :

ـ كلا أيها الملك . . ان هذه الجزيرة لا يستطيع أحد أن يدخل فيها سواء كان انسيا أم جنيا . . كما أن من فيها لا يستطيعون الخروج منها أبدا . . !

فعاد الملك « سيف » يسأل :

ـ أفيها سكان ؟ . . أهناك من يعيشون داخل هذه الكرة الملتهبة الرهيبة؟

قال « الخيرقان » :

ـ ان من فيها من الكفار الذين يعبدون النار ، وقد أقاموا بالارصاد والسحر هذه النيران العظيمة حول جزيرتهم تحرق كل من يقترب منها أو يحاول أن يدخلها ، وكذلك تلتهم كل من يتمرد على الحياة داخل الجزيرة ويحاول الهرب منها . . !

فقال الملك « سيف » والجزيرة تبتعد من تحته تدريجيا ، ووهج حرارتها يخف تأثيره عليه :

ـ لا أحد يدخل ولا أحد يخرج . . اذن فلا أحد يعرف ما فيها . . !

فقال « الخيرقان » وفى صوته رنة جزع :

ـ أو تريد أن تعرف ما بداخلها ؟ . . أن أحدا حتى اليوم لا يعرف عنها شيئا ، وان أردت أن تحترق فهذا شأنك . . أننى أستطيع أن أعود بك فوق الجزيرة تماما وأقذف بك اليها . .

أما أنا . .

فقاطعه الملك « سيف » ضاحكا وهو يقول :

ـ كفى أيها الملك « الخيرقان » . . لا أحد يريد أن يحترق ، لا أنا ولا أنت ، وانما أنا أسأل فقط . . !

فقال الخيرقان » وهو يتنهد فى ارتياح :

ـ أنا لا أخشى من شىء أيها الملك قدر خشيتى من أسئلتك . .

وصمت الملك « سيف » وهو يتأمل الكرة الملتهبة تحته وهى تصغر وتصغر ، وتختفى تدريجيا ثم قال :

ـ أهذه اذن جزيرة الزمهرير . . ؟!
قال « الخيرقان » : :
ـ وهى آخر الجزر يا مولاى . . وليس بعدها سوى جزيرة البنات ، وسنصلها عند الصباح . . فنم الآن وخذ قسطك من الراحة لان أمامك فيها من المشقات ما يحتاج إلى كل انتباهك ويقظتك . .

وعاد الملك « سيف » إلى رقدته المسترخية ، وقد عقد يديه خلف رأسه وعيناه تتبعان النجوم المتلألئة ، وذهنه يستعرض الصور العجيبة التى مرت به فى الجزر التى زارها . . ورق الهواء وشف ، وقل لمعان النجوم ، وغشى الكون سحاب رقيق من غيم . . ثم راح الملك « سيف » فى سبات عميق . .

* * *

عندما استيقظ الملك « سيف » أحس أنه فوق أرض ثابتة . . فهب من نومه واقفا وهو يتلفت حوله فى دهشة . . ولكنه لم يستطع أن يرى شيئا فقد كان الظلام ما يزال مخيما على الأرض ، ولكنه استطاع أن يميز شبح «الخيرقان » الضخم يقف إلى جواره ، فقال له وهو يتمالك نفسه :
ـ اذن فقد وصلنا أيها المارد . .
قال « الخيرقان »
ـ هذه بغيتك أيها الملك ، ولم يبق على طلوع الصباح سوى ساعات قليلة . . واذا ما سرت إلى الامام منذ الآن فلسوف تصل إلى النهر الفاصل بين مدينة البنات ومدينة الرجال مع أشعة الشمس الباكرة . .
فالتفت الملك « سيف » إليه مجفلا ، وقال :
ـ اذا سرت ، تعنى أنك لن تصحبنى . .
قال « الخيرقان »

ـ هذه آخر رحلتى أيها الملك ، ولست استطيع أن أتجاوز هذا المكان . . فلكل أرض ناسها وحراسها ، وكما لم تستطع « عاقصة » وكذلك « عيروض » أن يصحباك فى الرحلة عبر جزر واق الواق ، فكذلك لست أستطيع أن أخطو فى هذه الأرض خطوة واحدة . . فأستودعك الله داعيا لك بالسلامة والتوفيق ، وسأظل أيها الملك هنا فى انتظارك بعد انتهاء مهمتك وعودتك غانما منها . .

ثم صمت « الخيرقان » لحظة ، وقال وهو يمد يديه بحمل ملفوف :

ـ وهذه ذخائرك أيها الملك . . الاكرة والصولجان والبدلة التى لابد أن تلبسها لانها ستعينك على انجاز مهمتك . . وهذا أيها الملك قدحك ليسد حاجتك إلى الطعام ، والزمردة تغنيك عن الماء وتحجب عنك العطش . .

وظل الملك « سيف » صامتا ينظر إلى « الخيرقان » لحظات ، ثم مد يده وهو يتنهد يصافح المارد ويقول :

ـ أيها الصديق لقد كنت لى نعم الرفيق ، ولن أنسى ما حييت اللحظات التى قضيناها سويا فى مواجهة الاخطار المجهولة والمعلومة معا . .

ثم تناول الملك « سيف » ذخائره من « الخيرقان » وانحنى المارد فى أدب وهو يقول :

ـ أستودعك الله يا مولاى . . انى فى انتظارعودتك هنا . .

ثم اختفى من أمام الملك « سيف » . . وظل الملك ينظر حيث كان يقف ، وقد شردت نظراته . . فهى لا تقع على شىء ولا تنظر إلى شىء . . وفى صعوبة شديدة استجمع الملك « سيف » نفسه الشاردة ، ومضى يخلع ملابسه فى بطء ويرتدى الملابس النسائية الغريبة التى احتوتها اللفافة ، وأمسك فى يده بالاكرة والصولجان بينما حمل فى ملابسه القدح

والزمردة . . وعندما بدأت أشعة الفجر الأولى ، مضى على هديها يسير إلى أمام فى صحراء ممتدة عارية من كل صخر أو حجر . .

ولم يكن الملك « سيف » يحس بالطريق ، فقد كان غارقا فى أفكاره يستعرض فى رأسه ما مر به من أهوال فى بحثه عن ابنه وزوجته «منية النفوس » وهو طورا يتخيل صورة ابنه « مصر » وهو يبتسم فى وجهه ابتسامته الملائكية العذبة ـ فتنفرج شفتاه عن بسمة حانية دون أن يحس ، وهو طورا يرى أمامه وجه زوجته الحبيبة « منية النفوس » وأسى غريب يطل من عينيها ، ودعوة ملحة عند شفتيها أن يسرع اليها . . ودون أن يحس أيضا تندفع قدماه مسرعة فى الطريق ومعالم الجد والاهتمام تعود إلى وجهه . .

وفجأة رأى أمامه ربوة عالية كأنها انشقت عنها الأرض ، ومضى يتسلقها فى سرعة ونشاط . . وعندما وصل إلى قمتها وقف مبهورا أمام عظمة المنظر الذى طالعه وروعته . .

كانت الاشعة الوليدة للشمس لا تكاد تبدد الظلام تماما . . وفى غبشة الصباح الهادئ امتد تحت قدميه نهر رائق الماء ساكن لا تعكر صفو سطحه موجة . . وعن يمين النهر مرج أخضر العشب كثير الاشجار ينتهى بأسوار مدينة كبيرة يلفها النوم والسكون . . وعن يسار النهر يمتد مرج آخر شديد الشبه بالمرج الاخر تتناثر فيه الاشجار التى تنتهى أيضا بسور مدينة كبيرة لا تصدر عنها حركة ولا يند عنها صوت . .

ولم تطل وقفة الملك « سيف » فاتجه إلى اليمين ، وأخذ ينزل الاكمة فى سرعة وحذر ، وعيناه ترقبان أسوار المدينة البعيدة خشية أن يكتشف وجوده مخلوق قبل أن يستطيع الاختفاء عن العيون وسط الاشجار الكثيرة القريبة من النهر . . وعندما وصل إلى المرج الايمن كانت الشمس قد

استطاعت أن تهزم الظلام نهائيا ، وبدأ نور أشعتها يملأ الكون بهجة ونشاطا وحياة . .

وبينها كان الملك « سيف » يتأمل المنظر الساحر الذى طالعه فى الوادى ، تناهت إلى أذنيه أصوات عديدة تقترب تدريجيا . . فأسرع يبحث عن مكان يحميه عن الانظار ، ووسط مجموعة من الاشجار الكثيفة الاغصان اختبأ الملك وهو يبتهل أن لا ينكشف أمر تخبئه البسيط الذى اضطر إلى اللجوء اليه . .

وازدادت الاصوات اقترابا فمد الملك « سيف » رأسه فى حذر ، وهناك عند حافةالنهر كانت مجموعة من الفتيات يلبسن جميعا أردية متشابهات ويسرن فى سرعة ومرح . . وما لبثت الفتيات أن توقفن ، ثم بدأن يلعبن ويتضاحكن ويتواثبن فى بهجة وسعادة . . وتأمل الملك « سيف » أرديتهن ثم تأمل الرداء الذى يرتديه ، وسرعان ما أدرك أن ثوبه لايشبه أثوابهن على الاطلاق . .

وأحس الملك « سيف » بخيبة أمل كبيرة سرعان ما تركت مكانها فى نفسه الاحساس بالدهشة ، اذ عاد يطرق سمعه من جديد صوت وقع أقدام كثيرة ولغط شبيه بما سمعه أول الامر . . وبعد لحظات انفرجت الاشجار عن مجموعة جديدة من الفتيات تماثل فى العددالمجموعة الأولى وتتجه مثلها إلى حافة النهر . .

وما أن وصلت الفتيات إلى حافة النهر حتى بدأن يلعبن ويتضاحكن فى سرح وسرور كما فعلت المجموعة الأولى تماما . . وعاد الملك « سيف » يقارن بين ملابسه وملابسهن ، فاذا بها مختلفة أيضا . . فلا هى شبيهة بردائه ، ولا هى شبيهة بأردية المجموعة الأولى من الفتيات . . فتنهد الملك « سيف » فى ضيق ، وأخذ يرقب المجموعة الثالثة من الفتيات

اللاتى أخذن يتقدمن إلى حافة النهر ، ولكن ملابسهن أيضا كانت لا تشبه رداءه . .

وتعاقبت مجموعات الفتيات اللاتى يقبلن من المدينة إلى حافة النهر ، مجموعة أثر مجموعة . . ولكل مجموعة زيها الخاص بها ، ولكل مجموعة طريقتها الخاصة فى اللعب والتسلية ، وبدأ الملك « سيف » يحس بالخوف يتسرب إلى أعماقه فان الفتيات فى تقدمهن التدريجى عند حافة النهر أصبحن قريبات من المكان الذى اختفى فيه . . وأخذ الملك « سيف » يدور بعينيه فى المكان من حوله بحثا عن مخبأ أكثر أمنا وأشد سلامة ، ولكن الوقت كان قد فات فقد أصبح ضوء النهار ينير المرج كله، ولو حاول أن يخرج من مكمنه للمحته العيون العديدة المنتشرة عند حافة النهر، ولاكتشفت صاحباتها أمره بكل تأكيد . . ولكن لو لبث فى مكانه لتعرض أيضا لخطر الاكتشاف المؤكد بعد حين ، سواء طال أو قصر ، ولكنه آت لا ريب فيه . .

وحين عاد الملك » سيف » ببصره مرة أخرى إلى حافة النهر أوشك قلبه أن يكف عن الخفقان ، فأمامه تماما وعلى مسيرة مسافة صغيرة جدا من حيث يختبئ توقفت مجموعة كبيرة من الفتيات ، وأخذن ينتشرن فى نظام بامتداد حافة النهر . . وكان الملك « سيف » يستطيع أن يرى وجوههن البضة المليئة بالحيوية والشباب ، كما كان يستطيع أن يسمع حديثهن المرح الذى يصله واضحا جليا . . لو نظرت أحداهن ناحيته لما تعذر عليها أن تدرك أن هذه الاغصان المتشابكة تخفى جسما بشريا . . ولو بدأن يلعبن ويجرين كما تفعل المجموعات الأخرى فلابد أن يحسن خلال هذه الاشجار التى يختفى خلفها . .

ورغم نسمات الصباح الندية ، أحس الملك « سيف » بالعرق يتصبب

من جبينه ورقبته . . وحين رفع يده يجفف العرق اصطدمت عيناه بأكمام ثوبه ، وأسرع يتأمل الثوب الذى يرتديه كأنه يراه لأول مرة . . وعاد ببصره إلى حافة النهر القريبة ، وكان ما جال بفكره صحيحا . . لقد كانت الفتيات القريبات منه يرتدين ملابس تشبه رداءه تماما . . وبعين قلقة عاد يتأمل كل جزء من ملابسه ويقارن بينه وبين أرديه الفتيات . . لقد كان الشبه تاما فى كل شىء . .

وجفف الملك « سيف » عرقه وهو يحاول أن يحبس ذلك القلق الغامض الذى بدأ يسيطر عليه . . وحين عاد بنظره إلى الفتيات مرة أخرى لاحظ أن بيد كل واحدة منهن اكرة وصولجان تشبه تماما الاكرة والصولجان الذين يحملهما بين يديه . .

- ١٠ -

افاق الملك « سيف » من ذهوله على صوت آمر يرتفع وسط الضجة فيسود السكون مرة واحدة كل حافة النهر . . واستطاع أن يتبين نبرات الصوت تصله واضحة جلية ، وكان فى الصوت ـ رغم لهجة الامر التى تتضح فيه ـ نغمات عذبة رقيقة ، مليئة بالانوثة الناضجة المتفتحة . . وأطل الملك « سيف » برأسه من بين فرجة الاغصان الكثيفة فشاهد البنات جميعا وقد اصطففن فى صفين طويلين وبين كل مجموعة وأخرى مسافة فاصلة لا يشغلها أحد . . كما وقفت أمام كل مجموعة واحدة منهن تتطلع إلى صاحبة الصوت الآمر التى كانت تقف فى الوسط تماما . .

وتذكر الملك « سيف » جنوده وهم يقفون هكذا كل صباح لبدء عرض الصباح العسكرى ، وسأل نفسه : هل هؤلاء الفتيات جنود ؟ ولكن واحدة منهن لم تكن تحمل فى يدها سلاحا . . ومع هذا فقد كانت وقفتهن المشدودة وقفة جنود مدربين ، كما كان نظامهن المكتمل نظام جنود متمرسين . . وانتهت صاحبة الصوت الآمر من حديثها الطويل، فارتفع هدير يمزق صمت المكان من كل الفتيات المصطفات وهن يرددن معا :

ـ عاشت الملكة . . عاشت الملكة . .

وعاد الملك « سيف » يدقق النظر فى تلك التى تتوسط الصفوف ، فرآها تلبس رداء مثل ردائه . . وأدرك أنها جاءت مع المجموعة الاخيرة من

الفتيات ، تلك المجموعة القريبة من مكانه . . ثم شاهدها وهى تصفق بيديها ، فاذا بنظام الصفوف يختل من جديد بينما عادت إلى الهواء أصوات الضحكات العذبة والصيحات الطروبة . . .

ومضت الفتيات يجرين ويلعبن فى مرح ونشاط من جديد . . وكان الملك « سيف » مازال مصوبا نظره ناحية صاحبة الصوت الآمر ، فاذا به يراها تتجه نحو المجموعة الاخيرة ، وسرعان ما دارت بها الفتيات وكأنها يستشرنها فى اللعبة التى سيقمن بها . . ومالبث الملك « سيف » أن رأى الدائرة الملتفة حول صاحبة الصوت الآمر تتفرج عنها وهى تمسك فى يدها صوبجانا تضرب به كرة من الذهب جعلت تجرى فوق الاعشاب المبتلة بندى الصباح فى سرعة وقوة متجهة نحوه تماما . . وخلفها كل الفتيات يتصايحن ويجرين ، وكل واحدة تمسك بيدها صوبجانا لتسبق زميلاتها فى ضرب الكرة المندفعة بسرعة نحو مكمنه . .

وأحس الملك « سيف » بأن لحظة الخطر التى كان يخشى حلولها تقترب بسرعة مع حركة الكرة الذهبية المندفعة نحوه . . وشمله الاضطراب فما عاد يدرى ماذا يفعل . . لو ظل فى مكمنه فلا شك أن الفتيات فى اندفاعهن وراء الكرة سيعثرون عليه . . وان تحرك اية حركة لأمكنهن اكتشاف مكانه دون عناء . . وازدادت الكرة اقترابا ، وازدادت ضربات قلب الملك « سيف » سرعة واضطرابا . . وفجأة وجد نفسه يندفع فى سرعة من وراء الاغصان المتشابكة ويضرب الكرة بكل قوته ثم يقف وقد توترت أعصابه أثر هذه الحركة العنيفة فى انتظار ما سيحدث . . ولكن شيئا لم يحدث ، فقد اندفعت الفتيات وراء الكرة من جديد وهن مازلن يتضاحكن فى نشوة وسرور . .

وملأ الملك « سيف » رئتيه من الهواء النقى حوله ثم زفره فى راحة . .

لقد حسبنه واحدة منهن ، ولم يشعرن بأنه غريب وانه رجل. . . فقد ساعدته الملابس التى يرتديها ـ كما ساعده اطمئنانهن الزائد إلى استحالة وصول غريب إلى أرضهن ـ وأدرك الملك « سيف » أنه إن ظل وقفا هكذا فلا بد أن يلفت إليه الأنظار ، فلم يكن أمامه إلا أن يندس وسط الفتيات تاركا أمره للظروف والقدر . . فاندفع يجرى بكل قوته حتى أدركهن ، وسرعان ما كان يسبقهن إلى الكرة ليضربها بصولجانه من جديد. . !

وعادت الكرة مرتدة ، ووراءها عادت الفتيات وقد بدأت الدماء تتصاعد إلى وجوههن . . وأخذت أنفاسهن تتقطع من الجرى العنيف بينما خفتت أصواتهن الا من صيحات احتجاج لاهثة . . وكان الملك «سيف» فى جريه بينهن يتجنب أن يصطدم باحداهن أثناء جريه ، ولهذا فقد كان يتعمد دائما أن يكون فى المقدمة . . وهكذا لفت الملك « سيف » اليه الانظار من حيث أراد أن يخفى أمره ويستر وجوده . .

وحين سمع الملك « سيف » صوت التصفيق أول مرة لم يهتم به ، ولكن صوت التصفيق فى المرة الثانية كان يحمل ايقاع الغضب ونبرة الحنق. . والتفت الملك حوله ليرى انه وحده الذى يجرى ، بينما رجعت كل الفتيات إلى الاصطفاف عند حافة النهر . . وصاحبة الصوت الآمر تقف هناك وهى تنظر إليه فى غضب وتصفق بيديها للمرة الثالثة .

وتوقف الملك « سيف » عن جريه حائرا ، ولكن حيرته لم تطل فقد وجد انه من الأسلم أن يستمر فى تمثيل دوره حتى النهاية ،وهكذا اتجه مسرعا إلى حيث وقفت الفتيات عند حافة النهر ، واندس فى الصف الاخير يأخذ له مكانا بعيدا عن عينى صاحبة الصوت الآمر التى كان

يحس أن نظراتها تكاد تخترق جسده وتنفذ إلى أعماقه لتكشف زيفه وخدعته . .

وتحولت العينان عنه ، ثم صفقت بيديها ، وتعالت من جديد صيحات الفتيات وضحكاتهن ، واحتار الملك « سيف » فى معنى هذه التصفيقة الجديدة ، ولكنه حين تلفت حوله وجد الفتيات وقد اشتبكت كل اثنتين منهما فى صراع فنى ، تتجاذبان وتتدافعان ، وكل واحدة تريد أن تنزل غريمتها إلى الأرض . . وخشى الملك « سيف » أن ظل واقفا فى مكانه أن يثير الشكوك التى احس من نظرات صاحبة الصوت الآمر أنها بدأت تتولد فى نفسها بالفعل . . وخشى كذلك أن تعارك مع احدى الفتيات أن تكشف حقيقته وتعرف تنكره . . ولم تطل حيرة الملك «سيف» هذه المرة ايضا ، ولكنه فى هذه المرة لم يكن صاحب الفضل فى انهائها اذ تقدمت منه صاحبة الصوت الآمر حتى وقفت فى مواجهته تماما ، وجعلت تحدق فى عينيه فى قوة وهى تقول :

ـ انك تتجنبين اللعب مع الفتيات . . !

وخشى الملك « سيف » أن يرد عليها فتكشف خشونة صوته حقيقة امره ، ولكن صاحبة الصوت الآمر لم تكن تنتظر منه ردا بل عادت تقول :

ـ لقد غرّتك قوتك حين رأيت انك تسبقين كل الفتيات فى الوصول إلى الكرة ، وتقذف ضرباتك بالكرة بعيدا جدا عن قدرة أية واحدة منهن . .

وعاد الملك « سيف » يلتزم الصمت مرة أخرى ، وهو يحس بالقلق من نظرات عينيها النافذة ، وبالاضطراب من نبرات صوتها التى توحى بأكثر مما تحتوى من معان . . وعادت هى تقول :

ـ اننى لا أكاد اذكر وجهك ولا اسمك رغم أننى اعرفكن جميعا تقريبا، كما اننى لا أذكر اننى لاحظت مهارتك فى اللعب قبل هذا الصباح . .

وصمتت لحظات ، ثم استدارت فجأة تسير فى هدوء وهى تقول بنفس الصوت الآمر :

ـ اتبعينى . .

ووجد الملك « سيف » نفسه يسير وراءها مسلوب الارادة ، شارد الفكر . . وقد ازداد اضطرابه وتوترت اعصابه وهو يشعر أنه يواجه لحظة خطيرة قد تحدد مصير حياته نفسها . . وظلت صاحبة الصوت الآمر تسير والملك « سيف » يسير وراءها إلى أن ابتعدا عن الفتيات وأشرفا على الاشجار الكثيفة المتقاربة . . وحين وقفت تواجهه اخر الأمر كانت الاشجار تعزلهما عن شاطئ النهر وتحجب عنهما الفتيات اللاتى كانت اصواتهن اللاهثة المضطربة المليئة بالحياة والمرح تصل إليهما من بعيد . . وقالت وهى تواجهه :

ـ والان . .

ورفع الملك « سيف » رأسه فى دهشة ، فقد عاد إلى نفسه ذلك الشعور الغريب بأن نبرات صوتها تحمل أكثر من المعانى التى تبدو من كلماتها . . ولكن عينيها كانتا تحملان نفس التعبير الصارم والنظرة النافذة الآمرة . . وقالت :

ـ هل تريدين أن تجربى قوتك معى لأثبت لك زيفك ؟

وفجأة ، تحركت نحوه ، وبحركة من حركات الصراع المتقنة رفعت الملك « سيف بن ذى يزن » الذى شلت حركته الدهشة ، وقذفت به إلى الأرض فى سرعة ، ثم اندفعت تجثم فوق صدره وهى تبتسم . .

وحار الملك « سيف » فى تعليل ابتسامتها فلم تكن ابتسامة فوز ولا ابتسامة تشفى . وانما كانت ابتسامة عبث ساخر . . وقالت :

ـ لم أكن أظن انك جاهلة بفنون الصراع كل هذا الجهل .

ثم انطلقت تضحك فى سخرية . . وبحركة سريعة من يده القوية ألقى بها الملك « سيف » أرضا وقد استفزه غضب مفاجئ ، ثم وثب واقفا وحملها من فوق الأرض فى سهولة ورفعها فوق ذراعه فى يسر ، وكاد يخبط بها الأرض فى عنف لولا أنه تذكر فجأة انها امرأة . . فملأه احساس بالخجل من نفسه ومن تصرفه الطائش الاحمق . . وأنزلها إلى الأرض فى بطء ، ووقف أمامها هادئا وقد عقد يديه فوق صدره ، وقد تأكد أنه أفسد كل شىء بعدم ضبطه لغضبه العارم ، وانفعاله الغاضب الاحمق . .

وظلت تحدق فى وجهه لحظات ، ثم انفجرت فجأة ضاحكة . . ولم يكن فى ضحكتها السخرية التى توقعها الملك « سيف » ولا الغضب أو السخط الطبيعيين بعد ما أقدم عليه الملك « سيف » . . واعتراه اضطراب شامل لم يدر معه ماذا يفعل ولا كيف يتصرف . . وقطعت ضحكتها قائلة :

ـ عبثا تحاول الاختفاء أيها الملك . . لقد عرفتك منذ اللحظة التى خرجت فيها من وراء هذه الاشجار المتشابكة التى كنت تختبئ خلفها . . ولكنى لم أكن متأكدة . . وحين رأيت ضربتك للكرة ، وشاهدت جريك وراءها ، أوشك ظنى أن يتحول إلى يقين . . . وحين تفرست فى وجهك فرأيت هذه الشامة التى طالما سمعت وصفها لم يعد يساورنى أى شك فى شخصيتك . . !

وارتج القول على الملك «سيف» ، ولكنه استعاد هدوءه بسرعة وقال :

ـ وتعرفين من أنا . . ؟

فعادت تضحكك ضحكتها الهادئة ، وهى تقول :

ـ وأعرف أيها الملك « سيف بن ذى يزن » لماذا أنت هنا فى هذه الملابس النسائية . . !

واحتارت عدة أسئلة عند شفتى الملك « سيف » . . كلها تتدافع متسابقة تريد أن تحظى بجواب سريع . . ولكنه قبل أن يتحدث سمعها تقول فى صوتها الآمر الذى سمعه منها أول مرة وهى تخاطب الفتيات :

ـ قلت لك انك لا تجيدين الدفاع عن نفسك ، انظرى . .

واندفعت نحو الملك « سيف » الذى عقدت لسانه الدهشة . . فأمسكت بذراعه فى شدة وثنته فى عنف ، ثم طوت الذراع فجأة بحركة ماهرة ألقت بالملك « سيف » إلى الأرض . . وسمع الملك ضحك فتيات من خلفه ، فنظر وراءه فاذا بمجموعة من الفتيات تقف عن قرب وهن يتغامزن عليه ويضحكن منه ، ففهم الملك « سيف » سر التغيير المفاجئ الذى طرأ عليها . . وقام من رقدته متخاذلا وهو يتشاغل بتنظيف ثوبه من الغبار الذى علق به ، وسمعها تقول :

ـ وأنتن أيتها الفتيات ماذا جاء بكن هنا ؟ . . هيا انصرفن إلى المران حتى أنتهى من هذه الفتاة الكسول التى لا تعرف الا الجرى بساقيها الطويلتين . .

وارتفع صوت ضحكات الفتيات من جديد ، ثم انطلقن جاريات حتى غبن عن أنظار الملك « سيف » . . . وعادت تقول :

ـ عفوا أيها الملك ، لقد اضطررت إلى هذا اضطراراً حتى لا ينكشف أمرك ، فان بذرة شك واحدة لو نبتت فى نفوسهن فيها القضاء عليك وعلى أنا وعلى من تحب . . هؤلاء الذين قطعت هذه المسافة الطويلة من أجلهم . . !

وقال الملك « سيف » فى لهفة :

ـ أنت تعرفين مكان « منية النفوس » ومكان « مصر » ابنى . . واقترب منها دون أن يحس ، وأمسك بذراعيها يهزها فى عنف وهو يقول :

ـ أين هما ؟ أين هما . . ؟!

وعاد صوتها يكتسب جموده وهى تقول :

ـ تمالك نفسك أيها الملك ، ان كل شىء مرهون بأوانه . . وقد صبرت حتى الآن ، وتجشمت المشاق لتصل إلى هنا ، فاصبر قليلا وسأخبرك بكل شىء . .

وأعادت كلماتها الهادئة الملك « سيف » إلى صوابه ، فترك ذراعيها وأطرق إلى الأرض وهو يقول فى صوت هامس :

ـ عفوا . . أرجوك أن تعذرينى ، فهذه الساعات التى قضيتها هنا أشق على من كل ما مر بى فى رحلتى الطويلة . لقد قتلنى القلق والخوف والاضطراب حتى اعترانى اليأس ، وجاءت كلماتك لتحيى فى أملا قد مات ففقدت قدرتى على التحكم فى نفسى . . !

فاقتربت منه ، ووضعت يدها على كتفه وهى تقول :

ـ ليس عليك من بأس أيها الملك . . انى مقدرة ما أنت فيه ، وسأريحك فأقول لك أننى أعلم مكان زوجتك وابنك ، وهما حتى الآن فى أمان . . وقد أقسمت أن أنقذهما مهما كلفنى الأمر . . وهذا هو سر توقعى لمجيئك . .

ورفع الملك « سيف » رأسه وهو يسأل :

ـ تنقذيهما ! . . ؟ من أى شىء . . ؟

قالت فى صوت هادئ متزن :

ـ ان « منية النفوس » منذ عادت من بلادك ، وهى فى السجن مع ولدها تعانى أشد أنواع العذاب وأقساه . . !

وهتف الملك « سيف » فى غضب :

ـ فى السجن ؟! . .

وعادت تقول فى نفس الصوت الهادئ ، وان شابته نبرات حزن واضحة :

ـ نعم أيها الملك ، وأى سجن ؟ . . أنها تعانى من الشقاء ما كان كفيلا بالقضاء عليها . ولولا أنها كانت دائما تؤمن أنك ستسعى اليها وستخلصها من سجنها لقضى عليها ما تلقاه من عذاب من زمن طويل . . !

وسكتت وقد بدت فى عينيها نظرة شاردة حزينة ، وتنهدت وهى تقول :

ـ لقد كبر ابنك الآن وأصبح يدرك العذاب الذى تعيش فيه أمه . . وكلما نظرت فى عينيه البريئتين طالعنى حزن دفين وسؤال محبوس كأنه يقول : لماذا ؟ . . لماذا تعيش أمه فى هذا العذاب ، ولماذا يعيش هو فى القبوالرطب بعيدا عن ا لضوء والحياة ، بعيدا عن الشمس والمروج . . ؟

وغشت وجه الملك « سيف » سحابة قاتمة ، وقال فى بطء وعيناه تلمعان فى غضب :

ـ حقا . . لماذا . . ؟ انها هربت من قصرى لتعود إلى أهلها ، أيكون جزاؤها منهم السجن والعذاب . . ؟!

قالت :

ـ لقد عادت وهى زوجة وأم . . وفى مدينتنا لا مكان الا للفتيات العذارى . . وعندما تعرف واحدة منا أن هناك فى الوجود شيئا اسمه الرجل فلا مصير لها الا الموت ، أو ما هو أسوأ من الموت ، حيث تنفى إلى كهف الوسط . . وهو كهف عند منبع النهر الذى يفصل مدينة الذكور بمدينة الاناث ، تعيش فيه المرأة التى قضت الصدفة بأن تتأخر عن العودة إلى المدينة فيشاهدها الرجال ويأسرونها . . وفى الكهف تظل هناك

نهبا لرجال المدينة الاخرى حتى تلد ، فان كان ولدها ذكرا حمل إلى مدينة الذكور ، وأن كان ولدها أنثى حملت إلى مدينتنا . . .

صاح الملك « سيف » فى غضب :

ـ ما هذا الضلال ؟ . . أتنكرون على المرأة أن تعيش كامرأة ، وتنكرون على الرجال أن يعرفوا نساءهم . . وتستحلون هذا الفحش الذى تسمينه كهف الوسط . . ؟!

وكان فى صوتها حدة وهى تقول له :

ـ أيها الملك لا تنس نفسك فتضيعها ، احذر ما تقول ولا ترفع صوتك . . ان هذا هو قانوننا ، عشنا عليه منذ سنين . . ونحن راضون به . . !

وكان صوت الملك « سيف » خافتا ، ولكنه ينطلق بالمرارة والغضب وهو يقول :

ـ ان قانونكم هذا ضد الحياة ، لا بد له أن يموت . . ان للخالق شرعته ، ولا بد لشريعة الخالق أن تسود . . !

وأحس بها تضع يدها فوق ذراعه وهى تقول فى صوت مضطرب :

ـ يحسن أيها الملك أن نبتعد قليلا فقد بدأ وقوفنا الطويل يلفت الانتباه . .

وتركها تقوده متغلغلة بين الاشجار حتى ابتعدا تماما عن حافة النهر ، وحتى اختفى النهر ومن حوله من الفتيات وراء حاجز سميك من الاشجار . . ثم وقفت ونظرت اليه قائلة :

ـ لقد حدثتنى سيدتى « منية النفوس » عنك كثيرا . . عن شجاعتك وقوتك ، وعن خلقك وشهامتك حتى تمنيت أن أراك ، وحتى آمنت معها أنك ستجتاز كل صعب فى سبيل الوصول إليها وتخليصها . . ولكنك اذا

كنت ستترك للغضب أن يسيطر عليك ، فلست أرى لك أو لها أى أمل فى الخلاص . . ولست أرى الا أن تتركها لمصيرها وتعود إلى بلادك ناجيا بنفسك . . !

وظل الملك« سيف » ينظر اليها لحظات فى وجوم . . ثم أخذت الابتسامة الهادئة تعود إلى شفتيه وهو يقول :

ـ أنك حقا فتاة باسلة . . فمن أنت . . ؟

قالت وعلامات الاطمئنان تطرد معالم القلق من وجهها :

ـ ان هذا أحسن أيها الملك . . ان اسمى مرجانة وأنا وزيرة هذه المدينة منذ أن كانت « منية النفوس » هى ملكتنا . .

قال الملك :

ـ ومن ملكتكم الآن . . ؟

قالت مرجانة :

ـ أنها الملكة « نور الهدى » أخت « منيةالنفوس » . . وكانت قد أرسلت إلى أبيها الملك « قاسم العبوس » بخبر اختفاء أختها «منية النفوس » فأمرها أن تتولى هى حكم المدينة . . وحينما عادت «منية النفوس » أخبرت أباها بأمر عودتها وبأنها تحمل معها طفلا ، فأمر بحبسها بعيدا عن كل عين وتعذيبها بضربها بالسياط كل يوم . . كما أمرها أن تحبس معها ابنها حتى يكبر فيرسل إلى مدينة الذكور . . !

قال الملك « سيف » :

ـ وتعذبها أختها . . ؟!

قالت « مرجانة » :

ـ انها تضربها كل يوم بالسوط تنفيذا لأوامر أبيها ، ولا تقدم لها من الطعام الا ما يسد الرمق . . !

همس الملك وهو يكتم غضبه الذى ينشب مخالبه فى صدره وقلبه بصعوبة بالغة :

ـ دلينى على مكانها وسأخلصها مهما كان الثمن . .

ضحكت « مرجانة » فى مرح وهى تقول :

ـ انك حقا كما وصفتك تماما ، لا يثنيك شىء . . ألا تعلم أنها فى قبو داخل السجن ، والسجن محاط بالحراس والسجن داخل المدينة ، والمدينة محروسة بجيش من الفتيات المدربات ، ولا سبيل للدخول اليها الا من أبوابها . . وعلى الابواب تماثيل مطلسمة لا يقترب منها ذكر الا وتصيح عليه صارخة : عند الباب ذكر ، فيندفع اليه الحراس من الفتيات يمزقنه بسيوفهن شر ممزق . . كلا أيهاالملك . . ان الامر ليس بما تظن من السهولة واليّسر . . !

وتقلص وجه الملك « سيف » فى حزم :

ـ ولكن لابد من انقاذها . . وسأنقذها . . ولست أظن انك تودين بقاءها إلى آخر العمر فى هذا العذاب المقيم . .

قالت « مرجانة » وفى صوتها نبرة حنان :

لقد كنت لها نعم الصديقة ، فقد نشأنا معا منذ الطفولة . . وفى محنتها الرهيبة هذه لا يخفف عنها ما تعانى الا زياراتى اليومية لها . . فأنا أزورها كل يوم لأواسيها واشجعها واداعب طفلها الجميل البرىء . . وفى زياراتى هذه لها سمعت منها عنك ، ووصفتك لى حتى أننى عرفتك منذ اللحظة التى رأيتك فيها . . وأنا وما أملك ، بل وعمرى نفسه فداء لها . . فأمر بما تشاء وستجدنى أول من ينفذ أمرك . . أما أنا فانى عاجزة عن القيام بأى شىء لانقاذها . . !

وأطرق الملك « سيف » إلى الأرض مفكرا ، ثم رفع رأسه وهو يقول لها .

ـ هل تستطيعين ادخالى إلى المدينة دون المرور على الابواب ذات الحراس المطلسمة ؟

وصمتت « مرجانة » لحظات ولكنها سرعان ما اندفعت تقول فى حماس .

ـ هناك طريقة واحدة أيها الملك ، أن تدخل المدينة من فوق الاسوار . . ان بيتى يقوم عند السور الجنوبى فلو أمكنك أن تختفى حتى المساء فربما استطعت أن أدلى اليك بسلم من الحبال من نافذة حجرتى عبر السور لترتقيه وتدخل المدينة دون أن يحس بك احد . .

وانتقلت عدوى حماسها إلى الملك « سيف » فصاح فى توفز :

ـ بورك فيك يا « مرجانة » . . ان وجودى داخل المدينة ضرورى لانقاذها ، ولا يجب أن يشعر بى أحد حتى أخلصها من قيودها . . وبعدها سنرى . .

وكان وجهه ملتهبا بالحماس ، وقد التمعت عيناه فى عزم ، وارتفعت جبهته فى ثقة ، وشمخت أنفه فى تحد وتصميم . . ونظرت اليه « مرجانة فى اعجاب وقد ملأت نفسها الثقة أنه قادر على أن يفعل ما يقول . . ونظرت حولها فلمحت حركة الفتيات بين الاشجار ، فقالت فى سرعة وهى تمسك بذراعه :

ـ هيا بنا نعود إلى الفتيات ، فقد حان موعد الافطار ولابد أنهن يبحثن عنى . . وحين نعود ، عليك أن تختلط بالفتيات وأن تأكل معهن ، وان تواصل اللعب كواحدة منهن ، ولكن عليك ونحن فى الطريق إلى المدينة أن تختار مكانا صالحا للاختفاء ثم تنفصل عنهن دون أن يشعر أحد بك ، وتظل فى مكمنك حتى المساء . ولا تنس السور القبلى . . . !

وكانت وهى تتحدث قد قادته نحو العودة وهى تسرع فى سيرها ، وما

أن وصلا إلى حافة الاشجار حتى تركته لتتجه نحو مجموعة من الفتيات تقف على مبعدة ، وسمعها وهى تصيح فيهن :

ـ ماذا تفعلن هنا وقد حان موعد الافطار ؟! . .

وقالت الفتيات ، وهن ينظرن اليها فى دهشة :

ـ أننا نبحث عنك أيتها الوزيرة فقد قلقت الملكة عليك ، والغريب أننا بحثنا فى كل مكان فلم نجدك . . !

وعاد صوت « مرجانة » يرتفع وفيه اضطراب خفيف لم تخطئه أذن الملك « سيف » وهى تقول :

ـ كنت أجمع أشتاتكن المتفرقة . . هيا أسرعن إلى حافةالنهر، وكل واحدة منكن لن أجدها فى مكانها عند النهر ستعرض نفسها لأشد العقاب . . !

ونظرت إلى الملك « سيف » نظرة سريعة ، ثم أسرعت متجهة إلى حافة النهر . ومضى الملك « سيف » يحث الخطى لسبقها إلى هناك . . واستطاع أن يندس وسط جمع كبير من الفتيات كن يتحدثن فى اهتمام ، واستطاع أن يدرك أن حديثهن ينصب على غياب الوزيرة عن موعد الطعام . . ولكن حين ظهرت « مرجانة » تتبعها الفتيات صمت كل صوت ، ووقفت وقفة الانتباه وقد انتظمت صفوفهن . . ووقف الملك « سيف » وسطهن ، وقد اطمأنت نفسه إلى أن ملابسه تخفى حقيقته عنهن . .

وظلت « مرجانة » واقفة أمامهن صامتة ، والمكان كله يخيم عليه السكون وكأنهن فى انتظار حدوث شىء . . وفجأة لمح الملك « سيف » كوكبة من الفارسات يقبلن على ظهور الخيل من ناحية المدينة ، وأحس أن كل الانظار تتجه نحوهن فى انتظار . . !

وما أن وصل الموكب إلى مكان الوزيرة « مرجانة » حتى توقف . . وتقدمت « مرجانة » نحو الفارسة الأولى ومدت يدها تساعدها على

الترجل ، وخيل إلى الملك « سيف » أن فى هذه الفارسة شيئا أليفا عليه . .
وما أن نزلت الفارسة عن جوادها حتى واجهت الصفوف المنتظمة للفتيات ، وصفقت « مرجانة » بيدها فارتفع صوت الفتيات كالهدير . .

ـ عاشت الملكة ! . . عاشت الملكة ! . .

وفجأة ادرك الملك « سيف » سر ما كان يحسه من ألف تجاهها . . فقد خيل اليه للحظات أنه ينظر إلى زوجته « منية النفوس » ، وأحس بقلبه يسرع فى خفقاته ، وبأنفاسه اللاهثة تكاد تكشف أمره . . ولكنه سرعان ما أدرك أن الشبه بين الفارسة وبين زوجته كبير جدا ، ولكنها لم تكن هى . . ولم يخالجه شك فى أن هذه الفارسة هى « نور الهدى » اخت زوجته « منية النفوس » التى تعذبها كل يوم ، وتسجنها فى قبو القصر ، وتحتل مكانها كملكة على المدينة . . !

وصفقت « مرجانة » مرة أخرى . . وسرعان ما تقدمت الفتيات نحو الفارسات الاخريات اللاتى كن يتبعن الملكة يأخذن منهن الطعام لاعداده عند حافة النهر ، وقد بدأت أصواتهن من جديد تتعالى ضاحكات فى مرح . . وتحرك الملك « سيف » يشارك فى كل شىء ، وذهنه غائب عنه ، وبصره لا ينزل عن الملكة « نور الهدى » . . !

وبينما هو يحمل حملا من الفاكهة إلى المائدة المعدة عند النهر ، أحس بيد توضع على كتفه وبصوت « مرجانة » يهمس فى أذنه :

ـ لا تكشف نفسك أيها الملك . . كن على حذر ، وكفاك تحديقا فى الملكة . .

وأعادت هذه الكلمات إلى الملك « سيف » هدوءه وضبطه لاعصابه ، ومضى يحاول جاهدا أن يتصرف بصورة طبيعية طوال فترة الافطار التى أحس بها تطول وتضغط على اعصابه وتشدها شدا . . !

وحين انتهى الافطار ، عادت « مرجانة » تقف فى مواجهة الفتيات

وتصفق بيدها ، فعادت الفتيات إلى الاصطفاف من جديد ، ثم بدأن يتحركن فى رحلة العودة . . وكلما ازداد اقترابهن من أسوار المدينة اشتد اضطراب الملك وهو يتلفت حوله باحثا عن مكان يخفيه عن الانظار حتى يجن الليل . . ولكن الجميع يقتربن من أسوار المدينة وهو لا يجد مكانا ملائما ، و « مرجانة » منصرفة عنه تماما تسير فى مقدمة الموكب إلى جوار الملكة . .

وبدأت أولى الجماعات تدخل أبواب المدينة بالفعل . . وخشى الملك «سيف » ان هو ازداد اقترابا من الباب أن يصبح التمثال المطلسم كاشفا مكانه ، فظل ينتقل بحذر وهدوء بين الصفوف ليقترب من المؤخرة وليصبح مكانه فى أقصى الطرف الايمن . .

وحانت من الملك « سيف » نظرة إلى يمينه . . وهناك رأى شجرتين سامقتين ، تقارب ساقاهما بحيث أصبحا كالكتلة الضخمة الواحدة . . وكانت هذه فرصته الوحيدة ، فنظر عن يمينه وعن يساره ، ولم تكن هناك فتاة واحدة تهتم بمراقبة حركاته ، فكلهن قد انصرفن إلى النظر نحو الباب الكبير مترقبات دورهن فى الدخول إلى المدينة . .

وبسرعة خارقة قفز الملك « سيف » من مكانه نحو الشجرتين وانبطح على وجهه فوق الأرض . . ثم أخذ يزحف بسرعة حتى اقترب من الجذعين العريضين وتوارى خلفهما . . ولم ترتفع خلفه صيحة واحدة ، ولم تره واحدة من الفتيات . . ورفع رأسه فى حذر ، وهناك كن جميعا يدخلن إلى المدينة دون أن يشعرن بما حدث . . وأخذت ضربات قلبه تعود إلى هدوئها السابق وهو يهمس لنفسه :

ـ موعدنا حلول الظلام . .

ثم التفت محددا مكان السور الجنوبى للمدينة ، وغاص برأسه مختفيا خلف جذعى الشجرتين ينتظر موعد بدء العمل . . !

- ١١ -

كان الملك « سيف » فى مكمنه يرقب غروب الشمس فى قلق ، وهو يعد الدقائق الباقيات فى عمر النهار . . وأذناه المرهفتان تلتقطان اصوات المدينة التى بدأت تخفت تدريجيا كلما تقادم بالنهار العمر وأوشكت لحظاته الباقيات على النهاية . .

وكانت عيناه دائمة التحديق فى الجهة الجنوبية من السور ، وقدظن أكثر من مرة فى ذلك النهار الذى قضاه ساكنا لا يأتى بحركة أنه شاهد شبحا عند نافذة من السور الجنوبى يطيل التحديق فى اتجاهه . .

وكان الخوف يتملكه حينا خشية أن يكون أمره قد افتضح . . ثم يعود الامل ليحل محل الخوف حينا آخر مرجحا أنها « مرجانة » تتأكد من وجوده عند أسوار المدينة كما اتفقا فى مطلع النهار . . ولكنه كان آخر الامر يرجع ما يظن أنه يراه إلى الوهم الذى تغلب عليه وأصبح يرسم له أشياء كثيرة هى وليدة قلقه واضطرابه وانتظاره الممل الطويل . .

وحين غابت أول أشعة الشمس من السماء ، ملأ الملك « سيف » رئتيه من الهواء النقى حوله فى راحة واسترخاء . . وحين لمع ضوء أول مصباح فى المدينة وقف الملك « سيف » على حذر وهو يتلفت حوله . . فلما اطمأن أنه يقف فى الوادى كله وحده بدأ يحرك ذراعيه وقدميه التى احس أنها قد تيبست من طول توقفها عن الحركة . . ثم بدأ يتسلل وظلام الليل الوليد يستر حركته وهو يتجه نحو السور الجنوبى ، وفى ذهنه أن يقصد إلى ذلك

المكان الذى خيل اليه أثناء النهار أنه لمح فى نافذة منه شبحا يحدق فى اتجاهه . .

وكان الملك « سيف » يتحرك فى سرعة ، ولكن فى حذر ، فقد كان يخشى أن تقع عليه عين أحد الحراس فيضيع كل ما بذل من جهد هباء . . وأكثر من مرة خيل اليه أنه يرى أشباحا فى الظلام تحدق تجاهه من ناحية السور ، فيثبت فى مكانه ممتنعا عن كل حركة . . فاذا ما التفت ناحية السور لمحت عيناه مصباحا جديدا يضاء فى نافذة من نوافذ المنازل العديدة التى تطل على السور مباشرة . .

وخيل للملك « سيف » أن رحلته لا تريد أن تنتهى ، وأن السور اللعين يبتعد عن مكانه كلما اقترب منه ، ولكنه واصل تقدمه فى سرعة وفى حذر . . وفجأة وقف فى مكانه فى ترقب ، وعيناه تتبعان ضوءا لامعا يتحرك أمامه من بعيد إلى أقصى اليمين ، ثم يعود فى بطء شديد إلى أقصى الشمال حيث يثبت فى مكانه لحظات ثم يبدأ حركته من جديد متجها إلى أقصى اليمين . . وظل الملك « سيف » يديم النظر اليه محاولا تحديد مكانه ، وسرعان ما أدرك أن هذا الضوء المتحرك انما ينبعث من النافذة التى لمح فيها الشبح أثناء النهار ، وتأكد عند الملك « سيف » أن هذا الضوء يحمل اليه رسالة واضحة المعنى ، فهذه هى النافذة التى تنتظره عندها « مرجانة » . . وأسرع الملك « سيف » يتحرك فى اتجاه الضوء ، وقد امتلأت نفسه بالامل . . وشفتاه ترددان فى همس :

ـ شكرا لك يا « مرجانة » . . أيتها الملاك الحارس الامين . .

وكان الملك « سيف » قد وصل إلى السور ، فمضى يسير محتميا به متلمسا أحجاره بيديه وهو يسرع فى خطاه . . وفجأة أحس الملك «سيف» بشىء ناعم الملمس يمس يده الممدودة ، فأجفل وتوقف فى مكانه وهو

يحدق البصر فى ذلك الشىء الذى لمسته يداه . . وسرعان ما تحقق أنه سلم الحبال الذى وعدته « مرجانة » أنه سيكون فى انتظاره . . وجذب السلم بيده فاختفى النور المتحرك الذى كان يعلو مكانه تماما . . وتلفت الملك « سيف » حوله ليتأكد أن أحدا لا يراه ، ثم مضى يرقى السلم فى حذر . .

وكان الملك « سيف » فى منتصف الطريق ، حتى سمع صوتا هامسا يقول :

ـ أهذا أنت أيها الملك . . ؟!

فهمس فى بهجة :

ـ نعم يا « مرجانة » أنه أنا . .

وعاد الصوت الهامس القلق يقول من جديد :

ـ أسرع بالله عليك . .

ولم يكن الملك « سيف » فى حاجة إلى مثل هذا الرجاء ليندفع صاعدا فى سرعة ، وقد نسى كل حذره . . وما هى الا لحظات حتى كان يعتلى حافة النافذة ليجد نفسه وسط غرفة فسيحة مظلمة . . وأحس «مرجانة» تتحسس ذراعه وهى تقول :

ـ لحظة واحدة أيها الملك حتى أرفع هذا الحبل وأغلق النافذة ثم أضىء لك المصباح . .

وسمع الملك « سيف » فى الظلام صوت احتكاك الحبل بحافة النافذة، ثم اشتد ظلام الحجرة حين أغلقت « مرجانة » النافذة . . وما هى الا لحظات حتى امتلأت الحجرة بالنور ، والتفت الملك « سيف » ليجد «مرجانة » تحمل فى يدها مصباحا من البللور وتبتسم فى قلق وهى تقول :

ـ أهلا بك أيها الملك فى مدينة البنات . .

ولم يتمالك الملك « سيف » نفسه من الابتسام ، وقال لها وهو يتجه نحو مقعد شاهده بجوار الحائط :

ـ الفضل لك ولشجاعتك أيتها الوزيرة . .

ثم القى بجسده إلى المقعد المريح ، وأسند رأسه إلى ظهره والابتسامة ما تزال تعلو وجهه ، ووضعت « مرجانة » المصباح على منضدة صغيرة فى جانب من الحجرة وهى تقول :

ـ انك جائع أيها الملك ، وأحسب أنك لم تأكل شيئا من الصباح . وقد أعددت لك طعامك وسآتيك به فى الحال . .

وقبل أن يستطيع الملك « سيف » أن يجيبها ، غادرت الحجرة مسرعة تاركة اياه وحده غارقا فى أفكاره وتأملاته ، وجسده المتعب الذى بدأ يحس بالخدر يسري اليه وقد حجبته حوائط الحجرة عن الهواء الذى ظل يضرب وجهه وجسده طوال النهار . . ولكنه سرعان ما انتبه تماما على صوتها وهى تدخل حاملة صفحة عريضة مليئة بأوانى الطعام . . وأقبلت نحوه وهى تقول :

ـ الطعام أولا أيها الملك ثم نبحث أمر الاسيرة بعد ذلك . .

قال الملك « سيف » وهو يرفع يده بالطعام إلى فمه :

ـ انى اريد أن اتخلص من هذا الثوب العجيب الذى ارتديه والذى أبدو ولا شك مضحكا مثيرا للسخرية . . !

فضحكت « مرجانة » وهى تقول :

ـ لم يحن بعد أوان خلعك لهذا الثوب الذى استطعت بفضله أن تدخل إلى المدينة ، فهو سيفيدك فى الذهاب إلى السجن حيث انتوى أن أصحبك بعد انتهائك من طعامك لترى زوجتك وولدك . .

وتوقف الملك « سيف » عن الأكل لحظات وهو ينظر اليها ، ثم ابتسم قائلا :

ـ انك تفكرين فى كل شىء . . وعلى أية حال فأمر الثوب لا يهم فأنا أحمل سيفى تحته ، وسيفى هو كل ما احتاج اليه فى هذه المدينة الملعونة . .

قالت « مرجانة » وهى ترقبه يعود ليستأنف طعامه فى شهية :

ـ ألا تعلم أيها الملك أن كل فتيات المدينة مسلحات ، وهن مدربات على القتال تدريبا كاملا . . !

قال الملك « سيف » وهو يلوح بيده فى الهواء :

عندما التقى بزوجتى وابنى ، فليأت فرسانك هؤلاء وان كن فى عدد الرمل ، أن سيفى كفيل بهن . . والسيف الذى لم يهب اعتى الرجال أتحسبين أنه يخشى فتياتك المدربات ؟ صبرا يا « مرجانة » وسترين . . !

وجعلت « مرجانة » ترقبه وهو يأكل ، وقد اختفت كل معالم القلق من وجهه واكتست ملامحه تعبيرا هادئا واثقا ، كله العزم والتصميم . . وأحست بعدوى حماسه وثقته تنتقلان اليها ، وتملآن قلبها أملا فى خلاص صديقتها الاسيرة ، وايمانا بقدرة الفارس الوسيم الذى يجلس أمامها يلتهم طعامه فى اقبال وشهية على تحقيق ما كانت تظنه مستحيلا . . !

* * *

قال الملك « سيف » وهو ينتهى من طعامه وينهض واقفا :

ـ هيا بنا . .

فقالت « مرجانة » وهى ترفع المصباح فى يدها تنير له الطريق :

ـ أرجو أن تسير ورائى دون أن يبدو عليك أى مظهر من مظاهر التلكؤ أو الجهل بالطريق ، ولا تنظر حولك مهما كانت الظروف ، وان خاطبتك واحدة من ساكنات المدينة فلا ترد عليها واترك لى أنا الحديث . .

وكانا قد وصلا إلى باب المنزل ، فأطفأت المصباح الذى بيدها ووضعته جانبا . . وظل الملك « سيف » فى الظلام لحظات حتى فتحت «مرجانة » الباب فتدفق النور من الشارع المضاء ، وحين خطا الملك «سيف » إلى الطريق لاحظ المصابيح الكثيرة المنتشرة فى كل مكان تحيل ظلام الليل فى الشوارع إلى نهار . . ولكنه لم يتلفت حوله بل اتجه بنظره إلى « مرجانة » التى مضت تسير بخطو متزن هادئ وهو يتبعها . . وكانت « مرجانة » تتبادل التحية أثناء سيرها مع بعض السائرين فى الطريق ، بل لقد وقفت أكثر من مرة تتبادل بعض الكلمات مع فتيات أوقفنها ليتحدثن اليها . . وكانا الملك « سيف » يقف لوقوفها ويسير لسيرها وكأنه تابع خاص لها . .

وظلت « مرجانة » تنعرج من شارع إلى شارع إلى أن أشرفا على بناء يكثر حوله الحراس وتبدو عليه القتامة والكآبة ، وأدرك الملك « سيف » انهما وصلا إلى سجن المدينة . . ومد يده يتحسس سيفه الذى يخفيه تحت الثوب النسائى ، ثم مضى يتبع « مرجانة » وهى تدخل من الباب الضيق يحييها حرس الباب وترد على تحيتهن بيدها ، ثم تمضى دون أن يعترضها أحد ووراءها الملك « سيف » إلى ساحة عريضة تنتهى بباب يقود إلى سرداب طويل ، تنبعث منه رائحة عفنه ، ويشتد فيها الضوء ترسله مصابيح متعددة تقوم على الجانبين . . وفى نهاية السرداب من بعيد ، كان يبدو باب سميك من الحديد أمامه أريكة عريضة جلست عليها سجانة ضخمة الجثة ، ما أن شاهدت الوزيرة « مرجانة » حتى هبت واقفة ، واتجهت إلى الباب تفتحه فيصدر عنه صرير مخيف يبعث الرعدة إلى جسد الملك « سيف » وسمعها وهى تقول :

ـ لقد تأخرت أيتها الوزيرة عن موعدك المعتاد . . أن رئيسة الحرس «كوكب » قد سبقتك إلى القبو حيث ترقد « منية النفوس » . . !

ثم كأنها وقع بصرها على الملك « سيف » لأول مرة اذ توقفت يدها عن الحركة وهى تقول :

ـ أهذه الفتاة الطويلة معك . . ؟!

وكان صوت « مرجانة » حادا آمرا وهى تقول :

ـ طبعا معى . . وما شأنك أنت ؟ . . هيا افتحى . .

وهزت السجانة البدينة كتفيها ، ومضت تكمل فتح الباب وهى تتمتم لنفسها كلاما مبهما . . وحين مر بها الملك « سيف » تابعا «مرجانة» أحس بعينيها الضيقتين تحدقان فيه بشدة وفيها شك وارتياب . . وأراد الملك « سيف » ان يلفت انتباه « مرجانة » لما ثار فى صدر السجانة من شكوك ، ولكن تذكر ما قالته له من الامتناع عن الكلام تماما . . فمضى وراءها صامتا وهى تخرج من سرداب لتدخل فى آخر ، وكأن سراديب هذا السجن لا نهاية لها . . !

ووقفت « مرجانة » أخيرا أمام باب صغير دفعته بيدها ، ثم أحنت رأسها ودخلت فى حذر . . وتبعها الملك « سيف » ليجد أمامه سلمة عريضة تليها مجموعة من الدرجات الضيقة المتآكلة تنزل إلى حجرة ضيقة تنيرها مشاعل على الجدران ، وتنتهى بباب حديدى سميك لاحظ الملك «سيف » منذ اللحظة الأولى أنه مفتوح . . وكان الملك « سيف » يتبع «مرجانة » وهى تهبط الدرج ، وعيناه مثبتتان على الباب المفتوح وقد بدأت دقات قلبه تعلو وتشتد . . ولاحظ وهو ينزل الدرجة الاخيرة أن واحدة ترتدى زيا شبيها بزى السجانة التى رآها عند الباب ، وسمع «مرجانة » تقول وصوتها تردد الجدران السميكة صداه :

ـ أهذه أنت يا « كوكب » ؟ . . كيف حال سيدتنا الليلة ؟ . .

والفتت اليها تلك التى خاطبتها باسم « كوكب » وهى تقول :

ـ أسوأ من أمس . . ان كل يوم يمر يقترب بها من النهاية . . ولكن لماذا تأخرت أيتها الوزيرة « مرجانة » . . ؟

ثم توقفت عن اكمال جملتها ، وهى تحدق فى الملك « سيف » وتقول :

كيف دخلت هذه الفتاة إلى هنا . . ؟!

وكان الملك « سيف » يتقدم نحو الباب المفتوح وقد نسى كل شىء . . الوزيرة والسجانة ، ونظرات الشك فى عين المرأة الغليظة صاحبة المفاتيح ، ورائحة القبو العفنة ، والجدران الصلبة . . كانت «منيةالنفوس» وراء هذا الباب وهو مفتوح ، وابنه « مصر » معها . . . وسمعها وكأنها من جوف بئر عميق تصيح به :

ـ توقفى ايتها الفتاة . . إلى أين أنت ذاهبة . . !

وأحس بيد توضع على ذراعه فدفعها فى عنف ، وسقطت « كوكب » على الأرض ، وفتحت فمها لتصرخ مستنجدة فانقضت عليها « مرجانة» بسرعة ، وكتمت صرخاتها بيدها ، وهى تقول فى صوت هادئ ولكنه يحمل نذير الوعيد والتهديد :

ـ لو خرج صوتك من فمك فسأشقك بحسامى شقا . . اياك أن تأتى بأية حركة والا قتلتك . ! .

وكان الملك « سيف » قد دفع الباب بكل قوته فانفتح على مصراعيه كاشفا أمامه منظراً مرعباً ، جعله يقف فجأة ـ بعد اندفاعه العاتى ـ وقد تسمرت قدماه إلى الأرض ، وشد بصره إلى تلك المرأة المقيدة إلى عمود فى وسط المكان وقد تعرى جسدها المزيل ورسمت الضربات خطوطا قانية رهيبة فوقه ، وتدلى رأسها فى همود واستسلام . . وعند قدميها يرقد طفل صغير وقد راح فى نوم عميق فوق الأرض الصلبة لا يغطية سوى ثوب مهلهل قذر كثرت فيه المزق التى تكشف عن جسد ضامر معروق . . !

وجاءه صوت « مرجانة » وهى تقول :

ـ حذار أيها الملك أن تقتلها المفاجأة . . !

وتنبه الملك « سيف » إلى الحقيقة التى ساقتها اليه « مرجانة » فالتفت اليها ليراها تقف خلفه ، وقد أشرعت سيفها وسددت ذبابته إلى صدر «كوكب » التى كانت تهمس فى ذعر :

ـ رجل . . فى مدينة البنات . . رجل !!

وصاحت بها « مرجانة » فى صوتها الآمر المتوعد :

ـ اياك والصراخ . . نعم أنه رجل . . وهو الملك « سيف بن ذى يزن » زوج سيدتك وسيدتى « منية النفوس » وقد جاء لانقاذها . . ولو بدرت منك بادرة اعتراض واحدة فسأقتلك فى الحال . . !

وفجأة انفرجت اسارير «كوكب» وانطلقت تضحك فى مرح وهى تقول :

ـ من كان يصدق هذا ؟ . . الملك « سيف بن ذى يزن » بلحمه ودمه . . اجتاز كل هذه المسافة التى تفصل بلاده عن جزيرتنا . . وتخطى كل تلك المهالك التى تملأ الطريق لينقذ « منية النفوس » . . لقد تحقق حلمها الذى كانت تهذى به دائما . . تحقق الحلم يا « مرجانة » . . ارفعى سيفك عن صدرى فأنا لست أقل منك رغبة فى خلاصها ـ هى وابنها ـ وأنت تعلمين محبتى لها ، وحنوى عليها ، وعلى الطفل البرىء المسكين . .

وأنزلت « مرجانة » سيفها فى تردد ، بينما اندفعت « كوكب » نحو الملك « سيف » وهى تمد له يدها وتقول :

ـ مرحبا بك أيها البطل . . هذه زوجتك التى لم تفقد ثقتها فيك لحظة واحدة . . ولكن كما قالت الوزيرة « مرجانة » ينبغى أن تتمهل حتى لا

تذهب المفاجأة بلبها . . !

وتناول الملك « سيف » اليد الممدودة اليه فصافحها وهو يقول :

ـ شكرا لك يا « كوكب « لقد سهلت الامر علينا . .

وقالت « مرجانة » وهى تتقدم نحو الباب :

ـ لو أرغمتنى على قتلك يا « كوكب » لعشت عمرى كله لا أغفر لنفسى ما فعلت . . !

واقتربت « مرجانة » من صاحبة الجسد المقيد تهمس فى أذنيها :

ـ سيدتى « منية النفوس » . . سيدتى « منية النفوس » . . !

بينما أسرعت « كوكب » إلى القيود التى تشدها إلى العمود تفكها واحدا اثر الآخر . . وهى تقول :

ـ أنا وضعت هذه القيود ، وأنا التى ارفعها بيدى . . !

وأحست المرأة المقيدة بما يجرى حولها فرفعت رأسها وفتحت عينيها ، والتفتت شبه ذاهلة إلى « مرجانة » ثم همست :

ـ أهذه أنت يا « مرجانة » أيتها الصديقة الوفية الحنون . . لقد كانت أختى هنا منذ قليل لتتشفى بتعذيبى . .

ثم أحست بحركة « كوكب » وراءها فالتفتت اليها قائلة :

ـ ماذا تفعلين يا « كوكب » . . أتحلين قيودى ؟ . . هل جننت يا فتاة؟ . . الا تخافين أن تعلم « نور الهدى » بأمرك فتقيدك إلى جوارى . . ؟!

وهمست مرجانة فى صوت حنون

ـ لقد انتهى عذابك يا « منية النفوس » . !

فقالت « منية النفوس » فى صوتها الخافت الضعيف :

ـ لن ينتهى عذابى يا « مرجانة » الا اذا غفر لى الملك « سيف » ان خنت الامانة وهجرته فى غيابه . . وجاء إلى لينقذنى مما أنا فيه . .

فقالت « كوكب » :

ـ لقد غفر لك الملك « سيف » كل شىء . . !

وقالت « مرجانة » :

ـ وجاء يسعى لانقاذك أنت وأبنك . . !

وابتسمت « منية النفوس » ابتسامة واهنة شاحبة ، وهى تقول :

ـ انتها تسايران أحلامى . . أين هو منى . . تفصله عنى مساحات شاسعة وبحار عميقة وجبال شاهقة . .

ولم يتمالك « سيف » نفسه ، فتقدم خطوة إلى الامام وهو يقول :

ـ بل هو معك فى مكان واحد يا « منية » . . !

وأجفلت « منية النفوس » وتلفتت حولها فى ذعر ، ووقع بصرها على الملك « سيف » وهو فى زيه الغريب ، فمضت تحدق فيه النظر وهى تقول :

ـ الصوت صوته ، صوت مليكى وزوجى . . صوت الملك « سيف بن ذى يزن » . . ولكن أنت . . ملابس فتاة من مدينتنا . . الوجه . . الوجه . . عيناه . .

ثم تهاوت إلى الأرض وقد غابت عن الوعى . . وأسرعت « كوكب » ترفعها عن الأرض ، بينما انحنت عليها « مرجانة » . . تتسمع إلى دقات قلبها . . ثم قالت :

ـ لقد أثرت عليها المفاجأة ، ولكنها بخير . .

ثم هبت واقفة لتترك مكانها للملك « سيف » الذى انحنى عليها يقبل وجنتيها البارزة ، ويمسح بيديه على شعرها فى حنان . . وقال وعيناه تبللهما الدموع :

ـ لقد أضناها العذاب حتى أشرفت على الهلاك . . أليس هناك ماء فى هذا القبو اللعين . . ؟

وقالت « كوكب » وهى تسرع إلى جانب من القبو ، وتعود بإناء فخارى ثقيل :

ـ لقد أذهلنى اغماؤها . . وأنسانى خوفى عليها احضار الماء . .

ومضى الملك « سيف » يبلل شفتى « منية النفوس » بالماء ، ويمر بيده المبللة فوق جبهتها وعلى وجنتيها . . وتنهدت « منية النفوس » وفتحت عينيها الذاهلتين تجول بهما فى شرود فى سقف القبو الحجرى ، ثم عادت إلى نظراتها سمات الحياة والتذكر ، والتفتت إلى الملك « سيف » تحدق فى وجهه بشدة ، ومدت يدها تمسك يده وتضغط عليها بكل ما فيها من حياة وقوة ، وهمست فى صوت متقطع ضعيف :

ـ ان كان هذا حلما يا سيدى فابقنى فيه . . كم رأيتك هكذا إلى جوارى كلما اشتد العذاب بى ، كلما تهاوى السوط فوق ظهرى يمزق جلدى . . كلما بكى ابنك « مصر » وهو لا يجد من يحنو عليه . . كلما أوجعنى ظهرى الملتصق بهذا العمود الرهيب . . كلما اصطدم رسغى بالقيد يشل حركتى ويمزق لحمى . . بالله لا تمض أيها الملك لأستيقظ على الحقيقة الرهيبة المريرة . . !

وهمس الملك « سيف » فى حنان ، وهو يقبل جبهتها :

ـ ليس حلما يا « منية النفوس » انه الحقيقة . . لقد جئت لانقاذك . .

وأغمضت « منية النفوس » عينيها ، ثم فتحتهما من جديد . . وعادت تهمس :

ـ أحقيقة أنك هنا . . إلى جوارى ، تمسك يدى ، تضمنى اليك ، تهمس فى أذنى . . ؟

وعاد الملك « سيف » يقول وهو يغالب دموعه :

ـ نعم يا « منية النفوس » . . انه أنا زوجك إلى جوارك ، وقد انتهى عذابك . .

وتنهدت « منية النفوس » فى راحة ، وعلت وجهها ابتسامة مريرة وهى تقول :

ـ حمدا لله أن رأيتنى فى لباس الذل والهوان ، فهذا جزائى أستحقه . . .

وعاد الملك « سيف » يقول لها وفى صوته كل نبرات الحب :

ـ لقد غفرت لك كل شىء يا « منية النفوس » . . لقد عرفت الآن مقدار حبى لك ، أنه حب فوق العذاب وفوق العقبات وفوق الفراق . . !

ومدت « منية النفوس » يدها تضعها فوق شفتيه وهى تقول :

ـ لا تتحدث . . دعنى انظر اليك . . وأستعيد إلى ذهنى ملامحك الحبيبة . .

وجاءهما صوت « مرجانة » الضاحك وهى تقول :

ـ لقد نسيتما الزمن . . أن أمامكما الكثير لتقولانه ، وليس هنا مكانه . .

وقالت « كوكب » :

ـ أجل . . ينبغى أن تخرج بها من هنا أولا . .

وقالت « منية النفوس » وهى تعتدل فى جلستها :

ـ لقد نسيت أن ترى ابنك « مصر » . .

ومدت يدها إلى الطفل فحملته وقبلته فى حنان ، وهى تقول :

ـ لم أحمله بين يدى منذ مدة طويلة ، كم هزل وضعف . . انظر ماذا فعلوا به . .

وأخذ الملك « سيف » ابنه بين ذراعيه فى حنان ، وجعل ينظر إلى وجهه البرىء الهزيل فى حنان وأسى ، ثم قبله فتنهد الطفل فى نومه وابتسم . . وارتسمت على شفتى الملك « سيف » ابتسامة حانية وهو يقول :

ـ ستجعل منه هذه التجربةالقاسية التى واجهها منذ طفولته رجلا صلبا قويا . .

ووقفت « منيةالنفوس » فى صعوبة وهى تقول :

ـ هيا بنا أيها الملك نخرج من هنا . .

وقالت « مرجانة » وفى صوتها نبرة مريرة :

ـ ليس الامر بهذه البساطة ، فلابد لنا أن نفكر فى طريقة لاخراجك أنت وابنك دون أن يشتبه فى أمرنا أحد ، والا فلن يقدر لاحدنا أن يعيش ليبلغ الباب الخارجى للسجن . . !

فقالت « كوكب » :

ـ لنخرج أولا من هذا القبو الكئيب . . فان الهواء النقى فى السرداب كفيل بأن يعين « منية النفوس » على استرداد قواها . . وبعدها نفكر كما نشاء ولن نعدم وسيلة ناجحة لو أحسنا التفكير . .

قال الملك « سيف » وهو يحمل « منية النفوس » بين ذراعيه ويتجه نحو الدرج الضيق :

ـ هيا بنا . .

وانحنت « مرجانة » تحمل الطفل النائم ، بينها أغلقت « كوكب » الباب الحديدى وراءهم وهى تقول :

ـ لنسرع حتى لا يطلع علينا النهار فينكشف أمرنا . .

وجاءهم صوت ساخر حاد النبرات من فوق السلمة العريضة يقول فى تشف :

ـ لقد انكشف أمركم وانتهى الامر أيتها الخائنة . . !

وتطلعت أعينهم إلى أعلى حيث كانت تقف الملكة « نور الهدى » وإلى جوارها السجانة البدينة تعلو وجهها بسمة بشعة ، وخلفهما مجموعة من

الحارسات ممتشقات السيوف ، وفى أيديهن المشاعل المتوهجة . . وعادت « نور الهدى » تقول فى سخرية :

ـ انه منظر طريف حقا . . الفارس المنقذ يحمل الخاطئة بين ذراعيه ، والوزيرة الخائنة تحمل ثمرة الجريمة ، ورئيسة الحرس تتستر على الجميع . . !

ولم ينطق أحدهم بكلمة ، بينما تعلقت عينا الملك « سيف » بالبسمة البشعة التى تتراقص على شفتى السجانة البدينة ، وقد تذكر نظرات الشك والارتياب التى لمحها فى عينيها أثناء دخوله السجن مع «مرجانة» . . وهمست « منيةالنفوس » وجسدها يتخاذل بين ذراعى الملك « سيف» :

ـ « نور الهدى » . . !

وعادت « نور الهدى » تقول فى صوتها الساخر :

ـ أجل « نور الهدى » أيتها الشقيقة العزيزة . . أهذا هو الملك «سيف» اذن . . ما أغربه ملك فى زى النساء . . لقد شكت« زعزوعة » الحارسة فى أمره منذ اللحظة الأولى ، فتبعتك أيتها الغادرة « مرجانة » وسمعت حديثك مع « كوكب » وأسرعت تخبرنى بالامر . .

وأطالت التحديق فيهم ، وكأنها تتشفى من موقفهم العاجز ثم صرخت قائلة وهى تشير بيدها إلى الحارسات من ورائها :

ـ مزقوهم بالسيوف . .

- ١٢ -

كانت «كوكب» أسرعهم جميعًا فى امتشاق حسامها تتلقى عليه ضربات المهاجمات .. بينما وضعت «مرجانة» الطفل على الأرض ، وأسرعت تمتشق حسامها لتقف إلى جوار «كوكب» عند الدرجة الأخيرة تمنعان تقدم المهاجمات .. والتقط الملك «سيف» المفاتيح التى وقعت على الأرض ، وأسرع يفتح الزنزانة من جديد ، ويضع وراء بابها الحديدى حمله الثمين .. ثم خرج ليحمل طفله ويعود به إلى أمه التى وقفت ترقب ما يحدث فى دهشة ..

ولكنها تلقت الطفل منه تضمه إلى صدرها فى قوة ، كأنما تحميه بجسدها من الخطر المحدق بهم .. ومزق الملك «سيف» ثوب النساء الذى يرتديه فظهر من تحته ثوبه الحربى الكامل .. وكانت «كوكب» و «مرجانة» قد اشتد عليهما الهجوم ، فأخذتا تتراجعان فى بطء وهما تقاتلان فى استبسال .. وصاح الملك «سيف» وهو يجرد حسامه ويلوح به فى الهواء فيحدث احتكاكه بالهواء أزيزًا يصم الآذان :

ـ عودا إلى داخل الزنزانة ، وأنا لهن جميعًا ..

وانقض الملك «سيف» كالنسر الغاضب ، فأطاح برأس أقرب المهاجمات إليه .. بينما دفع بقدمه فارسة كانت تتقدم عن يمينه فرماها بعنف ، وارتطم رأسها بالصخر الصلد فغابت عن وعيها ، وارتفع حسامه

من جديد ليهوى فوق جسد يتحرك عن يساره ، فارتفعت صيحة ألم رهيبة وسكتت صاحبة الصوت إلى الأبد ..

وذعرت المهاجمات ، فأسرعن يتراجعن مسرعات ، وأولهن الملكة «نور الهدى» ووراءها السجانة البدينة «زعزوعة» والملك «سيف» فى أعقابهن حتى وصل إلى أول السرداب ، وسمع صوت «نور الهدى» وهى تصيح أثناء جريها :

ـ أعلنوا النفير فى المدينة ، واستدعوا الجيش كله ، وحاصروا السجن ..

والتفت الملك «سيف» وراءه فشاهد «منية النفوس» تحمل طفلها ، وقد توهج خداها ، والتمعت عيناها ، وعن يمينها «كوكب» مشرعة السيف وعن يسارها «مرجانة» والدماء تقطر من حد سيفها ، فضحك وصاح بهن :

ـ أهؤلاء فارساتك المسلحات أيتها الوزيرة ؟!.

وصاحت «مرجانة» وهى تقترب منه :

ـ إن الكثرة تغلب الشجاعة أيها الملك ، وهن آلاف مؤلفة .!.

فقال لها الملك «سيف» وهو ينحرف مع دوران السرداب .

ـ لتتقدم «كوكب» لترينا الطريق ، فأخشى أن يكمن لنا أحد فى انحناءة من هذه الانحناءات أما عددهن فلا يخيفك فإن معنا قوة أكبر منهن تحمينا وترد كيدهن عنا ..

واندفعت «كوكب» إلى الأمام حتى تجاوزت الملك ، وسيفها مشرع فى يدها .. بينما قالت «مرجانة» وهى تقترب من الملك وإلى جوارها «منية النفوس» تحمل ولدها :

ـ أية قوة هذه التى تتحدث عنها أيها الملك ..؟.

قال الملك «سيف» وهو يواصل تقدمه ، وعيناه ترقبان الدهليز أمامه الذى كثرت فيه الظلال أثر انطفاء الكثير من المشاعل التى كانت تنيره :

ـ لو كانت «منية النفوس» لم تنس ما علمتها إياه فستخبرك هى عن القوة التى تحمينا ..

وقالت «منية النفوس» فى صوت خافت أخذ يعلو تدريجيًا ويمتلئ بالثقة كلما مضت فى حديثها :

ـ إنها قوة الإيمان يا «مرجانة» .. قوة الله الذى خلق كل شيء ، والذى نسلم له أمورنا فيحمينا من كل شيء ، ويملأ نفوسنا بالثقة فى نصره وفى عدالته .. أنها القوة التى جعلتنى احتمل العذاب ، وأصبر وأنا واثقة أن خلاصى لابد منه .. بل وخلاصكن أيضًا ، فإن من قسم الجزيرة إلى مدينتين .. واحدة للنساء وواحدة للرجال ، قد خالف شرعة الله .. قد غير مما صنعته حكمته وارادته ومشيئته ، وشرعة الله لابد لها أن تنفذ .. وكنت أقول لنفسى أن الله أراد لى أن أهرب ، وأراد لى أن أسجن وأعذب ليأتى الملك «سيف» إلى هنا ، وهو الملك المؤمن .. لا لينقذنى فقط ، وإنما ليعيد شرعة الله إلى سياقها الطبيعى ..

قالت «مرجانة» مبهورة الأنفاس ، وعيناها مثبتتان على وجه «منية النفوس» الذى أخذ يشرق بالأمل والايمان :

ـ ما أعجب هذا الذى أراه ، أتعيد إليك الكلمات قوتك ونشاطك .. إن من يسمع صوتك الآن ، ومن يرى وجهك وأنت تتحدثين ، لا يمكن أن يصدق أنك كنت حتى لحظات قليلة مقيدة إلى عمود حجرى بأقسى الاغلال وأشدها ..!.

وقطعت عليهما الحديث «كوكب» وهى تعود لاهثة وتقول :

ـ لقد أخلوا السجن كله .. لا شك أيها الملك أنك اخفتهن بضرباتك

اللاتى لم يشهدن لها مثيلاً من قبل .. ولكنهن ضربن حول السجن نطاقًا من الحراس ..

قال الملك «سيف» وهو يعيد حسامه إلى غمده :

ـ لقد جنبن أنفسهن الذبح العاجل .. وسنظل هنا إلى الصباح نعالج جراح «منية النفوس» ونعنى بأمرها .. ونتناوب الحراسة لننال القسط الممكن من الراحة لنشق لأنفسنا طريقًا بينهن إلى خارج المدينة فى الصباح ..

قالت «كوكب» وهى تجمع بعض المفاتيح من فوق الأرض :

ـ سأذهب لأتأكد من خلو السجن تمامًا ، وسأخرج باقى المسجونات ليعاوننا فى حربنا مع نور الهدى .. كما سأتأكد أن الأمر ليس فيه خدعة ..

وغادرتهم وسيفها مشرع فى يدها حتى غيبها ظلام الدهليز ..

وقالت مرجانة :

ـ يحسن أن نقصد إلى حجرة الحراسة فى أعلى السجن حتى تستطيع «منية النفوس» أن تزيل عنها آثار السجن الطويل وترتدى ملابس إحدى الحارسات ، ولعلنا نستطيع أن نحصل هناك على ما يمكن أن يرتديه الطفل ..

فقال الملك «سيف» وهو يتبعها محيطًا زوجته بيده فى حنان وحب :

ـ ولعلنا نجد هناك ما تأكله «منية النفوس» التى ذهب الجوع بقواها ..

فقالت «منية النفوس» وهى تنظر إليه وتبتسم :

ـ لقد عادت إلى قوتى منذ اللحظة التى رأيتك فيها ..

* * *

أقبلت «مرجانة» بكميات هائلة من مخزون السجن من الملابس

والسلاح والطعام ، بينما دخلت «كوكب» غرفة الحرس وهى تقول :

ـ لقد أطلقت سراح كل المسجونات وهن يزدن عن المائة سجينة الا أن الجوع والعذاب قد أفقدهن قواهن وقتل روحهن ..

فقالت «منية النفوس» التى كانت قد اغتسلت وارتدت واحدة من حلل «كوكب» وتمنطقت بحسام صقيل :

ـ هاتهن فى الصالة الكبيرة عند باب الغرفة لأتحدث إليهن .. ولنقدم لهن الملابس والطعام والسلاح وسوف نرى ما يمكن أن تفعله روح الانتقام فيهن ..

وابتسم الملك «سيف» وهو يقول :

ـ سأترككن لمهامكن العسكرية ، أما أنا فسأذهب لأتولى الحراسة عند البرج ، وأنصحكن أن تنلن كل قسط ممكن من الراحة بدلاً من إضاعة الوقت فيما لا يجدى ..

وعند خروج الملك «سيف» من غرفة الحرس طالعته صورة كئيبة بائسة ، أكثر من مائة امرأة يقبلن من كل السراديب إلى الساحة الواسعة أمام الغرفة ، بقايا بشريات يتعثرن فى مشيتهن وقد تمزقت أثوابهن وظهرت آثار العذاب على أجسادهن التى مزقتها السياط .. وفوق وجوههن التى فقدت كل معالم الحياة والأمل ، وعيونهن الذابلة التى لا ترتفع أبدًا عن الأرض ، ومشيتهن المترنحة التعسة وهن يتساندن ليستطعن المضى نحو الساحة المطلة على الغرفة صورة كاملة للعذاب المدمر الذى عشن فيه .

وهز الملك «سيف» كتفيه فى أسى ، وابتسم فى مرارة ثم أسرع فى مشيته نحو البرج .. وحين وصل إلى البرج تطلع إلى المدينة وأدهشه أنها كانت كلها مستيقظة تمامًا تعج بأنوار المشاعل التى تتحرك فى كل مكان . بينما تتعالى بين الحين والحين صيحات آمرة ممزوجة بأصوات احتكاك

السلاح وأقدام منتظمة الوقع تضرب الأرض فى قوة ونظام ..

وأدرك من الحركة النشيطة حوله أن جيش المدينة قد حاصر القلعة من كل جانب ، وأن الترتيبات النهائية تتخذ لاقتحامها عنوة عندما يتم الاستعداد .. وقدر فى نفسه أن هذا الوقت لن يحين قبيل الفجر .. وعلى الرغم من كل ما رأى الملك «سيف» من مظاهر الاستعداد والقوة لم يتطرق اليأس إلى قلبه ، بل فتح صدره يملأ رئتيه من الهواء النقى حوله ، ثم أعد لنفسه مجلسًا مريحًا يستطيع منه أن يكشف كل جوانب القلعة ، وأسند ظهره إلى الجدار خلفه ، وابتسم لنفسه وهو يقول :

ـ ليأت الغد بما يشاء ما دامت «منية النفوس» و «مصر» قد نالا حريتهما ..

* * *

لا يدرى الملك «سيف» كم مضى عليه من الوقت فى جلسته تلك ، ولا يدرى هل أغفت عيناه أم ظل مستيقظًا فقد تنبه على يد توضع على كتفه فى رقة ، وحين رفع رأسه كانت «كوكب» تقف إلى جواره وهى تبتسم وتقول :

ـ أيها الملك إنها نوبتى فى الحراسة فأذهب لتأخذ قسطك من الراحة ..

وتثاءب الملك «سيف» وقام متثاقلاً من مكانه وهو يقول :

ـ إنهم يكثرون من الحركة فى المدينة فى هذه الليلة العجيبة .. فقالت «كوكب» وهى تنظر إلى حركة المشاعل السريعة الكثيرة فى كل مكان حولها :

إنهم يستعدون استعدادًا كبيرًا بعد أن عاينوا بأنفسهم ضرباتك .. إنك وحدك أيها الملك جيش كامل ..!.

قال الملك «سيف» وهو يغادر البرج :

ـ لو كان معى أربعة فقط لما وقف أمامنا أحد « سعدون » الزنجى و « ميمون الهجام » و « سابك الثلاث » و « دمنهور الوحش » ولكن أين هم الآن .. ؟!.

وكان الليل قد ازدادت عتمته ، كما أن ضوء المشاعل قد ضعف نوره ، ولكن الملك «سيف» لم يلق صعوبة فى أن يجد طريقه نحو غرفة الحرس ، إلا أنه ما أن وصل إلى الساحة الواسعة التى تواجه الغرفة حتى وقف ذاهلاً .. فأمامه اصطفت مجموعة من الفتيات فى أردية الحرس يحملن سلاحهن كاملاً وقد بدت على وقفتهن المنتصبة المتحدية أمارات العزم والتصميم .. وامتدت يد الملك «سيف» إلى سيفه وقد حسب أن السجن قد تعرض لغزو من نوع ما وهو مقيم فى البرج ، إلا أن صوتًا مألوفًا حبيبًا صاح به :

ـ هؤلاء أيها الملك حرس السجن الجديد ..

وانبعثت ضحكة مرحة من كل مكان فى الساحة وقد التفتت الرءوس نحوه متأملة .. وعاد الصوت يقول فى مرح :

ـ وهذا أيتها الحارسات الجديدات زوجى وقائدكن نحو الحرية الملك «سيف بن ذى يزن» ..

وعادت الابتسامة تدريجيًا إلى شفتى الملك «سيف» ، وهو يتعرف فى الوجوه الباسمة التى تتطلع إليه ملامح رآها وهو يغادر الساحة من قبل ، ولكنه حين رآها منذ ساعات كانت كلها تنطق بالبؤس والشقاء واليأس القاتل المرير .. ولم يستطع أن يمنع السؤال الذى وثب إلى شفتيه ، فقال وهو يتقدم نحو « منية النفوس » التى كانت تقف عند باب غرفة الحرس :

ـ هذه معجزة أيتها الملكة ، كيف تم كل هذا التغيير ..؟!.

فقالت «منية النفوس» :

ـ إنه الأمل يا مولاى .. وهو الغضب أيضًا .. إن كل واحدة من هؤلاء ذاقت أقسى العذاب وأمره فى هذا السجن اللعين ، وفقدن فيه روحهن نفسها فلم يسبق لواحدة أن دخلت هذا السجن وخرجت منه حية من قبل .. وحين جاءت بهن «كوكب» إلى هنا كن يحسبن أنهن يسقن إلى عذاب من نوع جديد ، ولكنهن حين عرفن الحقيقة ردت إليهن الروح ، وعادت إليهن انسانيتهن التى أهدرت ، وقد ذقن فى هذه الساعات القليلة معنى الحرية ولسن جميعًا على استعداد لفقده من جديد مهما كان الثمن .. !

قال الملك «سيف» وهو يجيل النظر حوله فى دهشة واضحة :

ـ ولكنهن أيتها الملكة تبدلن تمامًا .. !.

فعادت «منية النفوس» تقول :

ـ لقد حدثتهن عنك ، عن الفارس الذى استطاع أن يصل إلى قلب السجن الرهيب دون خوف أو وجل من أجل انقاذ زوجته وابنه .. أما هن فرسالتهن أكبر لأنها تتعلق بحياتهن وحريتهن نفسها ..

وصمتت «منية النفوس» وعيناها تتألقان ، ثم عادت بنظرها إلى الملك «سيف» وقالت :

ـ إن واحدة منهن لم ترتكب جرمًا مما يمكن أن تتخيل انه أدى بها إلى السجن ، فليس هنا سارقات ولا قاتلات ولا مجرمات من أى نوع .. فهذا النوع من الجرائم له عندنا عقوبات معروفة ليس من بينها السجن ، بعضهن يعملن فى الحقول أو فى البناء أو فى كنس الشوارع وإزالة الفضلات لمدد معينة يحددها ، كما يحدد نوع العمل الذى يقمن به ، طبيعة الجريمة المرتكبة .. أما الحبس فى السجن مع العذاب فهو للمعترضات .. إن كل واحدة من هؤلاء وجدت فى نفسها الجرأة يومًا أن تقول لا .. لا ، ضد قتل أنوثتهن .. لا ، ضد النظام الصارم الذى يعشن

فيه لصالح المدينة دون مجال لرغباتهن الشخصية .. لا ، ضد عبودية الطوابير ، الطعام بطوابير والرياضة بطوابير واللعب بطوابير ..

وتذكر الملك «سيف» المنظر الذى رآه فى الصباح عند حضوره إلى المدينة ، تصفق الوزيرة «مرجانة» فيصمت كل صوت وتنتظم الطوابير ، وتصفق الوزيرة «مرجانة» فترتفع الضحكات ويبدأ اللعب والمرح ، وتصفق الوزيرة «مرجانة» فيصحن «عاشت الملكة» وتصفق الوزيرة «مرجانة» فيبدأ الطعام ، وتصفق الوزيرة «مرجانة» ..

وقطع صوت الملكة «منية النفوس» حبل أفكاره ، وكانت تقول مكملة حديثها :

ـ وليس لأولئك عندنا من عقوبة إلا السجن مع العذاب حتى الموت ..

ولم يخف الملك «سيف» دهشته وهو يقول :

ـ هذه جريمة جديدة لم أسمع بها من قبل ..

وضحك ضحكة باهتة وهو يرقب الوجوه التى تتطلع إليه فى فضول ، بينما عادت «منية النفوس» تقول :

ـ سنذهب جميعًا لننال قسطنا من الراحة والنوم استعدادًا ليوم الغد العصيب ، ولتختر كل منكن أحسن مكان تعثر عليه لتنام فيه ..

وارتفعت الضحكات من كل جانب ، كما سمع الملك «سيف» وهو متجه إلى الحجرة أصواتهن المتحمسة ، وهن يتبادلن التعليقات ، ويدخلن فى مناقشات متعددة الموضوعات ، وقد بدأت كل منهن تتجه إلى ناحية .. وحين دخل الملك «سيف» الحجرة راعه ما بدا فيها من نظام وترتيب ونظافة ، وكانت «مرجانة» تنام فى زاوية من الحجرة وسيفها إلى جوارها ، بينما كان ابنه «مصر» يرتدى ثوبًا نظيفًا وقد أزال الماء كل آثار

القذارة التي كانت عالقة بوجهه ويديه .. واتجه إليه الملك حيث كان ينام فوق فراش وضع بوسط الحجرة ، وقبله بين عينيه ، ثم مضى يتأمله فى سكون ..

وسمع صوت «منية النفوس» وراءه وهى تقول :

ـ لقد بكى كثيرًا عندما استيقظ ، وبكى ونحن نغسل له جسده ، وبكى أكثر ونحن نطعمه من الطعام الجيد الذى وجدناه مخبئًا للحارسات .. واشتد بكاؤه حين أرقدناه فوق هذا الفراش ، وقد ظل قلقًا فترة طويلة حتى استطاع أن يستسلم للنوم .. فقد كانت كلها أشياء جديدة لم يتعود عليها منذ بدأ يعى ما حوله ..

ونظر إليها الملك «سيف» ومضى يتأملها .. كان التغيير الذى حدث لها شاملاً ، فقد تدفق الدم إلى وجنتيها فتوردتا بعد شحوب ، والتمعت عيناها حماسًا وأملاً بعد نظرة الهمود واليأس التى أدمت قلبه عندما رآها أول مرة ، وأخفى الثوب النظيف الذى ارتدته معالم العذاب التى كانت تنطق بها بشرتها .. وكان للسيف فى يدها منظر غريب بعد تلك القيود التى كانت تشل نفس اليد منذ ساعات عن الحركة .. ولاحظت «منية النفوس» نظرته المتفحصة فقالت :

ـ لا تدهش أيها الملك ان أمامى رسالة خطيرة لابد أن أحققها ، وقد بعثتك العناية الإلهية التى لا تغفل ليكون تحقيقها على يديك .. ولهذا نسيت كل ما مر بى ، ولابد أن ننتصر فى الغد أو نموت ، وكل واحدة ممن رأيت قد صممت أن لا عودة إلى السجن من جديد ..

فابتسم الملك «سيف» وهو يقول :

ـ إن ما يدهشنى هو حديثك عن الجرائم التى زجت بهن فى السجن ..

فقالت «منية النفوس» :

ـ إنها الحقيقة أيها الملك .. ففى مدينتنا كل الحاجات المادية التى يريدها الإنسان متوفرة للجميع ، وفى سبيل هذا يسود النظام الدقيق حياة من يعيشون فيها .. ولكن الذى نفتقده فى مدينتنا هو الحاجات الروحية التى تبدو لك من الأمور المسلم بها فى عالمك ، ولكنها هنا ممنوعة .. وكنا هنا لا نفهم سر تمرد أى واحدة فى سبيل كلمات لا معنى لها عندنا .. ولكن بعد أن عشت معك وعرفت فيك معنى الله ، ومعنى الإيمان ، امتلأت روحى كلها بنور جديد جعلنى وأنا فى السجن أفهم سر تلك الرغبات التى كنا نسميها جرائم وكنا نعاقب عليها أشد العقاب ، بل لقد كانت المعاقبات منا يتقبلن العقاب مستسلمات كالمريضات اللاتى يستسلمن للدواء الذى لابد منه .. ولكنى علمتهن أنه ليس مرضًا وإنما هو حق ، وأن المريض هو المدينة نفسها التى تحرمهن حتى من أنوثتهن .. ولهذا أيها الملك كان حماسهن الذى ترى ، وكان تصميمهن الذى أدهشك ، وكان هذا التغيير فى وفيهن الذى أثار ذهولك وحيرتك ..

قال الملك «سيف» وهو يهز رأسه فى فهم :

ـ لقد كنت أحسب أننى شاهدت كل ما فى أرضكن من عجائب بعد عبور هذه الجزر الملعونة التى تفصل جزيرتكن عن العالم .. ولكننى الآن أرى أكثر العجائب غرابة ..

قالت «منية النفوس» وهى تبتسم فى اعتزاز :

ـ إذن فقد فهمت ما أعنى أيها الملك ..

فقال الملك «سيف» وهو يرقد إلى جوار طفله :

ـ نعم .. ومن الآن لن تكون مهمتى انقاذك وابنى من السجن ، بل ستكون مهمتى إنقاذ سكان هذه المدينة ، وسكان المدينة الأخرى التى

تعيش على الجانب الآخر من النهر من السجن الكبير الذى يعيشون فيه ..

* * *

مع الاشعة الأولى للفجر فتح الملك «سيف» عينيه ، وكان كل شيء ساكنًا حوله .. وأدار بصره فى الحجرة فلمح «منية النفوس» نائمة إلى جوار ابنه «مصر» ولكن «مرجانة» لم تكن حيث رآها قبل أن ينام ، وإنما كانت «كوكب» تنام مكانها والسيف إلى جوارها .. وأدرك الملك «سيف» أن «مرجانة» قد حلت محل «كوكب» فى برج الحراسة .. وقام الملك «سيف» من مكانه فى هدوء ، ومضى متجهًا نحو البرج وهو يحاذر أن يصدر صوتًا ينبه النائمين الذين كان يدرك حاجتهم إلى كل قسط من الراحة يحصلون عليه...

* * *

وحين وصل الملك «سيف» إلى البرج ، وجد «مرجانة» .. تحدق تجاه باب السجن ووجهها شاحب القسمات يزيد شحوبة وضوحًا أشعة الفجر الوليد وهى تنعكس عليه ، ودون أن تبادله كلمة واحدة أشارت إلى ناحية الباب ، والتفت الملك «سيف» متتبعًا إشارة يدها .. واشتدت خفقات قلبه وهو يرى هذه الحشود الغفيرة التى وقفت فى نظام عسكرى دقيق تستعد لاقتحام السجن على من فيه .. وأدرك الملك سيف أنه إن توانى عن مقابلتهم اقتحموا باب السجن دون عناء وتدفقوا إليه من فوق أسواره فى أعداد هائلة كثيرة .. فصاح فى «مرجانة» وهو يتجه مغادرًا البرج فى عجلة :

ـ سأنزل لملاقاتهم لعلهم يشغلون بالمبارزة والصدام عن اقتحام السجن وتسلق أسواره ، وعليك بايقاظ «كوكب» و «منية النفوس»

والأخريات ، ولتلحقوا بي عند الباب علنا نستطيع اختراق صفوفهن إلى خارج المدينة ..

ولا يدرى الملك «سيف» هل أجابته «مرجانة» على حديثه ، أو هل فهمت معنى هذا الحديث لأنه فى اندفاعه لم يلمح سوى صفحة وجهها تطل منها نظرة رعب ويأس حقيقية .. ولكن لم يكن هناك وقت يضيعه فى تطييب خاطرها وإعادة الأمن إلى نفسها .. وما كاد يصل فى اندفاعه إلى الباب الخارجى للسجن حتى وصلت إلى سمعه فى وضوح أصوات الجيش اللجب الذى يأخذ مكانه خارجه .. ولم يتمهل الملك بل أسرع يفتح الباب على مصراعيه ويخرج إلى الدرجة العريضة التى تعلو عدة درجات تؤدى إلى ميدان واسع يموج كله بفتيات مدججات بالسلاح ..

وما أن ظهر الملك «سيف» عند حافة الباب حتى ساد الميدان كله صمت عميق .. وأخذ الملك «سيف» ينظر إليهن فى سكون وابتسامة هادئة تتراقص على شفتيه .. وفجأة مزق هذا السكون صوت آمر فيه غلظة وجفاء فأخذت الصفوف تنتظم فى سرعة ، والتفت الملك «سيف» إلى حيث صدر الصوت فازدادت ابتسامته اتساعًا لقد كانت الحارسة البدينة التى وشت به .. إنه يذكر أن اسمها «زعزوعة» لعل «نور الهدى» لم تجد أصلح منها لتتولى مكان «مرجانة» بعد أن أصبحت «مرجانة» فى صفه وصف «منية النفوس» ..

وعجب الملك «سيف» كيف تستطيع رغم بدانتها الشديدة أن تتحرك بسرعة ونشاط ، فهى تارة فى أقصى الصف من اليمين ، وهى تارة أخرى فى أقصاه من اليسار .. وأدرك أن هذه الحارسة البدينة لا يحركها الولاء ، وإنما تحركها دوافع أخرى أشد عنفًا وقسوة .. إنها الكراهية والحقد ، فلعلها كانت تنفس على «مرجانة» مكانها أو لعلها كانت تنفس على

«كوكب» مكانها .. وربما كانت تغار من «منية النفوس» إن ظفرت بزوج وطفل .. وربما .. ولكنه لم يجد وقتًا ليسترسل فى أفكاره ، فقد ظهرت «نور الهدى» تركب جوادًا أبيض تحيطها كوكبة من الفارسات المدججات بالسلاح ، وعاد السكون يخيم لظهورها من جديد على الميدان كله ..

واتجهت الملكة «نور الهدى» رأسًا إلى حيث يقف الملك «سيف» وحين وصلت أمامه تمامًا وقفت وخلفها حرسها ، ثم اعتدلت على ظهر جوادها وقالت :

ـ أيها الملك .. إننا لم نقدرك حق قدرك أمس .. ولكننا قد أحطنا المدينة بالحرس من كل جانب وحشدنا لك قواتنا كلها وليس لك من مهرب مهما كانت قوتك وشجاعتك .. وقد كنت أنتوى أن أقتحم عليك السجن بعد لحظات ولكنك خرجت بنفسك إلينا .. فهل خرجت لتسلم نفسك ومن معك ..؟.

وقال الملك «سيف» فى أدب وهدوء :

ـ أيتها الملكة إن مثلى لا يسلم نفسه وبه نفس يتردد ، وإن سلمت نفسى فلست أسلم من يلوذ بى ويحتمى بسيفى ..

وملأ الغضب وجه الملكة «نور الهدى» وعلا صوتها وهى تقول :

ـ لقد كنت أحسبك تريد أن تحقن الدماء ..

وارتسمت ابتسامة هادئة على شفتى الملك «سيف» وهو يقول بنفس الصوت الهادئ :

ـ دماء من أيتها الملكة ؟.. أنت بنفسك تقولين إنه لا مهرب لنا .. فدماؤنا إذن لن تحقن سواء سلمنا أنفسنا أو حاربنا دونها .. وخير لنا أيتها الملكة أن نموت وسيوفنا فى أيدينا من أن نذبح ذبح النعاج ..!.

وازدادت رنة الغضب فى صوت الملكة «نور الهدى» وهى تصيح :

ـ إن هذا جنون ، فليس لك مهرب مهما فعلت ..!.

ثم توقفت فجأة عن اكمال الحديث وهى تنظر خلفه فى غضب متزايد ، بينما ارتفعت همهمة مكتومة من الصفوف المصطفة أمامه .. والتفت الملك «سيف» وراءه ليرى الملكة «منية النفوس» قد وقفت فى فتحة الباب ، وإلى يمينها «مرجانة» وإلى يسارها «كوكب» ووراءها مجموعة من السجينات وقد ارتدين زى الحارسات والسيوف المشرعة تلمع فى أيديهن .. وعاد صوت «نور الهدى» فى صراخ غاضب :

ـ أيتها المتمردة التعسة .. هل تجرؤين على الوقوف فى وجهى .. والوزيرة الخائنة ورئيسة الحرس الغادرة ..

ثم التفتت إلى الملك وهى فى أوج انفعالها وصراخها وقالت :

ـ أهذا جيشك أيها الملك ؟.. واحدة تمردت على نظامنا وقانوننا وخائنتان نسيتا ما رفعتهما إليه من مكانه وأسبغته عليهما من عطف .. ومجموعة من المجرمات السجينات المقضى عليهن بالهلاك ..؟!.

وعادت الابتسامة إلى وجه الملك وهو يقول :

ـ أنت ترين أيتها الملكة أنه جيش يائس ، حكمت عليه مدينتكن بالموت ، ولكنه يريد أن يقتص لنفسه قبل أن يموت ، وأؤكد لك أن قصاصه سيكون رهيبًا ..

ولم ترد عليه الملكة وإنما استدارت بجوادها وهى تشير بيدها وتصيح فى عنف نفس الصيحة التى سمعها منها بالأمس فى القبو المظلم داخل السجن :

ـ مزقوهم ..!.

واندفعت الفتيات كالسيل الهادر ، وامتشق الملك «سيف» حسامه وهو يتلق الطعنات الموجهة إليه فى مهارة وحذق، ويصيح للواقفات خلفه :

ـ اغلقن باب السجن ولتقف منكن مجموعة تحمى ظهرى ..

ولم يلتفت الملك «سيف» خلفه ليتأكد من أن أمره قد نفذ .. ولكنه أحس وهو يضرب بكل قوة وعنف ، ويتحرك فى مهارة وحذق متفاديًا الطعنات التى تأتى من كل مكان أن وراءه أكثر من خمسين سيفًا تحمى ظهره ، وتقطع الطريق على الضربات الغادرة التى تريد أن تناله من الخلف .. وسمع وسط صليل السيوف وصيحات الذعر والألم وصرخات الحماس والغضب صوت الباب الضخم وهو يصطفق فى قوة وعنف ..

وكان الملك «سيف» كلما رد موجة من موجات الهجوم ، تلتها موجة أخرى أشد حماسًا وأكثر تصميمًا وعزمًا .. وكانت ضرباته القاطعات تحدث أثرها الحاسم فى خلخلة صفوف الفتيات وبث الذعر فى قلوبهن فيتراجعن ليبدأن هجمة جديدة ..

وكان الملك «سيف» يضرب فى قسوة وعنف وصرخات الألم ترتفع حوله وإحساس بالمرارة يملأ نفسه ، فما خلق السيف لهذه السواعد الرقيقة التى لا تجيد استعماله ، وما حمل هو سيفه ليمزق بها مثل هذه الأجساد الهشة التى تتهاوى فى سرعة غريبة أمام ضرباته العاتية .

ومضت الدقائق بطيئة متثاقلة ، وضوء النهار يشتد ويقوى ويسيطر على الكون كله ، ليكشف أمام الملك «سيف» هذا المشهد الغريب الذى يواجهه .. مئات من الفارسات يقفن فى انتظار دورهن للانقضاض عليه إذ أن المدخل المؤدى إلى المكان الذى يقف فيه لم يكن يسمح لأكثر من عشرة للهجوم فى وقت واحد ، وعشرات الأشلاء البشرية الدامية تتناثر حوله ، وجثث عديدة تختلج اختلاجات الألم والاحتضار تملأ الساحة أمامه ..

كن كنعجات موسومات يسقن إلى الذبح فى خرافة ضخمة تملأ

رءوسهن الصغيرة التى لا تعرف من أمور الحياة والناس شيئًا .. خرافة تقول إنهن فداء نظام المدينة الذى ينبغى أن يسود مهما كان الثمن ومهما كان عدد الضحايا .. وسيفه فى يده يدور ويدور ، وضرباته تشتد وتعنف ، وأصداء المعركة التى تدور حوله ومن خلفه بين من يحمين ظهره والمهاجمات الشرسات تصل إلى ذهنه مختلطة بصيحات آمرة من هناك من آخر الميدان حيث تقف «نور الهدى» تشرف من فوق جوادها على المذبحة ، والحارسة البدينة تروح وتغدو فى سرعة وعصبية وهى تصدر الأوامر اللاهثة ذات اليمين وذات اليسار ..

وأحس الملك سيف بالخدر يملأ ذراعه ، وبالسأم يتسلل إلى نفسه ، وبالعرق البارد ينداح على جبهته ، حين سمع صوت «مرجانة» من ورائه تقول فى صوت حاد :

ـ عد إلى الوراء أيها الملك سنحل محلك حتى تستريح ..

وبينما كان يتراجع وسيفه يتحرك بسرعة رادًا الهجمات السريعة المتلاحقة التى تريد أن تعوق انسحابه ، شاهد «مرجانة» وهى تتقدم على رأس أكثر من خمسين من السجينات المسلحات يحتللن مكانه الذى كان يقف فيه ، ويتلقين الهجمات العاتية بصبر وشجاعة وحماس .. وأنزل الملك «سيف» حسامه وهو يقطر دمًا ، وأحس بيد رقيقة على كتفه وصوت «كوكب» وهو يقول :

ـ إلى الداخل أيها الملك فأنت لم تتناول إفطارك بعد .. وهناك ماء ساخن لتغتسل من هذه الدماء التى علقت بك وتستعيد نشاطك ..

ونظر الملك «سيف» إلى عينيها الملتهبتين حماسًا وعزمًا ، وابتسم ابتسامة فاترة ، ودخل إلى السجن من الباب الذى فتح على الفور أثر طرقة من قبضة حسام «كوكب» .. ونظر الملك «سيف» وراءه قبل أن يغلق الباب

خلفه .. وكانت المعركة محتدمة فى عنف وقسوة ، وكانت فتيات «مرجانة» يتشبثن بأماكنهن فى إصرار وعناد تتكسر عندهن كل موجات الهجوم المنظم الذى يندفع نحوهن من الساحة .. وشاهد وهو يغلق الباب أكثر من واحدة منهن تتهاوى إلى الأرض أثر طعنة أصابتها ، وشاهد مجموعة من الفتيات يقفن خلف مجموعة «مرجانة» يسرعن إلى من تسقط ليحملنها إلى الخلف ، بينما تحل منهن واحدة مكان من سقطت فى المعركة ..!.

وحين أغلق الملك «سيف» الباب وراءه شاهد منظرًا غريبًا ، فقد كانت مجموعة أخرى من الفتيات ينتظمن وهن يستكملن أسلحتهن و «كوكب» تتحرك بينهن لتتأكد أن كلا منهن قد حملت ما يكفيها من السلاح ، بينما كانت «منية النفوس» تشرف مع مجموعة صغيرة من الفتيات على علاج المصابات وتضميد جراحهن .. وحين شاهدته «منية النفوس» قالت وهى تترك ما بيدها وتسرع نحوه :

ـ إن من يراك أيها الملك يظن أنك كنت تسبح فى بحر من دماء ..

فقال الملك «سيف» وهو ينزع عنه سيفه :

ـ ولن يكذب ظنه ، فقد كنت فعلاً أسبح فى بحر من الدماء !.

ولم تلتفت «منية النفوس» إلى ما بلهجته من مرارة فاستمرت تقول :

ـ لقد أبليت أيها الملك بلاء حسنًا ، وسنحل محلك حتى تستريح وتأكل لتكون على أهبة الاستعداد للنزول إلى الميدان من جديد .. «مرجانة» وفتياتها أولاً ، ثم «كوكب» وهؤلاء الفتيات الباسلات ، ثم أنا والباقيات ..

وابتسم الملك «سيف» فى مرارة وهو يقول :

ـ لن يكون هناك وقت لكل هذا ، فليس كل ما مر حتى الآن إلا مناوشات ، أما الهجوم الحقيقى فلم يبدأ بعد .. وساعتها لن يكون هناك

مجال لكل هذه المناورات .. فأجفلت «منية النفوس» وهى تقول :
ـ مناوشات .. ماذا تعنى أيها الملك ؟.
فقال الملك «سيف» وهو يتجه نحو إناء الماء الساخن الذى رآه عند الحائط :
ـ إننى أفهم خطة «نور الهدى» أنها تريد أن تنهكنا وتضعفنا أكبر وقت ممكن ، فإذا ما تأكدت أننا استنفدنا كل قوانا بدأت هجومها الكبير لنسقط فى يدها لقمة سائغة ..
فقالت «منية النفوس» وهى تسرع نحوه حاملة مجموعة من المناشف النظيفة :
ـ ولكن لماذا ؟..
فابتسم فى مرارة وهو يغمس يديه فى إناء الماء ويقول :
ـ إنها تريدنا أحياء ، ولا يهمها من يقتل من فتياتها .. كل ما يهمها هو أن نقع بين أيديها أحياء لتجعل منا أمثولة لكل من يفكر فى التمرد .. !.
ثم غمس رأسه فى الماء الدافئ ومضى يزيل ما علق بوجهه وساعديه وجسده من آثار الدماء فى صمت .. بينما كانت «منية النفوس» تقف إلى جواره تنظر إليه فى صمت ووجوم ..

* * *

عندما انتهى الملك «سيف» من طعامه السريع كانت «كوكب» تخرج بفتياتها لتحل محل «مرجانة» بينما كانت «مرجانة» ومن تبقى من فتياتها يتراجعن إلى داخل السجن وقد حملن جرحاهن العديدات ، وهن يتساندن فى سيرهن البطىء المتهالك .. ولم تكن قد بقيت منهن فى حالة تصلح لاستئناف القتال إلا مجموعة ضئيلة جدًا سرعان ما أرتمين على الأرض إعياء واجهادًا .. بينما تقدمت «مرجانة» نحوه ونحو «منية النفوس»

وهى تغتصب ابتسامة تضعها فوق وجهها المجهد :

ـ لسنا فى قوتك أيها الملك ومع هذا فلم يتمكن من زحزحتنا إلا قليلاً عن أماكننا ..

وابتسم الملك «سيف» فى وجهها وهو يقول :

ـ إننى لم أشهد من هو أبسل منكن أيتها الوزيرة .. وقد حان دورك لتنالى قسطك من الراحة ..

وتقدمت منها «منية النفوس» تقبلها وهى تقول :

ـ لقد زججت بك فى كل هذا يا «مرجانة» أنت و «كوكب» ، وما كان أغناكن عنه ..

وقاطعتها «مرجانة» فى صوت حاد :

ـ لا تحملى نفسك لومًا فى غير محله .. لقد كان هذا يملأ قلوبنا كلنا من زمن ، وقد أتحت أنت الفرصة لنا لنعرف أنفسنا .. إن هذه الساعات القليلة التى عشناها وسيوفنا فى أيدينا تعدل كل ما ضاع من عمر بلا شىء سوى تنفيذ الأوامر التى لا نفهم لها معنى ..

ووقف الملك «سيف» واتجه نحو باب السجن قائلاً :

ـ ليس هناك وقت يضيع فى تبادل اللوم والمجاملات فأظن أن وقت الجد قد اقترب ..

وحين خرج الملك «سيف» من الباب لتغمر وجهه أشعة شمس النهار التى بدأت تتجه نحو كبد السماء أدرك مدى الموقف اليائس الذى تقفه فتيات «كوكب» الباسلات .. فقد سقطت أكثر من واحدة منهن دون أن تتمكن الأخريات من التقدم لرفعهن إلى داخل السجن ، بينما أخذت الفتيات يتراجعن فى بطء أمام الهجوم القوى الذى يواجههن .. وأسرع يمتشق حسامه ويندفع مسرعًا إلى وسط المعركة وهو يصيح «كوكب» :

ـ إلى الوراء .. إلى الوراء ..

وساد الميدان الصمت لحظات لصرخته ، ثم بدأت «كوكب» تتراجع فى نظام ، بينما صاحت السجانة البدينة فى وحشية وهى تتقدم على رأس مجموعة كبيرة من الفتيات :

ـ هذا هو خذوه .. !.

وصدمه موج الهجوم بعنف فتقهقر مدافعًا ، وقد دهش من الأعداد الهائلة التى أخذت تتدفق عليه من أمام ومن يمين ومن شمال .. والسيوف تلمع فى ضوء الشمس ينعكس وهجها على صفحاتها المصقولة فيكاد يعمى العيون ، والضربات تتوالى بسرعة وقوة وكثرة متزايدة .. وسمع صيحة «كوكب» من خلفه وهى تندفع لتصد مجموعة كبيرة تتقدم من اليسار فى اندفاع :

ـ من هنا يا فتيات ، ولتذهب واحدة لتستدعى الباقيات ..

وأدرك «سيف بن ذى يزن» أن الهجوم الكبير الذى توقعه قد بدأ بالفعل .. وما لبث أن سمع صيحة «مرجانة» وهى تندفع مع فتياتها إلى اليمين صارخة بهن :

ـ أذيقوهن طعم ماذقناه أيتها الفتيات ..

وبينما كان الملك «سيف» يلمح باعجاب ضربات الفتيات اليائسة المستبسلة عن يمينه ويساره سمع صيحة يأس من السجن .. وعرف فى الصوت ، صوت «منية النفوس» وهى تصرخ :

ـ لقد بدأن يتسلقن حوائط السجن .. ردوهن بالسيوف .. !.

وأدرك الملك «سيف» وهو يضرب بحسامه أن الدفاع عن السجن أصبح متعذرًا ، فصاح وهو يقاتل فى عنف ليجد لنفسه طريقًا نحو مجموعة «كوكب» التى عزلتها المهاجمات تمامًا :

ـ لا فائدة فى السجن ، أتركيه وتعالى مع من بقى إلى هنا ..

وحين وصل إلى جوار «كوكب» صاح بها وهى تطيح برأس إحدى المهاجمات :

ـ هذه ضربة صائبة .. إجمعى فتياتك واتبعينى ..

وأسرع يشق لنفسه ولهن طريقًا بسيفه متجهًا نحو مجموعة «مرجانة» التى كانت تقاتل قتال اليائسات وقد كثرت فيهن الجرحى الداميات .. وما أن وصل إلى جوار «مرجانة» و «كوكب» تتبعه حتى صاح فيها :

ـ كونى بفتياتك نصف دائرة ورائى ولنشق الطريق نحو «منية النفوس» ..

وكانت «منية النفوس» قد خرجت من السجن تحيط بها السجينات ، وهن يقاتلن قتالاً يائسًا ليحمينها بينما حملت هى طفلها المذعور فى يد وأمسكت فى يدها الأخرى بسيفها ترد عنها الضربات التى تنوشها من كل مكان .. وكان منظر مجموعة «منية النفوس» منظرًا يائسًا مخيفًا ، فمعظم الفتيات حولها من الجريحات اللاتى سقطن فى الجولة الأولى ، ومع هذا فقد أدركن أن الإستسلام للألم والضعف لا معنى له إلا الموت .. وهكذا عدن يحملن السيوف ليواجهن الموت بأنفسهن بدلاً من انتظاره عاجزات راقدات ..

واستطاع الملك «سيف» بعد جهد عنيف أن يصل إليها فى طريق ملىء بالصريعات والقتلى اللاتى أزاحهن بسيفه من الطريق .. وسرعان ما كانت السجينات الباقيات يكون دائرة تتجه بوجوهها نحو المهاجمات ويتراجعن فى الطريق الذى يشقه الملك «سيف» لهن بسيفه و «منية النفوس» وابنها فى الوسط ، والمجموعة كلها تتحرك ببطء قاتل فى اتجاه سور المدينة ..

وفى كل خطوة تسقط واحدة منهن صريعة طعنة قاتلة ، وفى كل

خطوة تتهاوى أكثر من واحدة إعياء وعجزًا عن الاستمرار بعد أن فقدت دمها الذى ينزف من جراحها الكثير.. واشتد وهج الشمس واختلط العرق بالدماء والطريق لا ينتهى ، والسور ما يزال بعيدًا ، والمهاجمات يتدفقن فى كثرة رهيبة وصوت «نور الهدى» يدوى فى انتصار ، وصوت السجانة البدينة يصرخ ويصرخ ، والملك «سيف» يضرب ويضرب ، وخطوة خطوة يزداد اقترابه من السور تزداد الدماء العالقة بسيفه ووجهه وجسمه ..

ونظر الملك «سيف» حوله ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة مريرة .. فلم يبق من مجموع السجينات أكثر من قبضة لا تزيد على العشرين ، بينما نال الاجهاد والتعب من الباقيات . وأحس هو بالخدر يدب إلى ذراعه ، والجفاف يملأ حلقه ، والعرق ينثال من جبهته إلى عينيه . وأدرك أن النهاية قد باتت قريبة ، وأنه لن يستطيع مهما فعل أن يصل إلى السور .. وسمع وراءه صرخة صوت يعرفه تمامًا ، وأدار رأسه ويده ما تزال ترد بطعناتها السيوف الموجهة إليه ، وشاهد ــ وشىء يعصر قلبه ــ «منية النفوس» وهى تتهاوى أعياء على الأرض وابنها إلى صدرها يصرخ فى جزع ورعب ..

ولم يكن يستطيع شيئًا ، فأخذ يتراجع حتى وقف عند رأسها يدفع عنها بسيفه المجموعة المسعورة من المهاجمات اللاتى اندفعن نحوها تتقدمهن السجانة البدينة التى كانت تقفز وتتواثب كأنما ترقص رقصة الموت .. واندفع الملك «سيف» يطيح من حولها من الفتيات بضرباته القوية ، ثم انقض عليها قبل أن تفيق من دهشتها ورفعها بيده اليسرى ثم قذف بها فوق سيوف المهاجمات اللاتى تصايحن فى فزع ، ولكن بعد أن نفذت سيوفهن إلى جزء من جسد قائدتهن الحاقدة .. وعاد يقف وإلى جواره

«كوكب» و «مرجانة» وخمسة باقيات من السجينات فوق جسد «منية النفوس» الغائبة عن الوعى يتلقون الضربات الحانقة المهتاجة ..

وقال الملك «سيف» لـ «مرجانة» فى صوت ملىء بالمرارة :

ــ هذه هى النهاية أيتها الوزيرة الباسلة ..

ولكن قبل أن يسمع إجابة «مرجانة» على جملته .. سمع الجميع صيحة حادة نافذة .. من صوت غريب شاذ لا ينتمى إلى صوت الآدميين يصيح فى صوت داو :

ــ يا أهل مدينة البنات جاءكم ستون ألفًا من الفرسان من مدينة دوريز كلهم على الإيمان وملكهم قان شاه الزمان ..

وخيم على ميدان المعركة وجوم كامل وقد بدت علامات الذعر على كل الوجوه .. وسمع الملك «سيف» صوت «مرجانة» وهى تقول فى صوت متهدج :

ــ إنه التمثال المرصود ..

وعاد الصوت من جديد يصيح :

ــ يا أهل مدينة البنات جاءكم الموت على يد المؤمنين ، وأول من يقتل أنا ، وترتاح بموتى حراس مدينتكم من الأرصاد ..

ثم ارتفع صوت صاخب قوى .. وهوى شىء ثقيل إلى الأرض فى دوى يصم الآذان ..!.

- ١٣ -

ساد الصمت والوجوم المدينة كلها ، ثم تعالى فجأة صياح ظافر ، وبدأت دقات قوية رهيبة فوق باب المدينة الذى بدأت أخشابها تتهاوى فى أصوات تصم الآذان ، وصاحت «نور الهدى» وهى تلوح بسيفها ، وتتجه نحو باب المدينة :

ـ إلى الأسوار وردوهم بالحجارة .. وليتبعنى الباقيات لنرد الهجوم عند الباب ..

وكأنما كانت كلمات «نور الهدى» هى إشارة الحياة ، إذ بدأ كل شىء يتحرك فى الميدان الكبير ، وعلت الصرخات وقائدات الفتيات يوجهنهن منفذات لأوامر الملكة ، واتجه جزء إلى شرق المدينة مسرعات بينما اندفع جمع كبير فى الاتجاه الذى سارت فيه «نور الهدى» .. وتفرقت الأخريات فى اتجاه غرب المدينة على عجل .. وما هى إلا دقائق حتى خلا الميدان الكبير إلا من الملك «سيف» ومن معه يقفون وحدهم وسط بركة من الدماء ومجموعة من الحطام والأشلاء الممزقة .. والتفت الملك «سيف» إلى «مرجانة» قائلاً :

ـ احملى «منية النفوس» إلى داخل السجن من جديد .. ولتحمل الباقيات منكن الجريحات إلى الداخل أيضًا .. وسأرى ما فى الأمر وأعود لنقرر أمرنا ..

فقالت «مرجانة» وهى تنحنى على الملكة التى فقدت رشدها :

ــ إن الأمر يبدو كالسحر ..

قال الملك «سيف» :

ــ ليس فى الأمر سحرًا وإنما هى عناية الله ورعايته ..

ثم التفت إلى «كوكب» قائلاً :

ــ لا تترك واحدة منكن سلاحها حتى أعود ، ولتغلقن باب السجن كما كان ..

ثم أغمد سيفه وأسرع متجهًا ناحية الباب الكبير للمدينة ، وأصوات معركة محتدمة تتعالى وتشتد كلما زاد اقترابه منه .. وحين اقترب من الباب طالعه مشهد المعركة اليائسة التى تخوضها فتيات المدينة ضد جيش قوى مدرب من الفرسان الأقوياء .. ولم يطل الأمر كثيرًا ، فسرعان ما انهزمت الفتيات وأسرعن صارخات إلى داخل المدينة وفى مقدمتهن «نور الهدى» وحرسها الخاص ، بينما اقتحم الجيش الغازى المدينة وصيحات الانتصار تدوى من الفرسان المتقدمين .. ولم يتردد الملك «سيف» كثيرًا ، بل أسرع يقفز فوق أحد الجياد الشاردة ويندفع خلف الملكة الهاربة .. وعجب الملك «سيف» حين رأى الملكة لا تتجه نحو الأسوار لتجد لها منفذًا إلى خارج المدينة ، بل كانت تتوغل إلى داخل المدينة نفسها ..

وسرعان ما عرف اتجاهها حين رأى قصرًا أبيض صغيرًا يلوح فى نهاية الطريق الطويل الذى تندفع فيه الملكة بكل ما فى جوادها المنهك من قوة وسرعة .. وحين وصلت الملكة «نور الهدى» إلى باب القصر قفزت من جوادها وأسرعت إلى الداخل دون أن تنظر خلفها .. وما هى إلا ثوان معدودات حتى كان الملك «سيف» يترجل أمام باب القصر ويندفع خلاله إلى قاعة واسعة شاهد فى نهايتها بابًا

مفتوحًا .. ولم يتردد الملك فى أن يقطع القاعة جريًا ويقتحم الباب فى عنف وحسامه فى يده ..

وأجفلت الملكة والتفتت خلفها .. وما كادت تراه حتى سقط الثوب الذى كانت تمسكه فى يدها ، وعرف الملك الثوب فى الحال فقد كان شبيهًا بالثوب الريش الذى كانت ترتديه زوجته «منية النفوس» .. وأفاقت «نور الهدى» من ذهولها فاندفعت نحو الثوب تريد أن تلتقطه من فوق الأرض .. ولكن الملك «سيف» كان أسرع منها ، إذ انحنى يمسكه فى يده وهو ينظر إليها باسمًا ويقول :

ــ إلى أين أيتها الملكة ؟.. لست أظن أن قلبك يطاوعك على ترك المدينة وحدها ..

وهنا حانت من الملك «سيف» نظرة إلى صندوق كبير قد رفع غطاؤه وظهرت فيه مجموعة كبيرة من الثياب الريش .. وتقدم الملك «سيف» من الصندوق وهو يقول :

ــ أحسب أن هنا أربعين ثوبًا صالحًا للطيران .. أى أن أمامك أربعين فرصة للهرب ..

وكان وجه «نور الهدى» شاحبًا ، وشفتاها متقلصتان ، بينما كانت ترقب الملك بعينين متوجستين .. وازدادت ابتسامة الملك «سيف» وهو يقول :

ــ بل لعلهم ليسوا أربعين ..

ثم نظر إليها وقال :

ــ ألم يزيدوا واحدًا عندما جاءت «منية النفوس» ..

ورفع الثوب الذى يمسكه بيده أمام عينيها ، وقال ساخرًا :

ــ لعله هذا ..!.

ولم تستطع «نور الهدى» أن تظل على تماسكها ، فصاحت صارخة وهى تنظر إليه فى تحد :

ـ إذا كنت تريد أن تقتلنى أيها الملك انتقامًا لما فعلته فى «منية النفوس» فأسرع ، وضربه واحدة من حسامك تنهى كل شىء ..

فابتسم الملك وهو يقول :

ـ ولماذا الإسراع أيتها الملكة .. إن الموت بالنسبة لك الآن نعمة كبرى وشفقة حقيقية ، ترى هل تنتظرين منى الشفقة ..؟!.

وانهارت «نور الهدى» إلى الأرض ، ووضعت وجهها بين كفيها ومضت تبكى فى عصبية وجسدها كله يهتز .. وعاد الملك «سيف» يقول فى برود :

ـ إن هذا درس لك لكى لا تتشفى فى المستقبل بتعذيب الآخرين دون رحمة .. انهضى ..

وجففت «نور الهدى» دموعها ، ثم تحاملت واقفة وهى تشمخ بأنفها وتقول :

ـ على المهزوم أن يواجه مصيره أيها الملك ..

ورقت ملامح الملك «سيف» وزايل وجهه العبوس واختفت ابتسامته الساخرة .. وقال فى صوت هادئ :

ـ ليس من حقى محاكمتك أو الاقتصاص منك ، إنما هو حق «منية النفوس» .. والآن احملى من هذه الثياب قدر ما تستطيعين ، وسأحمل الباقى وأرجو أن لا تفكرى فى الهرب ..

فقالت «نور الهدى» وهى تضع يديها فى الصندوق وتخرج الثياب وترتبها :

ـ وأين الهرب أيها الملك ، إن الوقوع بين يديك وأنت زوج أختى

اهون من الوقوع بين يدى هؤلاء المهاجمين الذين غزوا المدينة ولست أعرف عنهم شيئًا ..

ثم حملت مجموعة كبيرة من الثياب ، بينما انحنى الملك «سيف» ليحمل الباقى وهو يقول :

ـ إن جوادك بالخارج أيتها الملكة ، وسنتجه إلى السجن مباشرة ، وسأظل وراءك وسيفى فى يدى ..

ولم تتكلم «نور الهدى» وإنما مضت إلى الخارج حاملة الثياب حيث وضعتها فوق ظهر جوادها ثم ركبت خلفها وانتظرت ، ووضع الملك «سيف» حمله فوق جواده ، ثم وثب إلى ظهره وهو يقول :

ـ أمامى أيتها الملكة واسرعى قبل أن يصل المهاجمون إلى السجن ..

وكانت الطرقات خالية فقد انهمك الغزاة فى مطاردة فلول المنهزمات اللاتى تحصن فى البيوت ليقاومن مقاومة يائسة عنيدة .. ولم يلفت منظر الفارسين المسرعين نظر أحد من الطرفين المتقاتلين .. وحين وصل الملك «سيف» إلى الساحة الكبرى المواجهة للسجن وجدها ساكنة لا أثر فيها للحياة ، فأدرك أن القتال لم يصل بعد إلى هذا المكان .. وتمتمت شفتاه عبارات الحمد لله الذى جعله يصل إلى السجن ليكون فى حماية من التجأن إليه .. وترجل الملك حين وصل إلى باب السجن ، وانتظر حتى ترجلت «نور الهدى» ثم قادها إلى الباب وهو يصيح :

ـ افتحى الأبواب يا «كوكب» إن معى ضيفة عظيمة لا يليق أن توصدى الباب فى وجهها ..

وانفتحت فرجة من الباب الكبير ، وأطل رأس «مرجانة» التى ما أن شاهدت الملك ومن معه حتى فتحت الباب على مصراعيه وهى تصيح :

ـ إنها الملكة ، إنها «نور الهدى» ..

وتعالت من داخل السجن همهمات غاضبة ، بينما دخلت «نور الهدى» شامخة وهى تحمل حملها من الثياب يتبعا الملك وفى يده حمله وهو يقول :

ـ اغلق الباب يا «مرجانة» ، ولتجتمعن جميعًا هنا ..

ووضعت «نور الهدى» الثياب فوق الأرض ، ثم وقفت رافعة الرأس تواجه النظرات الغاضبة التى تحيط بها من كل مكان .. بينما أغمد الملك «سيف» حسامه ووضع حمله فوق حمل «نور الهدى» وهو يقول لـ «مرجانة» :

ـ هذه هى الثياب الريش ، كانت الملكة تريد أن تهرب بواحد منها .. واقتربت «مرجانة» من الملابس تتأملها وهى تقول :

ـ لطالما سألت نفسى أين تخفيها «نور الهدى» ... والآن ها هى ذى ..

وظهرت «كوكب» عائدة ومعها جمع كبير من الفتيات يحملن الجريحات ويساعدنهن على الجلوس فى الساحة الصغيرة خلف الباب ، وقالت «كوكب» :

ـ مرحبًا بك أيتها الملكة عند الخائنات الغادرات ..

وارتفعت ضحكات متشفية ، وصاحت واحدة من الجريحات :

ـ لماذا لا نربطها إلى العمود ونذيقها طعم السياط ..؟!.

بينما قالت أخرى فى صوت حاد ملىء بالحقد :

ـ ونسحبها من شعرها فوق صخر السجن ، ونرسم على جلدها بالحديد المحمى علامة التمرد ..

وصاحت ثالثة فى وحشية :

ـ لا مكان فى المدينة إلا للطاعة .. وأنت تمردت على «منية النفوس»

فأين الطاعة .. لابد أن تذوقى جرعة من الدواء الذى أسقيتنا منه لنتعلم النظام ..

ثم ضحكت صاحبة الصيحة فى مرارة ، وهى تقول :

ـ ألا تريدين تعلم النظام أيتها الملكة ...؟!.

واندفعت كل من فى القاعة من فتيات يضحكن فى سخرية وتشف ، بينما شحب وجه «نور الهدى» حتى حاكى وجه الأموات .. وارتفع صوت جديد يقول :

ـ ولماذا الانتظار؟.. لماذا لا نمزقها بسيوفنا الآن ..؟!.

وساد المكان صمت ثقيل ، وقد بدا أن الاقتراح وجد صداه فى النفوس التى طال عذابها .. وتحرك الملك «سيف» فى مكانه بقلق ، فما كان ليستطيع أن يسمح بحدوث هذا أمامه .. ولم يكن يدرى كيف يستطيع منعهن بعد كل ما قاسينه من تنفيذ ما عقدن العزم عليه ... وسمع صوت أكثر من سيف وهو يخرج من غمده ، بينما اقتربت الفتيات الغاضبات من «نور الهدى» بحيث كون حولها حلقة من السيوف المشرعة ، وأخذت الجريحات يقتربن متحاملات ليشاركن فى القصاص المنتظر .

وفجأة انفتح الباب المطل على ساحة السجن ، وخرجت «منية النفوس» ووراءها «مرجانة» .. ولا يدرى الملك «سيف» متى تسللت «مرجانة» من الجمع ، ولا كيف دخلت الحجرة المغلقة دون أن يحس بها أحد ، ولكنه أحس أن عبئًا كثيئًا قد انزاح عن صدره حين سمع «منية النفوس» تقول فى صوت حازم حاد :

ـ كفى يا فتيات .. لتعد كل واحدة منكن إلى مكانها ..

ولمعت عينا «نور الهدى» وهى تنظر إلى وجه أختها ، بينما وجمت

الفتيات وتراخت السيوف فى أيديهن ، وقالت واحدة :

ـ إنها عدوتنا ..

وتشجعت أخرى فقالت فى صوت أكثر ارتفاعًا من صوت الأولى :

ـ وقد أذاقتنا الويل يوم كان فى يدها السلطان ..

وصاحت ثالثة فى غضب :

ـ لابد أن نقتص منها ..

وعادت الهمهمات من جديد ، بينما أحس الملك «سيف» أن الموقف سيتأزم من جديد ، ولكن «منية النفوس» تقدمت فى خطوات سريعة لتقف إلى جوار أختها وهى تقول :

ـ إذن اقتصوا منى أنا الأخرى ..!.

وأسرعت «مرجانة» تقف إلى جوارهما وهى تقول :

ـ ومنى أنا أيضًا ..!.

وفى هدوء وصمت تحركت «كوكب» لتقف وراء «منية النفوس» فى حركة لها دلالتها ومعناها .. وعلت الحيرة والدهشة وجوه الفتيات ، وقالت واحدة فى صوت متردد :

ـ ولكنها عذبتك عذابًا لم تشهده واحدة منا ..!.

فقالت «منية النفوس» فى صوت هادئ واضح النبرات :

ـ لقد كانت تؤدى واجبها كملكة تحافظ على المدينة بالطريقة التى تؤمن أنها الصواب .. لم يكن بينها وبين أية واحدة منكن ثأر أو ضغينة لقد كنت أنا أختها الوحيدة التى تبادلت معها الحب منذ الصغر ، ومع هذا فهى لم تتردد ثانية واحدة فى أداء واجبها الذى تؤمن به حتى معى أنا أختها ، لقد كنت أشاهد وجهها وهو يتقلص من الألم لعذابى ، ومع هذا كانت هى التى تأمر بهذا العذاب .. إنه الواجب الذى جعلها تدوس على

كل رحمة فيها لأنها كانت تعبد النظام وتقدسه ، والنظام لا يعرف الرحمة ، ولا يفرق بين إنسان وإنسان ..

أما الله الذى نعبده نحن ، فهو إله الرحمة ، وهو الذى جعل لكل إنسان استقلاله وميزاته وحقه فى أن يشق طريقه بنفسه وأن يشكل حياته كما يشاء ... ولو دافعنا نحن عن إيماننا بالله ، كما دافعت هى عن إيمانها بالنظام لما كان هناك مكان للقسوة والعنف ، والعذاب ..

وحين سكتت «منية النفوس» كانت «نور الهدى» تطرق إلى الأرض فى سكون ، وقد بدأ لون الحياة يعود إلى وجهها الشاحب .. بينما ساد الصمت الفتيات كلهن ، ودارت «منية النفوس» بعينيها فى وجوههن ثم عادت تقول :

ـ لو فعلنا فى «نور الهدى» ما فعلته فينا لما زدنا عنها شيئًا ، ونحن جميعًا تحملنا السجن لأننا كنا نختلف عنها وعن فتيات المدينة .. وإن عاملناها هى وفتياتها كما عاملتنا لضاع كل عذابنا فى السجن بلا ثمن ..

وتراجعت الفتيات وانفرجت الحلقة التى كانت تحيط «نور الهدى» وعادت الابتسامة إلى وجه الملك «سيف» وهو يسمع أصوات أغماد السيوف ، بينما عادت «منية النفوس» تخاطب أختها فى صوت رقيق :

ـ إنتِ حرة يا «نور الهدى» ولو أننى لست أدرى ماذا ستفعلين بحريتك ، والمدينة كلها قد وقعت فى أيدى غزاة مجهولين ..

وتقدمت «مرجانة» خطوة وهى تقول :

ـ تستطيع «نور الهدى» أن تلبس واحدًا من هذه الثياب الريش وتهرب بها إلى مدينة أبيها «قاسم العبوس» ..

وأطرقت «منية النفوس» إلى الأرض لحظات ، ورفعت رأسها وهى تقول :

ـ إن هذه الثياب هى طريقنا نحن أيضًا إلى الهرب ، فلسنا نقوى على معركة أخرى مع هؤلاء الغزاة المجهولين إن أرادوا أن يأسرونا .. ولكن لتأخذ «نور الهدى» ثوبًا وتهرب به فهى الملكة وهى المطلوبة أكثر منا ، أما نحن فإن لنا ربًا يحمينا ...

وتقدمت «نور الهدى» خطوة من أختها ، وهى تقول فى صوت هامس :

ـ وإذا رفضت أن أهرب ..؟!.

فقالت «مرجانة» التى كانت لا تزال فى مكانها إلى جوارهما :

ـ لقد عودتك يوم كنت وزيرة لك أن أصدقك النصح ، ولعلها تكون آخر نصيحة أسديها لك مخلصة .. ليس أمامك يا «نور الهدى» سوى الهرب ، فليس هنا من يحبك ..

وصمتت «نور الهدى» وهى تجيل نظراتها فيهن ثم قالت :

ـ حتى لو أردت أن أبقى معكن لادافع عن هذا الدين الجديد الذى جعلكن أقوى منى وأنا فى أوج قوتى ، وأقوى من أنفسكن وأنا فى ضعفى وهزيمتى ...

واندفعت «منية النفوس» تضم أختها إلى صدرها فى قوة ، وهى تقول فى صيحة فرح غامر :

ـ مرحبًا بك فى صفنا ...

وتعانقت الأختان فى حرارة وقوة وقد انثالت الدموع من عيونهما ، بينما ارتفعت أصوات الفرح من كل مكان فى الساحة .. وقال الملك «سيف» وهو يتجه نحوهن :

ـ والآن وقد تمت تسوية هذه المشكلة الصغيرة بقيت مشكلتنا الكبيرة قائمة وأرى أن نستعد لها ..

قالت «مرجانة» :

ـ لقد كنت أفكر فى هذا أيها الملك ، فلابد من أن نستعد لمواجهة هؤلاء الغزاة الذين لا نعرف عنهم شيئًا ..

فقال الملك «سيف» :

ـ أرى أن نستعد كما استعددنا للمعركة الأولى ، فنتناوب الحراسة فى البرج لنرقب تحركاتهم ، وننال القسط الذى نستطيع من الراحة وننتظر ..

قالت «كوكب» :

ـ سأذهب أنا أولاً إلى البرج .. ولتذهب كل فتاة إلى مكانها لتستريح ولتكون عند سماع الإشارة على أهبة القتال من جديد ..

وانصرفت «كوكب» بينما قالت «نور الهدى» لأختها :

ـ هناك شىء طالما وددت أن أفعله ، ولكنى لم أكن أستطيع من قبل أن أفعله فهل تسمحين لى به .. ؟.

قالت «منية النفوس» وهى تبتسم :

ـ كل طلباتك مجابة يا «نور الهدى» ..

فقالت «نور الهدى» وهى تبتسم فى سعادة :

ـ أريد أن أضم ابنك «مصر» إلى صدرى ، وأن أقبله ، وأن أنسيه أننى معذبته يعرف أننى خالته التى تحبه .. !.

ودون أن تتكلم ، اتجهت «منية النفوس» إلى باب الحجرة ففتحته ، وغابت عن الأنظار لحظات لتعود بالطفل بين يديها ، ثم تقدمت من «نور الهدى» ووضعته بين ساعديها الممدودتين .. وابتسم الطفل فى براءة وهو يصدر أصواتًا سعيدة هانئة ، وانحنت عليه نور الهدى تقبله وعيناها مليئتان بالدموع ، ثم ضمته إلى صدرها فى قوة وحنان .. ثم رفعت رأسها إلى الملك «سيف» وهى تقول :

ـ هل عفوت عنى أيها الملك ..؟!.

فقال الملك «سيف» :

ـ لقد أعلنت إيمانك فأنت فى صفوفنا منذ اليوم تقاسمينا كفاحنا ومصيرنا وتخضعين لقوانيننا ، وأول هذه القوانين أن تتزوجى أنت وكل من ينضم إلينا من الفتيات فليس فى ديننا مكان لتجاهل الطبيعة التى خلقها الله فينا ..

وعادت «نور الهدى» تنظر إلى «مصر» فى حنان وتقبله ثم قالت :

ـ ويكون لى مثل هذا الطفل البديع ..

وابتسم الملك «سيف» وهو يقول :

ـ هذه شرعة الله ..

فعادت «نور الهدى» تقول :

ـ سأتزوج أيها الملك ، وأنا أترك لك أنت أن تختار الزوج الذى ترضاه لى ..

وقبل أن يرد الملك «سيف» على حديث «نور الهدى» ارتفع صوت «كوكب» من البرج صائحًا :

ـ إنهم يقتربون ...

وأسرعت «مرجانة» مهرولة تستدعى الفتيات ، بينما فحص الملك «سيف» سلاحه وأسرع نحو الباب يفتحه ووراءه كل الفتيات يحملن سيوفهن .. وفى الميدان طالع الملك «سيف» منظر مهيب فقد كان هناك فارس رائع المنظر بادى القوة كامل السلاح يتقدم فى تؤدة ووراءه كوكبة من الفرسان يحيطون به ، ووراءهم من بعيد يقف جيش لجب من الفرسان فى نظام بديع .. ولم يملك الملك «سيف» إن همس وهو يرقب تقدمه البطىء :

ـ إنه فارس رائع ..

فقالت «منية النفوس» وكانت تقف وراءه وإلى جوارها «نور الهدى» تحمل «مصر» ووراءهما «مرجانة» و «كوكب» ثم باقى الفتيات :

ـ لن نقوى على مقاومة كل هذا الجيش القوى المنظم ..!.

ولم يرد عليها الملك «سيف» ، وإنما ظل واقفًا مكانه فى إنتظار .. وحين وصل الفارس أمام الملك أوقف جواده ثم ترجل عنه ، وتقدم وحيدًا إلى الملك ثم وقف وهو يقول :

ـ أيها الملك «سيف بن ذى يزن» .. لقد انهزم أعداؤك وسلمت المدينة لك !.

وعلى الرغم من الدهشة التى استولت على الملك «سيف» إلا أنه تقدم خطوة وهو يقول :

ـ أيها الفارس العظيم يبدو أنك تعرف اسمى ...

فقال الفارس وهو ينحنى فى أدب :

ـ لقد جئت إلى هنا خصيصًا أيها الملك بطريقة عجيبة ومن بلاد بعيدة لغرض واحد وهو انقاذك ومن معك من المؤمنات ..

فانحنى له الملك «سيف» وهو يقول :

ـ نحن مدينون لك بحياتنا أيها الفارس العظيم .. ويسرنى أن تشرفنا فى الداخل لنتبادل الحديث ونعرف قصة قدومك العجيبة تلك .. ولكن ألا نعرف إسم منقذنا البطل ..؟!.

فقال الفارس وهو يتجه ناحية باب السجن ليدخل مع الملك .

ـ إننى الملك «قان شاه» ملك مدينة «دورين» التى كانت تعبد النار واليوم هى تعبد الواحد القهار ..

ـ ١٤ ـ

أجال الملك «قان شاه» النظر حوله وقال :

ـ لقد خضتم أيها الملك معركة باسلة كما أرى ..

فابتسم الملك «سيف» وهو يشير إلى مقعد مريح بحجرة الحرس ، وقال :

ـ لقد بدأناها نحن وأنهيتها أنت ..

وجلس الملك «قان شاه» فوق المقعد الذى أشار إليه الملك ، وقال :

ـ بل لقد كان لك أنت أيها الملك فضل إنهاء معركتى أنا مع نفسى ، فأنقذتنى ومدينتى كلها .. ! .

وقال الملك «سيف» وهو يجلس أمام «قان شاه» :

ـ لست أفهم شيئًا أيها الملك ..

فقال «قان شاه» وهو يتخفف من سلاحه :

ـ إن هذه حكاية طويلة تبدأ منذ كان أبى ملكًا ، وكنت أنا وليًا على عهد دوريز ، ولم يكن أبى يحكم المدينة بالفعل بل كان الأمر كله فى يد كاهن كبير معمر إسمه «الشعشعان» وهو الموكل بحفظ النار المقدسة التى تعبدها مدينتنا ، يخدمها ويقدم لها القرابين .. وقد تبينت مدى خطر «الشعشعان» وجشعه عندما عدت منتصراً فى أول معركة يوفدنى فيها أبى لهزيمة قبيلة متمردة كانت دائمة الاغارة على القوافل الخارجة من مدينتنا

والداخلة إليها ... وقد تمكنت من دحر رجال القبيلة رغم براعتهم فى القتال ومهارتهم فى فنون الحرب .. وكنت ما أزال شاباً حدثًا غرًا ، فعدت أجر زعماءهم مكبلين فى الحديد ، ويتبعنى موكب طويل من الأسارى الجميلات ، وجمال محملة بكل ثروة القبيلة وأموالها .. وكنت طوال طريق العودة أرسم فى خيالى صورة الاستقبالات الحاشدة التى سيلقانى بها أبى .. ولكننى فوجئت حين وصلت إلى أسوار المدينة بأن أبوابها مغلقة فى وجه عودتى الظافرة ..

ودخلت «مرجانة» إلى الحجرة فقطعت عليهما الحديث وهى تقول :

ـ عفوًا أيها الملك لقد أعددنا أماكن لنزول فرسان الملك «قان شاه» .. ولكن ما تزال بعض الفتيات المسلحات يقاومن فى المنازل والدروب ، فلو أذنت أيها الملك خرجت إليهن «نور الهدى» ليسلمن أسلحتهن وتعطيهن الأمان ..

فقال لها الملك «سيف» :

ـ لتخرج نور الهدى يا «مرجانة» وليتوقف القتال فى كل مكان بالمدينة ، وأعطيهن الأمان باسمى وباسم الملك «قان شاه» ..

فقال الملك «قان شاه» :

ـ الأمر ما رأيت أيها الملك ..

فقالت «مرجانة» :

ـ وسنعد الطعام لتضيف ضيوفنا من جند الملك «قان شاه» بعد قليل ..

فقال لها الملك «سيف» وهى تغادر الحجرة :

ـ وليخصص قصر الملكة لضيفنا الملك ، ولتعمل مرجانة فى إعداد أماكن للجرحى والجريحات حتى يلقى الجميع كل عناية ..

فانصرفت «مرجانة» وهى تقول :

ـ سننقلهن إلى القصر الأبيض أيها الملك .. أما الجرحى فسأخلى منزلى لهم ..

وحين خرجت «مرجانة» التفت الملك «سيف» إلى «قان شاه» قائلاً :

ـ لن يمضى وقت طويل حتى يكون القصر قد أعد لراحتك أيها الملك ..

فقال الملك «قان شاه» :

ـ لم يكن هناك ما يدعو إلى هذا العناء ، فلا بد من عودتى سريعًا إلى المدينة لأنها مهددة بالغزو بين لحظة وأخرى ، ولن أمكث هنا إلا فترة الليل وعند الصباح لابد أن أكون فى طريق العودة ..

فقال الملك «سيف» :

ـ الغزو أيها الملك ..؟!.

فقال «قان شاه» وهو يبتسم :

ـ إنها معركة لابد منها مع «عبد نار» ملك مدينة الأزهار لأنه لا يخالف للكاهن «الشعشعان» أمرًا ولابد أن يدفعه «الشعشعان» إلى قتالى إن علم بأمر تركى لعبادة النار ..

قال الملك «سيف» :

ـ لقد كنت تحكى لى أيها الملك عن أول معرفتك بخطر «الشعشعان» وجشعه ، ولكنك لم تكمل الحديث ..

فقال «قان شاه» :

ـ لقد أرسلت الرسل إلى أبى ، وأنا واقف عند أسوار المدينة أخبره بأمر انتصارى ، وأطلب منه الإذن بالدخول مع ما معى من أسارى

وغنائم .. ولكن أبى لم يجب على الرسول بشيء ، فقط قال له : عد إلى «قان شاه» وأخبره أن ينتظر إذن النار له بالدخول .. ولم أفهم أى علاقة بين دخولى المدينة وإذن النار ، ولكنى امتثلت للأمر وظللت أنتظر إلى الصباح .. وعند الضحى جاءنى رسول يخبرنى بأمر الملك أن أسوق الأسارى والسبايا وكل الغنائم إلى مدينة «الشعشعان» ثم أعود ..

وانتابنى غضب هائل ورفضت أن أصدع للآمر .. ولكن أبى خرج بنفسه من المدينة إلى معسكرى ليخبرنى أن هذه هى أوامر النار .. الحرب لنا والغنائم «للشعشعان» .. فهو محتاج للأسارى ليعرض عليهم عبادة النار ، أما الأسيرات فسيقدمن قربانًا لها .. وأما المال فقد قال أبى إنه سينفق فى ترميم معبد النار .. وعبثًا حاولت ، وعبثًا ناقشت ، فقد أصر أبى على موقفه وكان لابد لى أن أصدع بالأمر ..

وهكذا دخلت المدينة كما خرجت منها يتبعنى جنود متعبون وتملأ قلبى غصة مريرة .. ومن يومها عرفت معنى أن يسلب الإنسان حصيلة جهده باسم العبادة ليملأ بطن كاهن شره .. وحين دخلت حجرتى تلك الليلة اقتربت من محراب النار الدائمة الاشتعال والتى لا تخلو منها حجرة فى القصر واطفأتها ، حملت إناء من الماء وقذفت به فوقها فهمدت ومضت تخرج دخانًا أسود كريه الرائحة قبيح الشكل .. ووقفت ذاهلاً للحظات وقد انتابنى ذعر شديد من خطر مجهول يتهددنى .. ولكن شيئًا لم يحدث ..

وظللت ليلتى اتقلب فى فراشى أهذى حتى الصباح ، ولكننى حين استيقظت وجدت النار مطفأة كما تركتها فى المساء هدأت نفسى واستقر قلبى على عقيدة ثابتة ، إن النار ليست إلهًا ولا يمكن لى أن ألغى عقلى وأعبدها .. وقد كتمت هذا الأمر فى نفسى وأعدت إشعال النار فى حجرتى حتى لا يصل الأمر إلى «الشعشعان» فيعادينى ، ولكننى من يومها

لم أكف عن البحث عن تلك القوة التى تتحكم فى النار وفى أبى وفى «الشعشعان» نفسه ..

قال الملك «سيف» وهو ينظر إلى وجه «قان شاه» :

ـ ووجدتها أيها الملك ..

فقال «قان شاه» :

ـ لقد بحثت عنها فى كل مظاهر الوجود ، ولكن شيئًا لم يقنعنى .. وحين مات أبى وتوليت الملك بعده ظللت أخفى أمرى عن كل العيون ، ولكننى حين أخلو إلى نفسى كنت أجثو على ركبتى وأرفع يدى مبتهلاً إلى تلك القوة طالبًا الهداية لى والخلاص لشعبى الذى يمتص كهنة النار كل جهده وعرقه باسم الخدعة التى طمسوا بها على قلبه .. النار .. بالأمس فقط أيها الملك كنت جاثيًا على ركبتى وحدى أضرع فى ابتهال حين سمعت صوتًا هادئًا يقول :

ـ أيها الملك آن أوان هدايتك .. إن الذى تبحث عنه هو الله .. وأنت منذ هذه اللحظة من عبيده ، وعند الكهف المهجور فى أعلى الجبل الذى يطل على المدينة من سيهديك إلى العبادة والإيمان .. ومن سيدلك على طريق التكفير عن ذنوبك ، ويفتح أمامك أبواب الجهاد ..

وصمت الملك «قان شاه» لحظات ، ولم يقطع الملك «سيف» الصمت الذى ران على الحجرة ثم عاد «قان شاه» يقول فى صوت مضطرب :

ـ ولن أنسى ما حييت وجه ذلك الرجل المهاب الذى وجدته ينتظرنى عند باب الكهف ، والنور يشع من حوله رغم الظلام المخيم على الكون .. وما أن أقبلت عليه وجلاً مترددًا حتى قال :

ـ إنت «قان شاه» ملك دوريز ، لقد آن أوان هدايتك ، فقل :

لا إله إلا الله ، إبراهيم الخليل نبي الله ..

ووجدت شفتى ترددان الشهادتين وقد حلت السكينة فى قلبى ، وتعلقت عيناى بالوجه المضىء الذى عاد يقول :

ـ إن وزيرك على الإيمان منذ زمن فاذهب إليه ، واكشف له أمرك ، واستعن به على تحطيم هياكل النار فى المدينة .. واعرض الإيمان على رجالك وأهل مدينتك فلن يقبل الصباح إلا وهم لك مطيعون ولدعوتك سامعون . وعد إلىّ بجيشك المؤمن كله هنا فإن عليك رسالة لابد من أدائها ..

ثم اختفى من أمامى .. كنت مطأطأ الرأس وهو يتحدث ، وحين انتهى من حديثه ، رفعت رأسى فلم أجده .. ولكننى وجدت شيئًا يدفعنى إلى أن أعود إلى المدينة عدوًا وأنا لا أبالى أن يرانى الحرس بهذه الحالة العجيبة التى لم يتعودوها من ملكهم .. وأسرعت إلى قصر الوزير أطرق بابه فى عنف وبكل ما أملك من قوة وأنا أصبح كالمجنون :

ـ لا إله إلا الله ، إبراهيم الخليل نبى الله ..

وخرج إلى الوزير يلقانى فى أحضانه وهو يصيح :

ـ حمدًا لله على هدايتك أيها الملك ..

وقادنى الوزير إلى داخل القصر ، وهناك وجدت كبار رجالى مجتمعين وهم ينظرون إلىّ فى وجل ، ولكن الوزير هتف بهم فى انفعال :

ـ إنه ملكنا يكفر بعبادة النار ، إنه مثلنا يعبد الواحد القهار ، لقد سمعت الشهادتين بأذنى منه الآن .

ولم أضع وقتى معهم بل أسرعت أصبح فيهم :

ـ لتستيقظ المدينة كلها ، ولتدمر كل معابد النار وهياكلها وليعرض الإيمان على كل من بالمدينة فمن كان معنا فهو فى مكانه ، ومن كفر

فليخرج من دوريز إلى الأبد ..

وكانت ليلة حافلة لم تشهدها المدينة من قبل ، الكل فى حركة والكل فى عمل .. والأنوار تحيل المدينة إلى نهار .. وعند الصباح لم يكن فى المدينة كلها واحد يعبد النار ..

قال الملك «سيف» :

ـ إن هذا كله بفضل الله ..

فقال «قان شاه» فى خشوع :

ـ نعم أيها الملك ، لقد كان حلمًا يراود ذهنى ، فإذا به حقيقة مثل وضح النهار .. وما كان هذا فعلى ولا فعل الوزير وإنما هى إرادة الخالق التى شاءت للمدينة كلها الهداية والإيمان ..

ورفع «قان شاه» رأسه وعاد يقول :

ـ وفى الصباح كنت على رأس جيشى كله نقصد الكهف الموعود ، وهناك كان فى انتظارنا صاحب الوجه المضىء الذى نظر إلى الجند من ورائى ، وقال فى صوت هامس ولكنه قوى :

ـ الحمد لله الذي هداكم .. والآن أيها الملك إن لى أخًا فى الإيمان فى محنة وأنت الموعود أن يتم خلاصه على يديك ، إنه الملك «سيف بن ذى يزن» ، فهو يحارب وحده فى مدينة البنات .. فلتسر ورائى أنت وجيشك ولا ينظر واحد منكم خلفه وإلا ضاع ، فقط سيروا ورائى صامتين وسنصل إليه بإذن الله قبل أن تتوسط الشمس كبد السماء ..

وعاد «قان شاه» إلى السكوت ، ثم ابتسم وهو يقول للملك «سيف» :

ـ وهكذا جئنا أيها الملك إليك لنبدأ جهادنا من أجل الإيمان ..

وسنعود فى الصباح إلى حافة النهر حيث ينتظرنا هادينا لنتبعه فى العودة كما تبعناه فى المجىء ..

قال الملك «سيف» :

ـ ألم يخبرك هذا الرجل الصالح المؤمن عن إسمه ..!.

فأطرق «قان شاه» برأسه وهو يقول :

ـ إنه أيها الملك «الخضر أبو سليمان» ..

فقال الملك «سيف» :

ـ عليه السلام والرحمة ..

وقطعت عليهما الحديث «مرجانة» وهى تدخل الحجرة قائلة :

ـ لقد أعد القصر أيها الملك ، وأرشدنا جنود الملك «قان شاه» إلى أماكنهم ، كما حملنا الجرحى والجريحات إلى حيث يلقون كل عناية ..

قال الملك «سيف» وهو ينهض :

ـ سنذهب إذن إلى القصر ليتناول الملك «قان شاه» طعامه ...

فقالت «مرجانة» :

ـ إن الطعام معد هناك أيها الملك .. إلا أن هناك أمرًا أحب أن تنظر فيه بنفسك ..

فقال الملك «سيف» :

ـ ما هو أيتها الوزيرة الحكيمة ..!.

فقالت «مرجانة» :

ـ إن الملكة «منية النفوس» ترى أن ترسل رسولاً إلى الملك «قاسم العبوس» لتخبره بما حدث وتدعوه إلى الإيمان ... فليس هناك مكان للاطمئنان طالما ظل على كفره وعناده ..

فقال الملك «سيف» :

ـ نعم الرأى يا «مرجانة» ومن سنرسل ؟..

فقالت «مرجانة» :

ـ إنها ترى أن ترسل «نور الهدى» فهى قريبة إلى قلب أبيها وهى كفيلة باقناعه ..

وأطرق الملك «سيف» إلى الأرض مفكرًا ، ثم رفع رأسه وهو يقول :

ـ لتذهب «نور الهدى» ؟.

فعادت «مرجانة» تقول :

ـ لاسبيل لها إلى الوصول إلى المدينة الأخرى وإلا حرقتها الطلاسم التى عليها إلا إذا ذهبت مرتدية الثوب الريش فهو مطلسم ..

فقال الملك «سيف» :

ـ ألا تخشى «نور الهدى» غضبة أبيها أن عرف أنها آمنت وتركت دينه ..؟!.

فقالت «مرجانة» :

ـ إن «نور الهدى» تريد أن تؤكد إيمانها بعمل تقوم به حتى ولو كان فى هذا العمل ما يهدد حياتها ..

فقال الملك :

ـ إن هذا الأمر متروك لها ، فإن شاءت ذهبت ..

فابتسمت «مرجانة» وهى تقول :

ـ إن «نور الهدى» معى وهى تنتظر خارج الباب لتعرف رأيك..

ثم اتجهت إلى الباب وفتحته لتدخل «نور الهدى» .. وقالت مرجانة :

ـ إن الملك يريد أن يتأكد من رغبتك فى القيام بهذه المهمة ..

فقالت «نور الهدى» :

ـ إننى أيها الملك أعرف أبى جيدًا ، وأود أن أحقن الدماء بينكما ، وربما استطعت أن أقنعه بعدالة قضيتك ، وأخيفه من قوتك وجبروتك ..

ولاحظ الملك «سيف» تلك النظرة السريعة التى تبادلتها «نور الهدى» مع الملك «قان شاه» كما أحس بما أحدثته هذه النظرة فيهما من تغير واضطراب ، وابتسم وهو يقول :

ـ على بركة الله يا «نور الهدى» .. وآمل أن تعودى إلينا بخير فإن هنا من يخاف عليك ..

وانطلق يضحك ، بينما خرجت «نور الهدى» وقد تضرج وجهها بما تصاعد إليه من دماء الحياء والخجل .. ووراءها خرجت «مرجانة» وعلى وجهها بسمة سعيدة فاهمة .. وأخذ الملك «سيف» بساعد ضيفه متجهًا إلى الخارج وهو يقول باسمًا :

ـ يبدو أيها الملك أنك اليوم فى برج سعدك ، فانتصاراتك تتوالى فى كل الميادين ..

وعند باب السجن طالعتهم صورة أخرى للميدان الذى شهد الأحداث الدامية الرهيبة التى شغلت اليوم كله .. فقد كان كل شىء هادئًا ساكنًا تحت أشعة شمس الغروب الحانية ..

وتنهد الملك «سيف» وهو يتلفت حوله .. ثم قال «قان شاه» الذى كان ما يزال مضطربًا لملحوظة الملك «سيف» الصائبة :

ـ لا عليك أيها الملك ، فهذه هى الحياة ، موت تعقبه حياة ، وبغضاء يعقبها حب ..

ثم ابتسم ملاطفًا وقال وهو يقوده من ذراعه :

ـ هيا بنا أيها الملك .. فإن الطعام فى انتظارنا ..

ـ ١٥ ـ

كان مشهد الوداع مؤثرًا بين الملك «سيف» والملك «قان شاه» .. وظل الملك «سيف» سائرًا مع جيش مدينة دوريز حتى حافة النهر ، ثم عانق «قان شاه» الذى قال :

ـ عدنى أيها الملك أن تمر على مدينتنا أثناء عودتك ..

فقال الملك «سيف» :

ـ إن هذا ما أنتويه ، فإن لك عندى أمانة لابد أن أحملها لك بنفسى ..

وتضرج وجه الملك «قان شاه» وأطرق فى اضطراب .. ولكن الملك «سيف» ضحك وهو يربت على منكبه قائلاً :

ـ لا عليك أيها الملك ، إن موعدنا مدينة دوريز بإذن الله ..

ورفع «قان شاه» رأسه وهو يقول :

ـ والله أيها الملك لولا أن ذلك الشيخ المهيب فى انتظارى ليقودنا إلى المدينة التى لا نستطيع أن نصلها من غير معونته ولولا ما أعرفه من خطر يهدد بلادى لظللت معك أصحبك فى العودة ..

فعاد الملك «سيف» يبتسم وهو يقول :

ـ صحبتك السلامة يا «قان شاه» ..

وتعانقا ، ثم امتطى «قان شاه» جواده ، واندفع مسرعًا يتقدم جنوده

الذين بدءوا سيرهم فى نظام كامل دون أن يلتفت أحدهم خلفه ..

وتنهد الملك «سيف» وهو يعود فى خطوات بطيئة إلى المدينة ، وقد بدأ شوقه إلى حمراء اليمن ، وزوجاته ، وأولاده ، وفرسانه ، يملأ قلبه .. ويضفى على نفسه غلالة رقيقة من الأسى والحنين .. ولم يذهب عنه هذا الإحساس بالغربة وهو يدخل المدينة متثاقلاً ويشهد الحركة الجديدة التى أخذت تملأها وتضفى عليها مع النهار الجديد روحًا من التفاؤل والبهجة .. وظل فى سيره إلى أن وصل إلى القصر ، وبينما كان يصعد إلى حجرته انتهى إلى ضرورة العودة ، فما عاد له هنا بعيدًا عن وطنه وبلده وأهله مكان .. وجاء صوت «منية النفوس» وهو يدخل الحجرة فى خطو بطىء ، وكانت تقول فى حنان دافق :

ـ إن وجهك أيها الملك يحمل من دلائل الحزن ما لا يمكن أن يخطئه إنسان ..

ونظر إليها الملك «سيف» ولكنه لم يجب بل اتجه إلى حيث يجلس ابنه «مصر» يلهو بسيف خشبى صغير وجعل يتأمله ساكنًا .. وأحس بها تقف وراءه وتضع راحتيها فوق منكبيه وتقول :

ـ إن «قان شاه» يعود .. وأنت بعد هنا بعيدًا عن حمراء اليمن ..

ـ لست أدرى لماذا أحس بالقلق ..

فقالت «منية النفوس» :

ـ إنه الحنين أيها الملك .. الحنين إلى الوطن ، إلى الأرض التى تحب والناس الذين شهدت معهم طفولتك وشبابك .. إنه ذلك الإحساس الحاد الذى دفعنى إلى تركك لأعود إلى هنا هاربة من سعادتى معك .. ولكن لماذا التردد ؟.. لقد انتهت رسالتك هنا ونستطيع أن نعود متى شئت ..

فقال الملك «سيف» وهو ما يزال مطرقًا إلى الأرض :

ـ لم أحس لحظة وأنا فى طريقى إليك بطول المسافة أو بعدها ، ولكننى الآن وقد اطمأننت إلى سلامتك تهولنى المسافة التى تفصلنى عن بلادى ..

وقبل أن ترد عليه «منية النفوس» اقتحمت «مرجانة» عليهما الباب وهى تصيح :

ـ هناك جيش يقترب من المدينة أيها الملك ..

وزالت عن وجه الملك «سيف» كل علامات الأسى والقلق ، وحلت محلها إمارات الاهتمام والجد ، واندفع خارجًا وراء «مرجانة» و «منية النفوس» .. وعند باب القصر كانت «كوكب» تقف على رأس مجموعة من الفتيات المسلحات ، وحين شاهدت الملك خارجًا اتجهت إليه قائلة :

ـ لقد أخذت الحارسات أماكنهن على السور أيها الملك ، والجيش كله على استعداد كامل ..

فقال لها الملك وهو يندفع فى اتجاه باب المدينة :

ـ اتبعينى مع فارساتك يا «كوكب» وليظل الكل على استعداد ..

وحين وصل إلى باب المدينة أمر به أن يفتح ، واندفع خارجًا فى عجلة .. وأمامه فى السهل المنبسط الفسيح كان جيش لجب يتقدم فى بطء شديد ، وأمامه عدد ضخم من الفرسان يتقدمهم فارسان أحدهما طويل ضخم ، والثانى قصير نحيف .. ولم يكن الملك «سيف» يستطيع أن يتبين ملامحهما لبعد المسافة ، إلا أن صوت «منية النفوس» جاءه من خلفه يقول :

ـ إنه أبى أيها الملك .. هذا «قاسم العبوس» ومعه «نور الهدى» .. ولست أظنه يأتى للحرب فما هكذا تسير الجيوش المحاربة .. ولو كان يريد

الحرب ما سارت معه «نور الهدى» فى مقدمة الجيش ..

وظل الملك «سيف» يرقب تقدم الجيش اللجب وهو يظلل عينيه بيده ليحجب عنهما وهج الشمس ، ثم قال وهو يشير بيده :

ـ سنرى .. أحضروا جوادًا لى ولتتبعنى «منية النفوس» و «مرجانة» و «كوكب» راكبات .. ولتنتظر الباقيات ..

وكان المتقدمون ما زالوا على مسافة بعيدة حين اتجه الملك «سيف» ووراءه «منية النفوس» و «مرجانة» و «كوكب» فوق صهوات الجياد نحوهم .. وبينما كان الملك «سيف» يقترب من الفارسين المتقدمين استطاع أن يميز ملامح «نور الهدى» التى كانت تسير إلى جوار أبيها فى ثقة واعتزاز ..

وعلى بعد كاف من أسوار المدينة وقف الملك «سيف» ومن معه فى انتظار القادمين .. ورفع الملك «قاسم العبوس» يده فوقف الجيش كله .. وظل متقدمًا خطوات يتبعه فرسانه ، ثم رفع يده من جديد فتوقف الفرسان .. واستأنف الملك «قاسم العبوس» تقدمه هو و «نور الهدى» وحدهما حتى أصبحا فى مواجهة الملك «سيف» ومن معه ، فوقفا وقال الملك «قاسم العبوس» وهو يريح يده فوق عنق جواده :

ـ أنت أيها الفارس ، الملك «سيف بن ذى يزن» الذى فتحت مدينة البنات ..؟!.

فقال الملك «سيف» وهو يتقدم بجواده خطوة :

ـ نعم أيها الملك ، وأنت «قاسم العبوس» الذى خالف شريعة الله ، وقسم المدينة إلى مدينتين ، وجعل النساء وحدهن والرجال وحدهم متحديًا إرادة الله ..!.

فقال «قاسم العبوس» وهو يعتدل فى جلسته على الجواد :

ـ لقد كان هذا صحيحًا أيها الملك .. ولكن ما راح قد راح ، ولم آت إليك لأنبش الماضى .

فقال الملك «سيف» :

ـ أحقًا أيها الملك ، إذن لماذا أتيت ..؟!.

فقال «قاسم العبوس» :

ـ لقد حكت لى «نور الهدى» ما فعلت من أجل ابنتى «منية النفوس» .. وكيف اجتزت الجزر السبعة بحثًا عنها ، وكيف جابهت وحدك مدينة كاملة دفاعًا عنها ، ثم كيف نصرك إلهك بجند من عنده .. ولست أطمع لابنتى بزوج أحسن منك .. وعلى هذا فقد جئت أبارك زواجكما ..

فقال الملك «سيف» فى صوت حاد نافذ :

ـ فقط ..؟!.

وعاد «قاسم العبوس» يقول :

ـ بل جئت أيضًا لأبارك زوال التفرقة بين المدينتين التى تمت على يدك ، فأنا منذ اليوم سأزيل الطلاسم التى تحجب مدينة الرجال ، وأنا منذ اليوم أعلن زوال الحجب التى كانت تمنع الحياة الطبيعية أن تأخذ مجراها ..

فابتسم الملك «سيف» وهو يترجل عن فرسه ويقول :

ـ إذن مرحبًا بك أيها الملك المؤمن ..

وترجل «قاسم العبوس» واندفع ناحية الملك «سيف» يتلقى يده الممدودة ويشد عليها فى حرارة .. بينما ترجلت «منية النفوس» واندفعت إلى أبيها .. وابتسم الملك «سيف» وهو يراها تندفع إلى صدر أبيها ودموع الفرح تبلل وجهها ، بينما ضمها «قاسم العبوس» إلى صدره وهو يقول :

ـ عفوًا يا «منية النفوس» .. لقد أزالت شجاعتك كل وهم فى نفسى ..

وقبل الأب ابنته فى حنان ، بينما ترجلت «نور الهدى» واتجهت نحو الملك «سيف» قائلة :

ـ هل نجحت فى مهمتى أيها الملك ..؟.

وصافحها الملك «سيف» مبتسمًا وهو يقول :

ـ إنه نجاح كبير أيتها الملكة ، وسأنجح مثله بإذن الله فى مهمتى الخاصة بك ..

وتصاعد الدم إلى وجنتيها وهى تقول فى صوت دبت فيه رنات الأنوثة المكبوتة :

ـ لست أفهم أيها الملك ..

فابتسم الملك «سيف» وهو يقول :

ـ ولكننى أفهم ..

وجاءها صوت «مرجانة» التى ترجلت هى و «كوكب» وانضمتا إليهم ، يقول :

ـ وأنا كذلك أفهم ..

وعاد الملك «سيف» يقول وهو يتأمل وجه «نور الهدى» المتضرج بحمرة الحياء والخجل :

ـ إنه «قان شاه» يا «نور الهدى» .. ألم تتركى لى حق اختيار زوج لك ، وقد اخترت ..

فأطرقت دون أن تتكلم ، بينما عاد هو يقول ..

ـ وأحسب أن اختيارى صادف هوى فى نفسك ..

وقالت على حياء :

ـ ولكنه هو ..

فضحك الملك «سيف» ضحكة عالية وهو يقول :

ـ لقد رأيت نظرته إليك ، وأنا أعرف الحب حين أراه ..

وبينما كانت «نور الهدى» تطرق خجلاً ، ارتفعت ضحكة «قاسم العبوس» وهو يتقدم نحوها ويضمها فى حنان قائلاً :

ـ هذا إذن هو سر حماسك الشديد للملك «سيف» ..

ثم عاد يضحك من جديد وهو ينظر إلى «مرجانة» ويقول للملك «سيف» :

أيها الملك إننى أريد أن أعلن بنفسى نهاية الحظر الذى وضعته على الحياة هنا ، فأريد أن تزوجنى أنا أولاً بأخلص من عاشت فى مدينة البنات ، الوزيرة «مرجانة» ..

وبدت علامات الدهشة على وجه الوزيرة الذى شحب ، ثم تدفقت فيه الدماء فاحمرت وجنتاها .. ولكنها سرعان ما تمالكت نفسها وهى تقول مجيبة على نظرة الملك «سيف» المتسائلة :

ـ إن هذا شرف كبير أيها الملك ..

وابتسم الملك «سيف» وهو يقول :

ـ يبدو أننا سنبدأ الأفراح من الآن ، وستشهد هذه الأرض أعيادًا حقيقية زاخرة بالعواطف الإنسانية التى حرمت منها طويلاً ..

فقالت «منية النفوس» وهى تقود أباها من ذراعه :

ـ ينبغى أن تبيح زواج أبناء المدينتين ليتم زفافك لـ «مرجانة» يا أبى وسط أفراح الجميع ..

وقال الملك «سيف» وهو يسير إلى جوارهما :

ـ لتفتح المدينتان من الآن، وليعلن أن الجميع قد دخل دين الإيمان..

وما أن وصل الجميع إلى المدينة حتى تعالت أصوات الفرح فى كل مكان ، فقد سبقتهم الأنباء الجديدة إليها .. واختلطت أصوات الفتيات الفرحة بأصوات صاخبة من الجيش المرابط عند باب المدينة .. جيش مدينة الرجال الذين استخفهم الفرح فراحوا يرقصون ويصخبون حتى ضج الوادى بأصواتهم الهادرة ..

وقال الملك «سيف» لـ «قاسم العبوس» وهما يدخلان القصر :

ـ لست أظن هذه الجزيرة قد حظيت بمثل هذه الصورة من السعادة الحقيقية ..

فابتسم «قاسم العبوس» وهو يقول :

ـ إن فى أصواتهم شيئًا نابعًا من القلب ما كنت أسمعه فيها من قبل ..

- ١٦ -

استمرت جزيرة البنات شهرا كاملا تنعم بأفراحها ، والملك « سيف » سعيد بهذا النهر الدافق من الهناء الذى فجره فى الجزيرة القاحلة ، ولكنه قلق يزداد احساسه بالغربة ويزداد حنينه إلى العودة يوما بعد يوم ..

وكان « قاسم العبوس » قد تزوج « مرجانة » وسط مظاهر الفرح ومعالم البهجة أثر سماحه لرجال مدينته بالزواج من فتيات مدينة ابنته .. وأقبل كل الرجال ينتقون زوجاتهم من المدينة المزدانة بالزهور والأغصان ، المليئة دائما بالأغانى والأهازيج .. وكانت « منية النفوس » قد استردت صحتها وأنستها صحبة زوجها وابنها كل ما مر بها من آلام ومحن .. وكان « مصر » لا يفارق أباه لحظة واحدة فى ركوبه للصيد أو نزهته فى النهر الفاصل بين المدينتين والذى شيدت فوقه أكثر من عابرة من الخشب تصل ضفتيه .. وكانت « مرجانة » تقوم بدورها كملكة على المدينتين خير قيام ، وقد ازداد حب الفتيات لها وطاعتهم لأوامرها واستجابتهم لنصائحها الحكيمة ..

وازداد احساس الملك « سيف » بأن وقت السفر قد دنا ، وأنه لابد من ارتحاله إلى بلاده ، ولكنه لم يكن يريد أن يعكر صفو هذا الهناء الذى يراه حوله فى كل مكان بذكر الرحلة والفرقة .. ولم تكن « منية النفوس » مغمضة العينين بل كانت تراقب أحاسيس الملك « سيف » وتفهمها وتقدرها ، ولم تجد بدا وقد انقضى شهر كامل منذ بدأت أفراح المدينة من

أن تطرق هي الموضوع الذى يتحاشاه زوجها حفاظا على مشاعرها وخوفا من ايلامها ، فقالت له ذات صباح وهما يجلسان فى بهو القصر الفسيح :

ـ لقد اشتقت أيها الملك إلى رؤية « شامة » و « طامة » و « الجيزة » كما أننى أود لابنى أن يرى أخويه « نصر » و « دمر » ..

فنظر إليها الملك « سيف » لحظات ثم قال :

ـ إن حنينى إلى بلادى يزداد يوما بعد يوم يا « منية النفوس » .. ولكننى كنت أخشى إن فاتحتك فى هذا الأمر أن تحسبى أننى أفضل سعادتى على سعادتك ، وأنت هنا وسط أهلك فى أفراح لا تنقطع ..

فنهضت « منية النفوس » من مكانها وأقبلت على الملك « سيف » تنظر فى وجهه وهى تبتسم وتريح ذراعيها على منكبيه ، وقالت :

ـ بل سعادتى معك أيها الملك ، وماكل هذه السعادة التى تنعم بها أرضنا إلا بفضلك ، وان شئت بدأنا رحلتنا غدا ..

فرفع الملك « سيف » رأسه إليها وقال :

ـ ولن تهربى مرة أخرى يحدوك الحنين والشوق إلى هذه الأرض .. !

فأطرقت « منية النفوس » وهى تقول :

ـ إن نفس الشوق ينتابنى الآن للأرض التى قضيت فيها أسعد أيامى إلى جوارك ..

فوقف الملك « سيف » وعيناه تتألقان وقال :

ـ إذن سنبدأ رحلتنا غدا وستصحبنا « نور الهدى » لاننا سنمر فى طريقنا بالملك « قان شاه » .

وكان صوت « منية النفوس » يتدفق حماسا وهى تقول :

ـ سنصحب معنا أيضا «كوكب » وفتياتها المخلصات ، ولن يكن عبئا علينا فى الرحلة فإنهن يستطعن ارتداء الثياب الريش والتحليق بها فى

السماء فى سرعة تقارب سرعة « عاقصة » و « عيروص » ..

وابتسم الملك « سيف » وهو يقول :

ـ لك ذلك .. وسأذهب الآن لأفاتح الملك « قاسم العبوس » فى أمر رحلتنا غدا ، ولتستعدى أنت وفتياتك لأننا سنغادر المدينة مع خيوط الفجر الأولى .

* * *

وحاول الملك « قاسم العبوس » أن يثنى الملك « سيف » عن عزمه على السفر ، ولكنه حين تأكد أن حديثه لن يغير ما استقر عليه عزم الملك ، قال :

ـ حسنا أيها الملك ، ولتسافر معك « مرجانة » زوجتى فهى شديدة التعلق بـ « منية النفوس » وابنها « مصر » وحتى ترى بلادكم وتتعرف على حياتكم ، ولتحس أننا معك فى حلك وترحالك ..

فقال الملك سيف :

ـ لتستعد « مرجانة » إذن فعند الفجر سنترك المدينة أنا وزوجتى وابنى ومعنا « نور الهدى » و « كوكب » والفتيات الأخريات اللاتى تريد « منية النفوس » أن يكن معها ..

فقال الملك « قاسم العبوس » :

ـ ستكون خيولكم مهيأة عند الصباح ، وسأصحبكم حتى نهاية حدود أرضنا ..

ولم ينم أحد فى هذه الليلة الحافلة ، فبينما كان المسافرون يتأهبون للرحلة ، كانت المدينة كلها تقبل لتودعهم معربة عن أسفها لفراقهم ، وعن شكرها للملك « سيف » الذى حقق لهم معجزة ما كانوا يظنون أنها تحدث فى بلادهم ..

وعند الصباح ، خرجت المدينة كلها تودعهم حتى حافة النهر .. ثم بدأت كوكبة من الفرسان سيرها أمامهم وعلى رأسها « قاسم العبوس » حتى حدود أرضه ، وبعد أن ودع « قاسم العبوس » ابنتيه وزوجته عاد هو ورجاله بينما استمر الملك « سيف » وإلى جواره « منية النفوس » تحمل ابنها « مصر » فوق صهوة جوادها فى سيره على رأس أربعين من الفتيات فى مقدمتهن « نور الهدى » و « مرجانة » و « كوكب » ..

وعند الظهر كان التعب قد نال من المسافرين كما بدءوا يشعرون بالجوع .. فأمر الملك « سيف » بالتوقف ونصب الخيام للراحة ، ثم أخرج القدح ووضع فوقه الفوطة وأمر بطعام للجميع ، وعندما رفع الملك « سيف » الفوطة كانت تحتها مائدة عامرة بأشهى المأكولات وبكميات وافرة تكفى الجميع .. ولم تخف « مرجانة » دهشتها وهى تأمر الفتيات بتناول الطعام فقالت :

ـ انى على عجب من أمرك أيها الملك ، يأتى جيش مجهول لانقاذك ساعة أوشك الأعداء أن ينالوك ، وتأتى بالطعام فى غمضة عين وليس معنا شىء

فابتسم الملك « سيف » وهو يقول :

ـ انها ارادة الله يا « مرجانة » التى تيسر للمؤمنين كل سبيل وتنصرهم بعونها وفضلها ..

وقالت « نور الهدى » وهى تبدأ فى تناول الطعام :

ـ حقا أيها الملك أنك لمسعود ..

فعاد الملك « سيف » يقول :

ـ سترين فضل الله علينا حين نصل إلى حافة الجبل الذى يبدو هناك ، وأظن أننا سنبلغه قبل الليل .. فمن هناك سيحملنا « الخيرقان »

ملك الجان فى هذه المنطقة إلى حيث تلقين زوجك ..

فضحكت « منية النفوس » وهى تقول :

ـ وبعد سنة يصبح لك ولد مثل « مصر » الذى أوشكت أن تفسديه بتدليلك له ..

وأخرج الملك سيف لوح « الخيرقان » وقال :

ـ هذا هو لوح « الخيرقان » وحين أدلك سطحه هكذا يظهر فى الحال ..

وسرعان ماسمع الجميع صيحة هائلة ، إذ دلك الملك « سيف اللوح وهو يريه لهن ، وظهر « الخيرقان » فجأة وكأنما انشقت الأرض عنه وهو يصيح :

ـ لبيك أيها الملك المسعود ..

فهب الملك « سيف » من جلسته مندهشا ، وهو يقول :

ـ كيف استطعت المجىء إلى هنا ، ألم تخبرنى أنك لا تقوى على دخول هذه الجزيرة .

فقال « الخيرقان » :

ـ لقد فكت الارصاد عنها أيها الملك بفضلك فأصبحت قادرا على دخولها ..

فقال الملك « سيف » :

ـ لقد وفرت علينا عناء الرحلة اليك عند حافة الجبل ، فعليك أن تحملنا عبر هذه الجزر السبعة إلى كهف الشيخ أبو النور لأشكره وأرد له ودائعه قبل بدء رحلتى إلى مدينة دووريز ..

فقال « الخيرقان » :

ـ لقد وعدتنى أيها الملك أن تطلق سراحى وتعطينى لوحى ..

فقال « سيف بن ذى يزن » :

ـ أحملنا أولا إلى الكهف ، وهناك أطلب ما تشاء ..

فأجال « الخيرقان » بصره فى المجموعة التى تجلس حول الطعام وقال :

ـ أتريدنى أيها الملك أن أحمل كل هؤلاء ..؟

فضحك الملك « سيف » وهو يقول :

ـ كلا أيها المارد أن لهن ثيابا من ريش يستطعن الطيران بها إلى جوارك ، فقط تحملنى أنا وزوجتى وابنى ، ولست أظن أننا حمل ثقيل عليك ..

فقال « الخيرقان » وقد بدت على وجهه علامات الارتياح :

ـ فى هذه الحالة هيا بنا أيها الملك لأصل بكم إلى كهف الشيخ فى أسرع وقت ..

فعاد الملك « سيف » يضحك وهو يقول :

ـ أنت تريدنا أن نسرع حتى تسترد حريتك وتطمئن ، ولكننا كما ترى نريد أن نأكل ونستريح أولا لنقوى على هذه الرحلة الجديدة ..

فأطرق المارد وهز كتفيه ، ثم قال وهو يبتعد :

ـ أنا فى الانتظار أيها الملك ..

وقالت « مرجانة » مخاطبة الفتيات اللاتى توقفن عن الأكل وهن يحملقن فى خلقة « الخيرقان » العجيبة :

ـ هيا يا فتيات فليس لدينا وقت نضيعه ، وبعد الأكل تذهب كل واحدة إلى الخيمة لارتداء الثوب الريش ..

والتفتت الفتيات إلى طعامهن يأكلن بسرعة وعيونهن لا تفارق « الخيرقان » .. وقالت « منية النفوس » للملك « سيف » :

ـ لطالما شاهدت خادمك « عيروض » وأختك « عاقصة » فما كنت أحس فى صحبتهما نفورا ، أما هذا المارد فان شكله مخيف ..

فابتسم الملك « سيف » وهو يقول :

ـ لقد ألفت يا « منية النفوس » ، « عاقصة » و « وعيروض » فلم يعد شكلهما ينفرك ، أما الخيرقان فهذه أول مرة تشاهدينه فيها .. أما أنا فقد عشت معه من التجارب ما ألف قلبينا وربط بيننا بالصداقة الحقيقية ..

فعادت « منية النفوس » تسأل الملك « سيف » :

ـ ولكن لماذا لم تستعن بـ « عاقصة » و « عيروض » .. لست أظن أنهما يمتنعان عن أداء كل ما تطلب منهما ..

فقال الملك « سيف » :

ان « عاقصة » و « عيروض » لا يستطيعان دخول هذه الأرض ، فهى محرمة عليهما وقد أوصلانى حتى كهف الشيخ أبى النور ، وعندما نصل إلى هناك سنلتقى بهما وتنتهى مهمة « الخيرقان » الذى لا يستطيع هو أيضا أن يتخطى حدود أرضه ..

فصاحت « منية النفوس » فى فرح :

ـ إذن فسألتقى بـ « عاقصة » عما قريب .. كم اشتقت لها ولحديثها العذب ..

ثم أطرقت واجمة وهى تقول وكأنما تحادث نفسها :

ـ ولكن ترى كيف ستلقانى بعد كل ما حدث ..

فربت الملك « سيف » على كتفها وهو يقول :

ـ لا عليك أيتها الملك .. أن « عاقصة » تحبك وقد كادت تجن من الحزن عندما علمت بنبأ فرارك ، ولن يسعد أحد بعودتك قدر سعادتها هى ..

وقبل أن تجيبه « منية النفوس » ارتفع صوت « مرجانة » قائلا :

ـ لقد انتهى الطعام أيها الملك ونحن على استعداد للرحيل ..

فنهض الملك « سيف » وهو يقول :

ـ اذن هيا بنا ..

وحين استدار الملك « سيف » وجد البنات قد قوضن الخيام التى نصبت على عجل ، وارتدين ثيابهن الريش وعلى رأسهن « مرجانة » و « نور المدى » و « كوكب » فصاح بـ « الخيرقان » الذى تقدم نحوه مسرعا وهو يقول :

ـ هل آن الأوان أيها الملك ..؟

فقال الملك « سيف » :

ـ هيا بنا أيها المارد ..

وبعد لحظات كان الجميع يشقون أجواز الفضاء : الملك « سيف » و « منية النفوس » و « مصر » يحملهم « الخيرقان » وإلى جواره تطير أربعون فتاة فى ثيابهن الريش .

* * *

وظل « الخيرقان » يطير بسرعة حتى بدأت أشعة الشمس فى المغيب ، فقال للملك « سيف » :

ـ سأرتفع الآن أكثر من الارتفاع الذى نطير عليه حتى نتجنب الجزر وأرصادها ..

فقال الملك « سيف » :

ـ ألم نصل بعد إلى أول الجزر ..؟

فقال « الخيرقان » وهو يزداد ارتفاعا والفتيات يتبعنه فى طيرانه السريع :

ـ انظر تحتك أيها الملك وستعرف أين نحن ..

وحين تطلع الملك « سيف » إلى أسفل شاهد توهجا شديدا ينبعث من كرة ملتهبة بعيدة جدا ، وأدرك أن يطير فوق جزيرة الزمهرير .. وكان الوهج المنبعث من الجزيرة المطلسمة يشتد لمعانا كلما ازداد الظلام واشتدت حلوكته ، ولكن الوهج أخذ يبعد تدريجيا و« الخيرقان » ماض فى طيرانه السريع .. وقال الملك « سيف » :

ــ كنت أود أن تستريح الفتيات قبل أن يواصلن طيرانهن طوال الليل ..

فضحك « الخيرقان » وهو يقول :

ــ وأن تريدهم أن يستريحوا أيها الملك .. فى جزيرة واق الواق ، أم فى جزيرة الأزهار القاتلة ؟.. لا مكان للراحة فى هذه الرحلة ، فعليهن أن يتحملن المسافة الباقية والا فقد هلكت كل من تتخلف فى الطريق .

فقالت « منية النفوس » :

ــ لقد تعودنا أيها الملك أن نواصل الليل بالنهار فى طيراننا بالثياب الريش ، فلا تخش بأسا على الفتيات فهن قادرات على قطع الرحلة على خير حال ..

وبكى « مصر » فالتفتت إليه « منية النفوس » تسكته وتهدهده ، بينما سرحت عينا الملك « سيف » فى الظلام المحيط به وهو يتذكر رحلة القدوم وما صادفه فيها من أهوال ومخاوف ، واستطاع أن يتبين وراءه وحوله أجساما دقيقة تطير بانتظام ودأب حول « الخيرقان » ووراءه ، وسكت « مصر » كما سكتت « منية النفوس » ولم يعكر صفو الكون الساكن حوله شىء ..

أحس الملك « سيف » بحركة هبوط « الخيرقان » فاستيقظ وتلفت حوله ، وكانت أشعة الفجر الأولى تجاهد لترسل نورها الضئيل خلال

الظلام الكثيف المتراكم .. وهمس الملك « سيف » وعيناه تحاولان تبين الأجساد الدقيقة التى تتبعهم طائرة :

ـ هل وصلنا أيها المارد « الخيرقان » ؟..

فأجابه المارد وهو يواصل الهبوط :

ـ نعم أيها الملك ، ولن تمضى لحظات إلا وتصبح أمام كهف الشيخ أبى النور ، وسترى من هناك منزله الأبيض وتستطيع أن تصله سيرا على الاقدام فى زمن وجيز..

والتفت الملك « سيف » يوقظ « منية النفوس » التى ما كادت تستيقظ حتى كان المارد « الخيرقان » قد نزل بهم إلى الأرض فى رفق وهو يقول :

ـ حمدا لله على سلامتك أيها الملك ..

وفى غبش الصباح الباكر استطاع الملك « سيف » أن يتبين الفتيات وهن ينزلن واحدة أثر واحدة ، ومضى يحصيهن حتى اطمأن على وصولهن جميعا سالمات .. واقتربت منه « مرجانة » وهى تقول :

ـ لن نستطيع أن نتحرك من هنا أيها الملك قبل أن ننال قسطا من النوم والراحة ..

فقال الملك :

ـ لتنصب الخيام فى الحال ، وأمامكن ساعات ترحن فيها أجسادكن المتعبة كى نستمر فى الرحلة ..

وانصرفت « مرجانة » لتصدر أوامرها إلى الفتيات بنصب الخيام التى سرعان ما قامت فى نفس المكان الذى نزلن فيه ، وخفتت أصواتهن تدريجيا وهن يستسلمن للنوم والراحة .. بينما توجهت « منية النفوس » ومعها أبنها إلى خيمتها ، ووقف الملك « سيف » وحده يشهد طلوع الفجر وسط الصحراء الممتدة الخالية ، ولكنه لمح عن بعد ذلك الجبل الذى

ودعه عنده الشيخ أبوالنور وأدرك أن وراءه تماما يقع منزله الأبيض الجميل ، وجاءه صوت « الخيرقان » يقول :

ـ هذا هو الجبل الذى نسميه كهف الشيخ أبوالنور ، ووراءه يقع منزله ..

وسكت « الخيرقان » فأخذ الملك « سيف » يطيل النظر إلى وجهه ، ثم أطلق ضحكة قصيرة وهو يقول :

ـ هذا لوحك أيها المارد وأنت الآن حر طليق ..

وتناول « الخيرقان » لوحه فى لهفة ثم انحنى على يد الملك « سيف » يقبلها وهو يصيح :

ـ حر .. أنا حر .. أخيرا وبعد كل هذه السنين لم أعد عبدا لأحد .. !

فقال الملك « سيف » وقد أطربه فرح « الخيرقان » الصبيانى :

ـ لقد نلت حريتك أيها المارد بجدارة ، وان كنت قد أرهقتك وضايقتك فعذرى أننى كنت محتاجا إلى خدماتك ..

واكتسى وجه « الخيرقان » بطابع الجد وهو يقول :

ـ لقد عشت معك أيها الملك أياما لا تنسى .. ولولا أن الحرية مطلب مقدس لما غادرتك أبدا ، ولكننى لن أنسى ما شاهدناه معا وما قاسيناه معا ما حييت ..

وفى صمت مد كفه الكبيره يصافح يد الملك « سيف » وهمس :

ـ فى رعاية الله أيها الملك ووداعا ..

وسرعان ما اختفى « الخيرقان » تاركا الملك « سيف » ينظر حيث كان يقف ، وفى رأسه تدور دوامة من الأفكار والذكريات والصور ..

- ١٧ -

ظل الملك « سيف » واقفا يتأمل المنظر البديع الذى يطالعه وجحافل الظلام تتراجع مسرعة تاركة مكانها لرسل النور والضياء تغمر الكون وتبعث فيه الحياة والبهجة ، وبصره عالق بالجبل من بعيد حتى سمع وراءه صوتا حبيبا يقول :

ـ حمدا لله على سلامتك يا أخى ..

وحين التفت الملك « سيف » وراءه رأى « عاقصة » ووراءها « عيروض » ينظران إليه وفى عيونهما الفرح والترحيب .. واندفع الملك « سيف » نحو « عاقصة » ليصافحها فى حرارة وشوق ، ثم تقدم إلى « عيروض » يضم يده الممدودة بين يديه وهو يقول :

ـ الآن فقط زايلنى احساس الغربة الذى لم يفارقنى منذ تركتكما .. والآن فقط أحس بالأمان ...

وصمت لحظة وهو يتطلع اليهما ثم قال :

ـ ولكن ألم أترككما هناك بعيدا عن بيت الشيخ أبى النور ، ماذا جاء بكما إلى هنا ؟

فقال « عاقصة » :

ـ لقد قلقنا عليك اذ طال غيابك فذهبنا إلى الشيخ أبى النور نسأله عنك وعن أخبارك ، وقد قال لنا أنك قادم مع أشعة الفجر الأولى ،

فأسرعنا نحوك لنراك هكذا واقفا تتأمل شروق الشمس ، وكأنه ليس هناك ما يشغل بالك ..

وبعها « عيروض » قائلا وهو يضحك :

ــ يبدو أن الملك ، وقد أحضر زوجته وابنه ، نسى الكون كله .. فقالت « عاقصة » وهى تشير إلى الخيام :

ــ هل « منية النفوس » و « مصر » هنا ..

وأجابها الملك « سيف » :

ــ نعم أنهما هنا .. ومعهما زوجة « قاسم العبوس » وأخت « منية النفوس »..

ثم مضى الملك « سيف » يحكى لهما كل ما حدث له من أحداث منذ اللحظة التى غادرهما فيها حتى التقى بهما ثانية ، وقالت « عاقصة » وهى تنظر إليه فى اشفاق :

ــ حقا يا أخى لقد قاسيت الكثير ، ولكن « منية النفوس » جديرة بكل هذا وأكثر..

وقال « عيروض » :

ــ على أية حال أن رحلة العودة لن تكون بهذه المشقة ، فما علينا إلا أن نتقاسم أنا و « عاقصة » حملكم جميعا من هنا حتى حمراء اليمن .. ولن تشعروا للرحلة بتعب أو مشقة .

فقاطعة الملك « سيف » قائلا :

ــ هناك شيئان لابد من عملهما قبل العودة .. أما أول الأشياء فهو زيارة الشيخ أبى النور لأشكره على معونته ولاعيد له ذخائره التى أعانتنى فى الوصول إلى « منية النفوس » وهى القدح ، والزمردة ، والملابس النسائية ..

فقال « عيروض » :

ـ هذا أمر سهل .. فالشيخ أبو النور فى انتظارك فى منزله وراء الجبل ، ونستطيع أن نصل بكم جميعا إليه فى لحظات ..

فقاطعه الملك « سيف » قائلا :

ـ أما الأمر الثانى فهو زيارة الملك « قان شاه » ملك دوريز لأشكره على نجدتى فى القتال لحظة أن فقدت كل أمل ولأسلمه زوجته التى اخترتها له والتى أحس أنه يحبها ويتمناها : « نور الهدى » أخت « منية النفوس » ..

فقالت « عاقصة » :

ـ سيعيق هذا رحلتنا قليلا ولكن لا بأس ..

ثم التفتت حولها ، وعادت تقول :

ـ هل سيظلون فى نومهم إلى المساء ..؟

فقال لها الملك « سيف » :

ـ سأوقظهم لنذهب إلى الشيخ أبى النور ، وهناك تستطيع الفتيات أن تكملن نومهن قبل سفرنا إلى مدينة دوريز ..

وقبل أن يتحرك الملك « سيف » من مكانه جاءهم صوت « منية النفوس » قائلا :

ـ لقد استيقظنا أيها الملك ، ونحن على استعداد للرحيل فورا ، فقط أريد أن أحيي « عاقصة » التى اشتقت إليها ..

واندفعت « عاقصة » نحوها فى فرح ظاهر وهى تصـ :

ـ حمدا لله على سلامتك أيتها الملكة .. لقد ملأت نـربنا بالخوف ، وكم كنت أخشى أن لا أراك ثانية .. ولكن ها نحن نلتقى ثانية وقد زال كل حزن وغم .. أين « مصر » .. ؟

فابتسمت « منية النفوس » وهى تصافحها وتقول :
ـ إن حرارة لقائك يا « عاقصة » تنسينى كل مخاوفى .. أما « مصر » فسأحضره لك لتشاهديه قبل سفرنا ..

وبينما كانت « منية النفوس » تحضر الأمير « مصر » من الخيمة ، كانت الحركة قد دبت فى المكان كله فقد استيقظت الفتيات ورحن يقوضن الخيام فى ترتيب ونظام ، ثم يرتدين الثياب الريش ويقفن على استعداد ..

وتلقت « عاقصة » الأمير « مصر » وراحت تنظر إليه فى شغف وحنان ، ثم قبلته وهى تقول :

ـ لقد قاسى هذا الطفل الأمرين منذ حداثته ، وسيعوده هذا الصبر على كل المحن والارزاء .. فلن يلقى فى حياته ما هو أقسى مما لقى حتى الآن ..

واقبلت « مرجانة » وهى تقول :

ـ نحن على استعداد أيها الملك ..

فقال الملك « سيف » :

ـ ستحمل « عاقصة » « منية النفوس » وابنها ، ويحملنى « عيروض » وتطيرون وراءنا إلى منزل الشيخ أبى النور ، وهو كما فهمت من « عاقصة » قريب ..

فقالت « عاقصة » وهى تحمل « منية النفوس » و « مصر » :

ـ إنها لحظات تعبر خلالها الجبل لتصبح عنده ..

واندفعت « عاقصة » إلى الجو بحملها ، فتبعتها الفتيات بينما تقدم « عيروض » من الملك « سيف » يحمله ويطير به أثرهم ..

* * *

وكان الشيخ أبو النور فى انتظارهم .. فما أن هبطوا أمام الكوخ الأبيض حتى رأوه يخرج من بابه وهو يشير إليهم مسلما ويقول :

ـ أهلاً بالملك «سيف بن ذى يزن» أهلاً بالملكة «منية النفوس» .. أهلاً بكم جميعًا ..

ثم أشار إلى الداخل وهو يقول :

ـ لقد أعددت لكم فراشا دافئا وطعاما وفيرا وماء زلالا ، فهيا ادخلوا جميعا ..

ودخل الجميع ما عدا «عاقصة» و «عيروض» اللذين انتظرا فى الخارج ، وما أن دخلوا إلى المنزل حتى راعهم أن يجدوا فرشا من الديباج بعددهم جميعا . وعلى كل فرش معد عقد من اللؤلؤ ، فصاحت «نور الهدى» مذهولة :

ـ ما هذا أيها الشيخ الطيب ، أن هذه ثروة تعادل مملكة كاملة ..

فقال الشيخ «أبو النور» وهو يبتسم :

ـ هذه هديتى إلى من عرف الدين الحق .. والآن إلى الطعام ..

وصفق الشيخ «أبو النور» بيديه فظهرت فى الحال مائدة ضخمة أمام الفتيات مليئة بكل ما يشتهين من طعام وشراب .. وبين الدهشة وضحكات البهجة انقضت الفتيات الجائعات على الطعام الشهى ، بينما انفرد الشيخ «أبو النور» بالملك «سيف» وقال له :

ـ لتحمل «عاقصة» و «عيروض» الملكة «منية النفوس» والملك «مصر» إلى مدينة دوريز ، ولتصحبهم الفتيات طائرات ، أما أنت فستسير معى لأن لى معك حديثًا أحب أن أنهيه قبل أن أتركك ..

ونظر إليه الملك «سيف» فى دهشة وقال :

ـ إذا كانت المسافة قريبة فلماذا مشقة الطيران ، والسير فوق الارض اسهل وآمن ..

فضحك الشيخ « أبو النور » وربت على كتف الملك « سيف » وقال :

ـ لو ساروا يا بنى فلن يصلوا قبل أعوام وأعوام ..

فازدادت دهشة الملك « سيف » ، وقال مترددا :

ـ ولكن ، لقد قلت ..

فقاطعه الشيخ « أبو النور » وهو ما يزال يضحك ويربت على كتفه ، قائلا :

ـ يا بنى أن لهم أجنحة يطيرون بها .. أما نحن فان ذكر الله هو جناحنا الذى يطوى لنا المسافات ..

وسكت الملك ولم يجب ، بينما تقدم « عيروض » منهما قائلا :

ـ لقد انتهى الجميع من تناول الطعام وحان موعد الرحيل ، وبيننا وبين بلاد دوريز مسافات شاسعة فيحسن أن نبدأ رحلتنا الآن ..

وتأكد لدى الملك « سيف » صحة ما قاله الشيخ أبو النور الذى كان ينظر إليه ويبتسم ..

فقال لـ « عيروض » :

ـ لتحمل أنت « مصر » ، ولتحمل « عاقصة » « منية النفوس » . على أن تطير باقى البنات معكم ..

وقال « عيرض » :

ـ وأنت ، هل نعود لاخذك .. !

فهز الملك « سيف » كتفيه فى استسلام ، وهو يقول :

ـ كلا ، أننى سأسير مع الشيخ « أبو النور » ..

وفتح « عيروض » فمه فى دهشة ، وجال بعينيه بينهما .. ثم أطبق فمه

وسار دون أن يعقب بكلمة ، وضحك الملك « سيف » رغم ما كان يملأ نفسه من قلق .. وازداد قلقه وهو يشهد الجميع يستعدون للرحلة ، وكاد ينادى على « عيروض » ليأمره باصطحابه أكثر من مرة ، ولكنه كان فى كل مرة ينظر إلى الشيخ « أبى النور » فيتخاذل ، ويمسك لسانه فى صعوبة حتى لا يحس الشيخ « أبو النور » بما يملأ قلبه من قلق .. وسرعان ما ارتفعت عاقصة فى الجو تحمل « منية النفوس » ووراءها « عيروض » يحمل « مصر » .. بينما ارتفعت خلفهم الفتيات فى شبه دائرة .. وظل الملك « سيف » يرقبهم وهم يرتفعون ويرتفعون ، حتى غدوا كالغمامة فى كبد السماء تدفعها ريح سريعة إلى أمام .... ثم غابوا عن نظره ..

* * *

قال الشيخ « أبو النور » للملك « سيف » :

ـ أنت تكثر من التنهد أيها الملك ، فهل أنت نادم على مفارقة أحبائك ..؟!

وأخرجت هذه الكلمات الملك « سيف » من وجومه الطويل ، فعاد بنظره إلى الأرض وهو يقول :

ـ أبدا أيها الشيخ ، ولكننى فقط كنت أعجب من قدرة الخالق سبحانه وتعالى أن منحك وأنت الإنسان على قدر اجتهاده قدرة تساوى قدرة الجان .

فضحك الشيخ « أبو النور » وهو يقول :

إن الله يا بنى يعطى الانسان على قدر اجتهاده وسعيه وأنا قضيت عمرى أجتهد وأسعى .

فقال الملك « سيف » :

ـ وأنا ألست أجتهد وأسعى ..

فقال الشيخ « أبو النور » وهو يمد له يده :

ـ ولقد أعطاك الله الكثير .. هات يدك فى يدى .. ألم يسخر لك أعوانا من الجن تحملك فوق طبقات السحاب ..؟!

ومد الملك « سيف » يده يمسك اليد الممدودة إليه فى صمت ، بينما تابع الشيخ « أبو النور » حديثه قائلا :

سنسير إلى الامام دائما وأيدينا متشابكة ولن ننظر خلفنا أبدا ، والآن أذكر اسم الله ولنتوكل على بركته ..

وردد الملك « سيف » اسم الله فى قلبه ، بينما تحرك إلى الامام ويده فى يد الشيخ « أبى النور » الذى عاد يقول فى صوت هادئ عميق :

ـ كما وضعنى فى طريقك لأقودك وأعينك وأيسر لك مالا تقدر عليه .. وكان الله سبحانه يستطيع أن يمنحك أنت القدرة على كل هذه الخوارق التى لا يستطيعها الإنسان العادى فتستريح فى سعيك ، ولكن ماذا كان سيكون فضلك أنت الإنسان فى هذا ؟!

ولم يكن الملك «سيف» يرى أمامه سوى خيط أبيض يجرى كأنما يهرب منه ، بينما ازداد صوت الشيخ «أبى النور» عمقا وصفاء وقوة وهو يقول :

ـ إن انتصارك على الشر يابنى انما هو انتصار الإنسان بما فيه من صلابة وقوة ، وبما فيه من قدرة على التصميم والارادة ..

ولم يكن حول الملك « سيف » الا الصوت .. الصوت وحده يحوطه ويعزله عن العالم كله ، قدماه تتحركان وكأنما فى هواء ، ويده تمسك يد الشيخ وكأنما تقبض على هواء ، وعيناه لا تريان إلا الخيط الأبيض وهو ينسحب أمامها كأنما يطير فى الهواء ، والصوت العميق القوى يأتيه من كل مكان كأنما ينبعث من السماء أو يخرج من باطن الأرض أو يأتيه مع نسمات الهواء ..

ـ وحين ينهزم الشر على يديك انما ينهزم أمام قوى الإنسان الذى يستمد من ضعفه قوة ، ومن عجزه مقدرة ، ومن ايمانه سلاحا يطوى له الزمان والمكان ، ويخوض به البحر ويقتحم السماء ..

وسكت الصوت لحظات ، ثم عاد رقيقا هذه المرة ، هادئا وكأنما يعود إلى الأرض من جديد :

ـ لقد كان من الممكن أن تنتصر فى مدينة البنات بنفس القوة الخارقة التى قادت «قان شاه» وجنوده إلى أبواب المدينة ، ولكن ماذا كانت تكون قيمة انتصاراتك وقتها . . كان لابد أن يكون الإنسان هو الذى ينصرك ، فشاركك جنود «قان شاه» معركتك ليتم النصر على يدك ويده . .

وبدأت تلوح أمام الملك «سيف» جبال بعيدة وأشجار عالية ، بينما اختفى الخط الأبيض الذى كان يجرى وراءه . . وبدأ يحس بثقل يد الشيخ «أبى النور» فى يده ، وبوقع أقدامه فوق الأرض الصلبة من تحته . . وعاد الشيخ «أبو النور » يقول وصوته يأتى من يمين الملك «سيف» حيث يسير:

ـ وصديقك « قان شاه » الآن فى عسر وضيق ، فهو يحارب من أجل ايمانه ودينه وهو منصور باذن الله على يديك ، وكما نصرك تنصره ..

ثم وقف الشيخ « أبو النور » فوقف الملك « سيف » لوقوفه .. وحين التفت رآه يبتسم فى وجهه وهو يقول :

ـ هاقد وصلنا يابنى .. انظر ..

ونظر الملك « سيف » حيث أشار الشيخ « أبو النور » .. وأمامه من بعيد فى الوادى الفسيح كانت تدور معركة رهيبة دامية يشترك فيها جيشان كبيران يحاربان فى وحشية وقسوة ، وكان أحد الجيشين يتراجع فى بطء أمام الهجمات العنيفة المتتالية للجيش الآخر الأكثر عددا وأضخم حجما .. وقال الشيخ « أبو النور » :

ـ هذا صديقك « قان شاه » يكاد ينهزم أمام عدوه ، وقد حان وقت وفاء الدين ..

والتفت إليه الملك « سيف » قائلا :

ـ أن جيشه يتراجع ..

فقال الشيخ « أبو النور » :

ـ أن عدوه قوى جبار ..

ثم مد الشيخ « أبو النور » يده نحو الملك « سيف » وهو يقول :

والآن استودعك الله يابنى .. لقد انتهى لقائى معك ، وقمت بدورى المرسوم فى خدمتك فوادعا ..

فمد الملك « سيف » يده يصافح اليد الممدودة نحوه وهو يقول :

ـ لست أجد كلمات تفيك حقك من العرفان والشكر ..

فقال الشيخ « أبو النور » وهو يهز يده فى حب وحنان :

ضع كلماتى التى قلتها لك فى قلبك ولا تنسها ..

وتحرك الشيخ « أبو النور » إلى اليمين حيث كان يقوم جبل عال ، وظل يسير والملك « سيف » يتبعه بنظره إلى أن رآه يدخل غائرا وسط الجبل حيث اختفى .. وتنهد الملك « سيف » وهو يحول بصره إلى الوادى الذى يموج تحته بتلك المعركة الدامية المخيفة ، ثم بدأ يسير مسرعا متجها إليه وقد بدأت اللهفة تملأ قلبه ، والقلق يغزو نفسه خوفا على صديقه « قان شاه » وآخر كلمات الشيخ « أبو النور » تدوى فى أذنيه :

ـ لو وقف الانسان إلى جوار الخير ، فإن كل قوى الخير تقف إلى جانبه .. وحتى لو هزم فإن الهزيمة لا تدوم ، لأنه مكتوب منذ الأزل أن ينتصر الخير على الشر فى نهاية كل معركة ..!

ما كاد الملك « سيف » يسير خطوات فى الطريق حتى سمع ضجة عظيمة يعرفها حق المعرفة ، ثم ظهر « عيروض » أمامه وهو يقول :

حمدا لله على سلامتك أيها الملك ..

فوقف الملك « سيف » وقد تراقصت على شفتيه ابتسامة ، ثم قال مخفيا أحساسه الغامر بالاطمئنان والتقدير :

ـ أين الآخرون يا « عيروض » ..؟

فقال « عيروض » وهو يشير بيده إلى الجبل الذى اختفى الشيخ « أبو النور » فى إحدى مغاراته :

ـ فوق هذا الجبل ومعهم « عاقصة » وهم جميعا بخير..

فقال له الملك « سيف » :

ـ إن « قان شاه » مهزوم فى حربه مع الكفار ، فأسرع إلى « عاقصة » وأحضرها هنا ، كما تحضر لى جوادا قويا من الجياد التى مات عنها فرسانها فى المعركة وأسرع فلست أظن أن « قان شاه » قادر على الصمود أكثر من هذا ..

وما كاد الملك « سيف » يتم حديثه حتى اختفى « عيروض » من أمامه بينما مضى الملك « سيف » يراقب سير المعركة التى تدور فى الوادى أمامه وقد ملأه القلق والرغبة فى المشاركة فى القتال ، وكان من الواضح أن

الجيش الذى يهاجم « قان شاه » قوى جبار ، كما أن نتيجة المعركة لو استمر الحال هكذا كانت معروفة وواضحة ..

وقبل أن يسترسل الملك « سيف » فى مخاوفه وأفكاره سمع صوت « عيروض » .. وسرعان ما رآه أمامه يقود جوادا ضخما أصيلا بينما تسير وراءه « عاقصة » .. وتقدم الملك « سيف » يفحص الجواد ثم قفز على ظهره ، ودار به دورات ، ثم اندفع إلى الأمام وهو يشهر سيفه ويصيح بـ « عاقصة » و « عيروض » :

ـ اختفيا عن الأنظار وكونا ورائى « عاقصة » عن اليمين ، و « عيروض » عن اليسار ، ولا تبقيا منهم فارسا على جواد ..

واستمر الملك « سيف » فى اندفاعه دون أن ينتظر منهما جوابا ، فقد كان يعرف أنهما فهما ما طلبه منهما ، كما كان يعرف قدرتهما على تنفيذ أوامره .. وحين وجد الملك « سيف » نفسه فى الوادى وسط القتال الدائر .. صاح وهو يدور بفرسه :

ـ جئتك يا « قان شاه » ..

ثم لكز جواده وهو يلوح بسيفه فى الهواء فى عنف ويعود به فى قوة ليطيح برأس أقرب الأعداء إليه .. وارتفعت الصيحات من كل مكان ، بينما كان « سيف » يشق الطريق وسط الأعداء شقا وضرباته تنزل كالصواعق فوق الرءوس ، بينما كان « عيروض » عن يساره يحمل الفارس بفرسه ويقذف به زميله فيدك الاثنين معا ، و « عاقصة » عن يمينه تنفخ شرار النار فتلهب عيون الجياد التى تقذف من عليها وتولى هاربة فى رعب .. ولم يطل أمد المعركة اذ سرعان ما اندفع المهاجمون ينسحبون وصيحات الفزع تتعالى من كل مكان والموت يلاحقهم أينما توجهوا .. وما هى إلا لحظات حتى خلا الميدان من المهاجمين الذين ولوا الأدبار تاركين

الاسلاب والعدد والجياد الشاردة وأجساد القتلى تغطى الوادى الفسيح ..

وأقبل الملك « قان شاه » مسرعا على جواده وهو يصيح فى دهشة وفرح :

ـ مرحبا بك أيها الملك .. لقد أنقذت حياتى وحياة أهل مدينة دوريز كلهم .

فقال له الملك « سيف » وهو يصافحه :

ـ لقد سبق لهم أن أنقذوا حياتى أيها الملك ..

فقال « قان شاه » :

ـ ولكنى لم أشهد حربا كهذه من قبل ، أنك كنت وحدك ومع هذا ...

ثم أشار بيده إلى الوادى الدامى أمامه وسكت .. فقال الملك « سيف » وهو يبتسم :

ـ وهذا من فعل خادمى « عيروض » وأختى « عاقصة » ..

وأشار بيده فظهر الاثنان أمام « قان شاه » الذى مضى يحدق فيهما ذاهلا ، بينما قال الملك « سيف » :

ـ لقد كنت على وشك الانهزام ، وكان لابد لنا من عمل سريع حاسم لنضع حدا للنهاية التى أصبحت وشيكة والتى لاحظتها من هناك ، من عند الجبل وأنا أرقب سير المعركة ، وعلى هذا فقد استعنت بهما لنهزم أعداءك ..

فقال الملك « قان شاه » :

ـ مرحبا بكم جميعا .. إلى مدينة دوريز ..

فقاطعه الملك « سيف » وهو يقول :

ـ ليذهب « عيروض » أولا ليرى ماذا سيحل بهذا الجيش المنهزم ..

أما « عاقصة » فلتذهب لاحضار « منية النفوس » وابنها والاخريات .. ولتعد أيها الملك ترتيب جيشك فقد يلم عدوك شعثه ويعاود الهجوم عليك ..

وانصرف « عيروض » مسرعا لينفذ أمر الملك ، بينما قالت « عاقصة » :

ـ هل أحضرهم إلى هنا أم إلى داخل المدينة ..؟

فأسرع « قان شاه » يقول :

ـ بل فى قصرى ، أنه منذ اليوم ملككم إلى أن تشاءوا الرحيل ..

فقال الملك « سيف » وهو يبتسم :

ـ طبعا إلى القصر يا « عاقصة » فإن فيمن جئن مع « منية النفوس » واحدة ستظل فيه إلى الأبد ..

ولم يتمالك « قان شاه » نفسه من أن يصيح فى لهفة :

ـ أتعنى ..

ثم سكت وقد تضرجت وجنتاه حتى غدتا بلون الدم .. وتعالت ضحكات الملك « سيف » وهو يقول لـ « عاقصة :

ـ هيا ولا تضيعى وقتا فان بعض الناس لا تقتلهم الحروب الدامية وإنما يقتلهم الانتظار .. !

وبينما أسرعت « عاقصة » تطير مختفية عن أعينهما ، كان الملك « سيف » يربت على كتف « قان شاه » وهو يضحك قائلا :

ـ والآن أيها الملك ، لتنظر فى أمر عسكرك حتى نعود إلى المدينة مسرعين ..

ولم يكن الأمر سهلاً ، فقد كان الجرحى فى جند «قان شاه» كثيرين ، كما كان الاعياء قد أخذ مأخذه من الجند الباقين ، وكانت

الخيل المذعورة تجرى فى كل مكان من الوادى مثيرة الذعر والقلق ، ولكن الملك «قان شاه» استطاع آخر الأمر بمعونة «سيف بن ذى يزن» وحفنة من رجاله أن يعيدوا الجرحى إلى داخل المدينة فى نظام ، وأن ينظموا مجموعات الحراسة ممن هم أقل إعياء من غيرهم ، وأن يتعقبوا الخيل الشاردة لاعادتها إلى المدينة .. وحين انتهى «قان شاه» من هذا كله صحب ضيفه إلى داخل المدينة وهو يشرح له سر هذه المعركة التى شهد آخرها قائلاً :

ـ لقد ظللت فترة بعد عودتى من مدينة البنات أعيش فى أمان أنا وأهل المدينة ، ليس لنا من هم إلا اتقان العبادة وتنقية النفوس وإحلال السلام والأمن بيننا .. وكنا نكتم أمرنا فلا نخبر به أحدًا خوفًا من مكر «الشعشعان» وغضب «عبد نار» الذى يحكم مدينة الزهور ولا يخرج عن طاعة الكاهن الملعون فى كل ما يأمره به .. إلى أن اقبلت علينا قافلة من التجار ظلت بين ظهرانينا أمدا ، وعندما رحلت كانت قد اكتشفت سرنا .. وسرعان ما كان «الشعشعان» قد علم بالأمر فأرسل إلى «عبد نار» يأمره بمهاجمتنا واعادتنا قسرًا إلى عبادة النار .. وقد بدأ «عبد نار» بأن أرسل إلى الرسل يسأل عن حقيقة ما بلغه من تركنا عبادة النار ، فلم أجد بدًا من أخباره بأمر هدايتنا ، كما أرسلت له مع الرسل دعوة إلى الإيمان بالله وترك عبادة ما لا ينفع ولا يفيد .. ولكنه أعاد إلى رأس الرسول مقطوعًا ومعه وعيد رهيب ..

فقال الملك «سيف» :

ـ لقد لقى الآن جزاء تجبره وعدوانه ..

فقال «قان شاه» وهما يدخلان من باب المدينة :

ـ إن أحداً لم يره بعد أن صحت صيحتك أيها الملك ، فعسى أن يكون قد قتل وكفانا شره .. !.

فقال «عيروض» وهو يظهر أمامها فجأة :

ـ بل لقد قتل أيها الملك وتشتت جيشه .. ومن سولت له نفسه الوقوف للم شعث المنهزمين ألحقته به إلى النار التى يعبدها فصاح «قان شاه» فى فرح :

ـ لقد أزحت عن قلبى همًا كبيرًا أيها المارد ، فيكفى أن يتفرغ الإنسان لعدو واحد .

فقال الملك «سيف» :

ـ هل تتوقع عدوانًا جديدًا من أحد أيها الملك ..؟!.

فقال «قان شاه» وهو يدله على الطريق إلى القصر :

ـ هناك «الشعشعان» وقد حدثتك عنه بما فيه الكفاية ، وليس «عبد نار» إلا واحدًا من رجاله ..

فقال الملك «سيف» وهو يتجه بجواده نحو القصر الذى ظهر فى نهاية الطريق ..

ـ سينصرك الله عليه كما نصرك على صنيعته ، ولن أبرح مدينتك حتى أطهر الأرض حولك من كل أعدائك ..

وقال «قان شاه» :

ـ إننى فعلاً أحتاج إلى معونتك أيها الملك ، فإن «الشعشعان» لا يبارى فى السحر والكهانة ، وأنا لست من رجاله .. وليس عندى من يستطيع أن يقف أمامه فى حرب أو قتال فهو يستخدم الجان ويسخرهم فى خدمته ، كما أنه تفوق على كل من عاش فى أرضنا من السحرة حتى أقروا له بالزعامة والرياسة ..

فابتسم الملك «سيف» وهو يقول :

ـ أما عن فروسيته فعندنا من «سعدون» و «دمنهور الوحش» و

«ميمون المجام» و «سابك الثلاث» من يستطيع وضع أنفه فى الرغام .. وأما عن سحره وكهانته فإن فى صفوفنا الحكيمة «عاقلة» و «برنوخ» الساحر و «أخميم» الطالب ، ولست أحسبه كفؤًا لواحد منهم ..

فقال «قان شاه» ونبرات الأمل تملأ صوته :

ـ أهم معك هنا أيها الملك ؟..

فضحك الملك «سيف» وهو يقول :

ـ بل هم فى حمراء اليمن ..

وامتلأ صوت «قان شاه» بخيبة الأمل وهو يقول :

ـ حمراء اليمن .. وأين نحن منها ..؟.

فقال الملك «سيف» :

ـ إن «عيروض» و «عاقصة» يستطيعان أن يحملاهم إلينا كما حملانى إلى هنا ..

فقال «عيروض» :

ـ نحن وحدنا لا نكفى ، ولكننى أستطيع الاستعانة بمن هم تحت أمرتى من الجان ، كما أن «عاقصة» تستطيع أن تطلب من أبيها أن يمدها بمن تشاء منهم ..

وعادت الابتسامة إلى وجه «قان شاه» وهو يقول :

ـ حقًا أيها الملك .. لقد بعثك الله إلىّ ليثبت الإيمان فى قلوب أهل دوريز ..

وكانوا قد وصلوا إلى باب القصر فترجل «قان شاه» والملك «سيف» الذى قال :

ـ لنترك الآن أحاديث الحروب لنبدأ فى حديث القلوب ، فأظن «نور الهدى» قد وصلت مع «منية النفوس» إلى داخل القصر..

فابتسم «قان شاه» مخفيًا ارتباكه وهو يصيح فى حارس القصر أن يدله على مكان الضيوف الذين جاءوا إلى القصر ، ووقف الحارس ذاهلاً وهو يقول :

ـ ولكن أحدًا لم يحضر أيها الملك ..

ـ وصاح الملك «سيف» فى قلق :

ـ ماذا تقول ؟..

وحين كرر الحارس ما سبق أن قاله ، انتاب الملك «سيف» قلق داهم فصاح بـ «عيروض» :

ـ إذهب إليهم حيث تركتهم فوق الجبل وعد فى الحال لتخبرنى لماذا لم تعد «عاقصة» بهم ..

وقاد الملك «قان شاه» الملك «سيف» إلى داخل القصر ، وهو يحاول أن يهدأ من روعه وأن كان هو لا يقل قلقًا وانزعاجًا عنه .. إلا أن انتظارهما لم يطل ، إذ لم يمض وقت طويل حتى كان «عيروض» يعود ومعه «عاقصة» التى وقفت مطأطأة الرأس والملك «سيف» يصيح بها :

ـ أين «منية النفوس» يا «عاقصة» .. أين «مصر» أين الجميع ؟!..

فقالت «عاقصة» فى صوت متخاذل :

ـ لست أدرى أيها الملك ، لقد ذهبت لأحضرهم كما طلبت منى ولكنى لم أجدهم حيث تركتهم ، فأخذت أبحث عنهم فى كل مكان دون جدوى ، ولم أكن أدرى كيف أعود لأخبرك ، إلى أن حضر «عيروض» ..

فقال الملك «سيف» فى غضب :

ـ إلى بجوادى ..

فقال «قان شاه» وهو يسرع خلف «سيف بن ذى يزن» الذى كان

يتجه إلى خارج القصر فى سرعة :

ـ إلى أين أيها الملك ..؟.

وقفز الملك «سيف» إلى جواده وهو يقول :

ـ سأذهب لأبحث عنهم بنفسى ..

ثم صاح «عيروض» :

ـ تقدم ودلنى على الطريق ..

واندفع يلكز جواده فى عنف ، فانطلق به يسابق الريح وإلى جواره تجرى «عاقصة» وأمامه يجرى «عيروض» .. وأسرع «قان شاه» يمتطى جواده ويتبعه بكل ما فى الجواد من قوة ..

* * *

حين وصل الملك «سيف» إلى نهاية الوادى ، إنحرف بجواده عن الطريق متجهًا نحو الجبل ، وتبعه «قان شاه» عن كثب ، بينما قال «عيروض» :

ـ لقد كانوا فى أعلى الجبل أيها الملك ..

ولم يجب الملك «سيف» بل استمر فى تقدمه السريع حتى وصل إلى سفح الجبل ، فقفز عن جواده وهو يقول :

ـ سأتسلق الجبل إليهم ..

فقال «عيروض» :

ـ إنى أستطيع أن أحملك إلى أعلى دون عناء ..

وقاطع «عيروض» صوت هادئ وقور يقول :

ـ مهلاً يا «عيروض» .. لا داعى لهذا .. فهم ليسوا فى أعلى الجبل ..

والتفت الملك «سيف» ليرى الشيخ «أبا النور» يخرج عليه من المغارة

بوجهه الهادئ ولحيته البيضاء الوقور .. وأحس الملك بغضبه ينفثئ وبنفسه تهدأ ، وقال :

ـ أتعرف مكانهم أيها الشيخ المؤمن ..؟!.

فقال الشيخ «أبو النور» فى صوته الهادئ :

ـ لا تنزعج يا بنى من قدر الله .. فإن لكل شىء سببًا .. إن «منية النفوس» وابنها «مصر» أخذها أبوها «قاسم العبوس» غصبًا وهى فى طريقها إلى الجزائر ثانية ، فأرسل «عاقصة» و «عيروض» ليقتلا المارد الذى يحملها ويعيدها مع ابنك إليك ..

أما «مرجانة» و «نور الهدى» وباقى البنات فقد أسرهم عدوك وعدو «قان شاه» الكهين «الشعشعان» وهن عنده فى الأسر والهوان وخلاصهم على يدك أنت أيها الملك ..

- ١٩ -

. كان السحرة فى مدينة «قاسم العبوس» عندما آمن على يدى الملك «سيف» غائبين فى رحلتهم السنوية إلى بابل ليتلقوا علوم السحر عن هاروت وماروت ، فلم يعلموا بخبر ارتداد الملك «قاسم العبوس» عن كفره .. ولكنهم حينما عادوا إلى المدينة وعلموا بالأمر ملأهم الحنق لضياع كل تعبهم وجهدهم وتحطم أرصادهم وبطلان سحرهم .. واندفع زعيمهم «الغيدروس» يقتحم القصر على الملك «قاسم العبوس» ويصيح فيه :

ـ كيف حدث أيها الملك أن تركت عبادة النار ، وسمحت بزواج الرجال من النساء ، وسكت على تحطم الارصاد ..؟!.

فقال له الملك «قاسم العبوس» فى هدوء :

ـ لقد كان الملك «سيف» أقوى من أرصادكم فحطمها ، وأقوى من جندى فخشيت على نفسى الهزيمة وعلى مدينتى التدمير .. وإن كنت ترى فى نفسك القدرة على هزيمته واستعادة بناتى منه فافعل ، ولكن لا تدخلنى معه فى حرب أو صدام ..

وظل «الغيدروس» ينظر إليه لحظات فى صمت ، ثم قام فجأة واندفع مهرولاً إلى معبد النار حيث أغلق عليه الهيكل ومضى يعزم ويهمهم ويدمدم ويتلو أرصاده وسحره وهو يطلق البخور ويرقص حول النار المتقدة .. إلى أن اهتز المكان بصيحة عظيمة وظهر مارد مهول الخلقة

منحنيًا أمام «الغيدروس» وهو يقول :
ـ نعم يا كهين الزمان ..
فقال «الغيدروس» :
ـ من أنت من أرهاط الجان ..؟.
فقال له الجنى :
ـ إننى خادمك ذو الرأسين .. عليك الأمر وعلىّ الطاعة ..
ففرك «الغيدروس» يديه سرورًا ، وهو يقول :
ـ ألا تريد أن تنال حريتك إلى الأبد ، ولا يستطيع أحد من السحرة أن يسخرك فى خدمته ..؟!.
فرفع المارد رأسه وهو يقول :
ـ ومن الذى لا يتمنى هذا أيها الكهين ..؟!.
فقال له «الغيدروس» :
ـ إذن فالحق بالملك «سيف بن ذى يزن» حتى ولو كان فى آخر الدنيا ، وأحضره إلىّ فى الحال ..!.
فعبس وجه المارد وهو يقول :
ـ الملك «سيف بن ذى يزن» .. أنت تعلم أيها الكهين أنه دخل أرضنا وفى خدمته مردة من الجان العتاه ، كما أن فى جنده سحرة وكهان .. ولعل أحدهم صنع له ما يقيه من هجوم مثلى من الجان بأرصاد لا أقوى عليها ، وربما أهلكتنى إن أنا حاولت الاقتراب منه ..
فأطرق «الغيدروس» برهة مفكرًا ، ثم رفع رأسه قائلاً :
ـ أنت محق فى هذا ياذا الرأسين ، ولكن إذا لم تستطع أن تأسره هو ، فأحضر زوجته وابنه فإن هذا كفيل باعادته إلى بلادنا بقدميه فقال ذو الرأسين وهو يغادر «الغيدروس» :

ـ سأحضرهما إليك مهما كلفنى الأمر ..

* * *

وكانت مهمة ذى الرأسين أسهل مما توقع ، فقد وصل إلى الجبل والمعركة محتدمة فى الوادى وكل البنات يتفرجن عليها بينما انفردت «منية النفوس» بابنها فى خيمتها .. فأسرع يتسلل إلى الداخل حيث حملها هى وابنها واندفع بهما إلى طبقات الجو العليا فى سرعة فائقة ، وهو يهنئ نفسه على حسن توفيقه ، ويحلم بالحرية التى أصبحت فى متناول يديه .. وقالت «منية النفوس» حين أحست بنفسها تطير فى الهواء :

ـ من أنت يا أخا الجان ، ولماذا تحملنى بعيدًا عن زوجى ورفيقاتى ..؟!.

فقال ذو الرأسين وهو مستمر فى طيرانه متجهًا نحو جزر واق الواق :

ـ إننى خادم «الغيدروس» كاهن أبيك ، وأحملك إليه حسب أمره إلى مدينة «قاسم العبوس» ..

فدهشت «منية النفوس» وعادت تسأل :

ـ ولكن لماذا ؟ لقد غادرت أبى ونحن متفاهمان وقد زال كل ما بصدره من غضب وحنق ..!.

فقال ذو الرأسين وقد اطمأن إلى أن أسيرته لا تستطيع منه فكاكًا :

ـ إن أباك لا دخل له فى الأمر .. إن الكهين «الغيدروس» حين عاد فوجئ بما حدث ، وهو الذى يحاول الآن أن ينتقم من زوجك ليعيد كل شىء إلى ما كان عليه ..

فقالت «منية النفوس» وهى تحاول أن تعطى نفسها مهلة للتفكير فى طريقة الخلاص :

ـ ألم يكن «الغيدروس» موجودًا عندما أبطل الملك «سيف» أرصاده ..

فقال ذو الرأسين :

ـ لقد كان فى رحلته السنوية إلى بابل ليتلقى علوم السحر عن هاروت وماروت ..

وعادت «منية النفوس» تسأل لتكسب ثقته ، وتخرجه عن حرصه عليها تجد لنفسها فرصة للهرب :

ـ أهما ساحران : هاروت وماروت هذان ..؟.

فضحك ذو الرأسين وهو يقول :

ـ كلا أيتها الملكة .. إنهما ملكان من الملائكة اعترضا على الله حين كرم آدم ، فامتحنهما الله ببعض ما بآدم وذريته ، فسلط عليهما الشهوة فتملكت قلبيهما .. فبينا هما يسبحان فى الأرض إذ صادفا إنثى متعها الله بالسحر والفتنة والجمال الفائق .. فاشتهاها كلاهما وراوداها عن نفسها ، فتمنعت عليهما ، واشترطت أن يعلماها سر استطاعتهما أن يطيرا إلى السماء كما يسيران على الأرض .. فأخبراها أن هذا بسر اسم الله الأعظم ، فقالت لهما إنها لهما إذا علماها هذا الاسم ..

ولم يملكا نفسيهما أمام إلحاح الشهوة عليهما فعلماها السر الأعظم .. فدعت به فرفعها إلى السماء ، أما الملكان فانهما ثبتا إلى الأرض بخطيئتهما ، ولم يعودا بقادرين على الصعود إلى السماء .. فأوحى الله إليهما هل ترضيان بقصاص الدنيا أم بقصاص الآخرة ، فإن القصاص لاحق ببنى آدم الذين يخطئون ، وأنتما شئتما أن تكونا مثلهم فلا بد أن تتحملا ما يتحملون من قصاص .. فقالوا إلهنا وسيدنا رضينا بقصاص الدنيا فإنها

تفني ، فصلبا على سور بابل ، يلقيان عذاب الصلب إلى يوم القيامة ، ولكنهما يتكلمان بالعزائم والطلاسم وعلوم الشر والكهانة تنفيسًا عما يجدان من ألم وعذاب ، وليكثر الشر في بني آدم الذين كانت واحدة منهم سبب ما حدث لهما .. ولهذا يقصد أرباب السحر والكهانة إلى وادي بابل حيث يسترقون السمع إليهما ليزيد علمهم مما يقوله هاروت وماروت ..

فقالت «منية النفوس» :

ـ وكان «الغيدروس» هناك إذن ليسمع منهما ما يزيد شره وإثمه وبهتانه ..

فقال «ذو الرأسين» :

ـ هو وكل السحرة في مدينة أبيك ..

فقالت «منية النفوس» :

ـ هذا إذن سر انتصار الملك «سيف» علينا .. فلو كان سيدك «الغيدروس» حاضرا لما تمكن الملك «سيف» منا .. ومن أخذي أنا وأختي «نور الهدى» قسرًا ..

ودهش ذو الرأسين مما يسمع ، وقال لها :

ـ ماذا تقولين أيتها الملكة ؟.

فقالت «منية النفوس» وقد بدأت خطة الفرار تتضح في رأسها :

ـ لماذا لم تأخذ الملك «سيف» بدلاً من إضاعة الوقت بحملي. أنا وابني .. لو أنك أخذته لأرحت نفسك وأرحتني ونفذت ما يريده «الغيدروس» ..

فقال «ذو الرأسين» والدهشة ما زالت متملكة عقله وقلبه :

ـ أريحك أنت أيتها الملكة ، لقد فهمت أنك ذهبت معه باختيارك ..

فقالت «منية النفوس» :

ـ وهل آمن أبى باختياره .. لقد اضطر هو واضطررت أنا إلى مجاراته خوفًا من قوته وبطشه ..

فقال «ذو الرأسين» :

ـ لقد فهمت .. ولكنى ما كنت أستطيع أن أخطف الملك «سيف» وهو مرتد ذلك النطاق المطلسم فهو يحرق كل من اقترب منه بسوء من الجن ..

فقالت «منية النفوس» :

ـ إنى أعرفه فقد صنعته له الحكيمة «عاقلة» ولو كنت أخبرتنى لتمكنت من استدراجه حتى يخلعه فتستطيع خطفه ، وتخلصنا منه ومن بطشه .. أما الآن فقد ضاعت الفرصة ، فسرعان ما سيعلم أنك الذى خطفتنى ولن ينجيك من انتقامه وبطشه حصولك على حريتك ، أو حماية «الغيدروس» الذى سيكون مشغولاً بحماية نفسه هو ..

واضطرب ذو الرأسين وهو يدرك ما فى كلامها من صدق وقال :

ـ وما العمل الآن أيتها الملكة ..؟!.

فقالت «منية النفوس» فى صوت هامس ، وكأنما تحدث نفسها :

ـ إذا أنت عدت بى الآن نلت حريتك من «الغيدروس» ونلت أحسن الجزاء منى ومن أبى «قاسم العبوس» ولكن انتقام الملك «سيف» سيلحقك ، كما سيلحق بى وبأبى ..

فقال «ذو الرأسين» :

ـ تمامًا ..

وعادت «منية النفوس» تقول وكلماتها تخرج فى بطء وهدوء :

ـ ولكن إذا تمكنا من أسر الملك «سيف» فستنال حريتك إلى الأبد ، وتنعم من «الغيدروس» بخير مكافأة ، بل ربما جعلك ملكًا على الجان

مكان «الخيرقان» الذى عمل فى خدمة الملك «سيف» ..

وقال «ذو الرأسين» مؤمنًا :

ـ هذا صحيح ..

وقطعت «منية النفوس» حديثه وهى تصيح فى لهفة :

ـ ما هذا الذى أراه تحتنا ..؟!.

فقال «ذو الرأسين» وهو ينظر إلى أسفل :

ـ هذه آخر أرض قبل البحر الذى يفصل الجزائر عن غيرها من بلاد الدنيا ..

فقالت «منية النفوس» فى لهجة الأمر :

ـ إذن هيا ، إنزل بنا إليها فى الحال ..

وصدع ذو الرأسين إلى أمرها دون تفكير ، وقد خيل إليه أنها اهتدت إلى الحل الذى يحقق له حريته إلى الأبد .. وحين نزل إلى الأرض وضع «منية النفوس» وابنها «مصر» فى رقة فوق الحشائش المنتشرة التى تكاد تغطى وجه الأرض .. ثم وقف أمامها فى انتظار ..

وكانت «منية النفوس» تكاد تطير من الفرحة إذ استطاعت أن تحتال على المارد قبل دخوله جزائر واق الواق .. وكان ذهنها مشغولاً ، تفكر فى الكيفية التى تستطيع بها أن تغافل المارد اليقظ وترتدى الثوب الريش وتحمل ابنها معها وتعود طائرة .. إنها لو استطاعت أن ترتدى ثوبها الريش لما أمكنه أن يصل إليها أبدًا .. ولكن كان لابد لها من شغل المارد ومنعه من التفكير فى شأنها .. فمضت تسير رائحة غادية كأنما تفكر وهى تقول فى صوت عال :

ـ لو كنت فى مكان الملك «سيف» وعلمت بأمر خطف زوجتى فماذا أفعل ..؟.

فقال ذو الرأسين ، وقد استهوته طريقتها فى الكلام والتفكير :
ــ لست أدرى أيتها الملكة ..
فعادت «منية النفوس» وهى تطيل فى خطوها وتنظر إلى الأرض فى إمعان :
ــ لو كنت أنا مكان الملك «سيف» لأسرعت على الفور أحاول أن ألحق بالفارين قبل الوصول إلى جزائر واق الواق حيث تصعب المطاردة علىّ وتتعذر .
وصاح «ذو الرأسين» فى إعجاب :
ــ تمامًا .. هذا صحيح .. اسرع وراء الفارين ..
فقالت «منية النفوس» وهى تقف أمامه :
ــ إذن ننتظره هنا أيها المارد الذكى ، حتى إذا ما جاء اختفيت أنت عن الأنظار ، وحاولت أنا أن أستدرجه حتى أخلع عنه النطاق المطلسم فتحمله أسيرًا ذليلاً إلى «الغيدروس» وتحملنى سالمة إلى أبى «قاسم العبوس» ..
فمضى «ذو الرأسين» يصفق فى بهجة وهو يصيح :
ــ وأنال حريتى ..؟! .
فعقبت «منية النفوس» وعيناها تلتمعان :
ــ وجائزتك من «الغيدروس» ومن أبى ، ومنى .. ! .
وتوقف «ذو الرأسين» فجأة عن الصياح والتصفيق ، وقد اغبر وجهه ، وقال :
ــ ولكن ماذا لو أنه لم يحضر بنفسه وإنما أرسل أعوانه الأقوياء لقتلى واستردادك ..؟! .
وحين نظرت إليه «منية النفوس» وجدت فى عينيه بوادر الشك ،

وأسقط فى يدها .. فلم تستطع أن تواجه نظرات الريبة التى يرميها بها فأطرقت إلى الأرض وهى تقول فى تخاذل :

ـ وهل تخاف أعوانه أيها المارد ..

فقال «ذو الرأسين» وهو يقترب منها :

ـ إننى أخاف الغدر أيتها الملكة ..

وقبل أن تجيبه «منية النفوس» ارتفعت صيحة إلى جوارهما ، وهبطت فوق الأرض «عاقصة» وهى تصيح فى فزع وذعر :

ـ أيها المارد القوى احمنى من عدوى الغادر ..

ونظر «ذو الرأسين» إلى الماردة الجميلة التى زادها الذعر جمالاً فاقترب منها وقد نسى «منية النفوس» وابنها قائلاً :

ـ ماذا بك يا أخت الجان ؟..

فبكت «عاقصة» وهى تنظر إليه نظرات الهبت الشوق فى قلبه ، وقالت فى كلمات متكسرة متأودة :

لقد كنت أتنزه وحدى حين رأيت هذا المارد القبيح الوجه ، المشوه الخلقة ينظر إلىّ بعينين يتطاير منها الشرر وحين سألته لماذا يتبعنى ، هجم على يريد أن يغتصبنى فتخلصت منه بكل قوتى وأسرعت هاربة وهو على أثرى ، ولولا أن رأيتك أيها المارد القوى الجميل لأهلكنى اليأس ، ولوقعت فريسة سهلة بين يديه ..

فقال «ذو الرأسين» وقد انتشى من تأودها وتثنيها :

ـ وأين عدوك هذا لأمزقه أيتها الماردة الفاتنة ..؟.

وقالت «عاقصة» وهى تزداد إمعانًا فى تثنيها ودلالها :

ـ لو قتلته أيها المارد لصرت ملك يدك ، وأسيرة شهامتك ..

وفقد «ذو الرأسين» حذره ، فأخذ يتقدم نحوها وهو يقول :

ـ لن يستطيع أحد أن يقترب منك وأنا هنا إلى جوارك ..

ولكنه ما كاد ينتهى من كلماته حتى ارتفعت صيحة عظيمة ، وأصابت عنقه لطمة هائلة أطاحت برأسه من فوق كتفيه ، فهوى إلى الأرض ، بينما ظل جسده يتأرجح فى الهواء قليلاً ثم تداعى جثة هامدة ..

وقال « عيروض » وهو يتقدم من « عاقصة » :

ـ هذا صريع عشقك يا « عاقصة » ..

فقالت « عاقصة » فى غضب :

ـ ألم نتفق على أسره حيًا ليخبرنا بما نجهل من أمر « قاسم العبوس » ؟.

فقال « عيروض » وهو يركل كل الجسد بقدمه فى حنق :

ـ لقد نسيت كل اتفاق وأنا أرى هذا الكلب يغازلك بكل وقاحة وجرأة ، وأنت تتثنين أمامه كأنما فتنت بأنفه الافطس ..

وضحكت « منية النفوس » وهى تتقدم منهما قائلة :

ـ كفاكما عراكًا ، لقد أهلكتما العدو وهذا يكفى .. ولابد أن الملك « سيف » فى قلق من أمر غيابى أنا وابنه ، فهيا بنا إليه واتركا هذا اللجاج الذى لا فائدة منه ..

ونظرت « عاقصة » إلى « عيروض » فى حنق وغضب ، وتقدمت نحو « منية النفوس » تحملها وتطير بها فى صمت .. بينما تنهد « عيروض » وحمل « مصر » وتبعها طائرًا نحو مدينة دوريز ..

- ٢٠ -

حين وصلت «منية النفوس» وابنها «مصر» إلى مدينة دوريز ، قرر الملك «سيف» بعد أن استمع منها إلى ما سمعته من ذى الرأسين أن تعود فى الحال هى وابنها إلى حمراء اليمن لتكون بعيدة عن متناول «قاسم العبوس» وكاهنه ، وحتى يستطيع هو أن يفرغ لأمر القتال المتوقع مع «الشعشعان» .. ولكن «منية النفوس» قالت وهى تطرق إلى الأرض :

ـ لست أجد لى وجهًا أقابل به «شامة» و «طامة» و «الجيزة» ..

فقال الملك «سيف» :

ـ يذهب «عيروض» لإخبارهم بقدومك ليزينوا حمراء اليمن لمقدمك ، وليعدوا لك استقبالاً حافلاً بأمرى .. وبعد ذهاب «عيروض» تحملك «عاقصة» إلى هناك ..

فقالت «عاقصة» فى صوت حاد :

ـ أحسنت يا أخى فلست أريد أن أسير مع خادمك الوقح هذا فى طريق واحد بعد اليوم ..

ودهش الملك «سيف» للهجة التى تتحدث بها «عاقصة» فقال :

ـ ما الأمر يا «عاقصة» ، هل أغضبك «عيروض» ..؟.

فقالت «عاقصة» وقد ازداد انفعالها وغضبها :

ـ إنه تعلم الفصاحة هذه الأيام ، ولم يجد من يتعلمها فيه سواى ،

فمضى يتحدث عنى بما لا يليق ..

وضحكت «منية النفوس» وهى تقول :

ـ مهلاً يا «عاقصة» ، ،.. إن «عيروض» لم يقصد الإساءة إليك ..

واندفع «عيروض» يقول :

ـ حياك الله أيتها الملكة ، هل فى خوفى على «عاقصة» ما يضايقها أو يضيرها ..

فصاح به الملك «سيف» :

كفى يا «عيروض» هذا ليس وقت مثل هذا الكلام ..

فاقترب «عيروض» من الملك «سيف» وقال فى صوت خافت :

ـ إننى أيها الملك لا أحمل لـ «عاقصة» سوى كل ود ومحبة . وليس لى من أمل إلا أن تجزينى على خدماتى لك بأن تزوجها لى .. ! .

فصاحت «عاقصة» فى غضب وثورة :

ـ هل سمعت .. ها هو العبد قد بدأ يتطاول على أسياده .. ألا تعرف أننى أخت الملك «سيف» فى الرضاع ، ومن أنت ..؟ خادم الملك وعبده ، يملك زمامك باللوح المرصود .. فقال «عيروض» موجهًا خطابه إلى الملك «سيف» :

ـ إن عبوديتى فى يدك أيها الملك ، وهى قدر لابد أن يزول .. أما هى فتنسى أنها إن كانت بنت الملك الأبيض فأنا ابن الملك الأحمر ، ونحن إن لم نجتمع على شىء فنحن نجتمع على حبك والتفانى فى خدمتك ..

وكادت «عاقصة» تعود إلى الصياح من جديد ، إلا أن الملك «سيف» رفع يده يسكتها وقال :

ـ إسمع يا «عيروض» .. لا تعد إلى هذا الحديث حتى تنال حريتك فإذا ما أصبحت حرًا فعليك أن تقنعها هى أولاً بزواجك ، وحين توافق

هي فسأبارك زواجكما .. وأنا أعدك أن أمنحك حريتك عند انتهاء مهمتنا هنا .. أما الآن فإن أمامنا عملاً كثيرًا ، فإننى أود أن تعودا إلىّ بأسرع مايمكن بعد أن تصل « منية النفوس » و « مصر » إلى حمراء اليمن برجالى من الفرسان والحكماء ليعينونا فى حربنا مع «الشعشعان» الذى سمعت عن فروسيته وسحره الكثير..

فقال « عيروض » :

ـ إننى أخدمك أيها الملك بحياتى ، وما دامت حريتى هى الطريق إلى قلب «عاقصة» فسأعمل على الحصول عليها ولو كلفنى هذا أن أحمل إليك هنا حمراء اليمن نفسها .. فضحك الملك « سيف » وهو يقول :

ـ لا .. إنما أنا أريد الحكيمة « عاقلة » و « برنوخ » الساحر ، و «اخميم الطالب» . كما أريد «سعدون الزنجى» و «سابك الثلاث» و «دمنهور الوحش» و «ميمون الهجام» ..

فقال « عيروض » وهو يستعد للذهاب :

ـ حسنًا سأخبر المدينة بمقدم الملكة ، ثم أبلغ الحكيمة «عاقلة» بأمرك لهم ، وسأذهب إلى بلادى لأعود بأعوان يعينونى على حملهم إليك عندما يتم استعدادهم لاصطحابى ..

ثم انطلق إلى كبد السماء كالشهاب .. وقالت «عاقصة» :

ـ لقد أطمعته فى بحديثك هذا يا أخى ..

فالتفت إليها الملك «سيف» قائلاً :

ـ إن الشيء الوحيد الذى يجب أن نحترمه هو الحب .. وأنت لست مجبرة على شيء ، فإن استطاع باخلاصه وتفانيه أن يملك قلبك فالأمر لك ، وإلا فليس هناك من يرغمك على شيء لا تحبينه ..!.

وقالت «منية النفوس» :

ـ إن «عيروض» يا «عاقصة» لا يعيبه شيء سوى عبوديته ، وسوف يحصل على حريته بجهده وعرقه .. وهو بهذا أجدر بتقديرك ممن لا يفهم معنى الكفاح من أجل الحرية .. وعاد الملك «سيف» يقول فى حزم :

ـ لقد قلت إن هذا الموضوع لا محل له الآن .. إن الوقت قد حان لتبدأ رحلتك إلى حمراء اليمن ، فهيا يا «عاقصة» احملى «منية النفوس» و «مصر» إلى هناك .. وأحب أن تساعدى «عيروض» فى إحضار الفرسان والحكماء إلى هنا دون تعويق فنحن لا ندرى متى يبدأ الغزو تحركه ..

ولم ترد «عاقصة» على حديثه ، بل التفتت إلى «منية النفوس» قائلة :

ـ هل أنت مستعدة أيتها الملكة ..؟.

فقالت «منية النفوس» وهى تمد يدها إلى الملك «سيف» مصافحة :

ـ إننى متسعدة يا أختاه ..

وما أن انتهى الملك «سيف» من وداع زوجته وابنه حتى حملتهما «عاقصة» واندفعت بهما طائرة نحو حمراء اليمن ، والملك «سيف» يشيعهم ببصره إلى أن غابا فى كبد السماء ..

* * *

ظلت «منية النفوس» نهب القلق والاضطراب طوال الرحلة .. ولم تجد فى «عاقصة» ما يسكن قلقها ويزيل اضطرابها ، إذ كانت «عاقصة» مشغولة بنفسها عن ملاحظة ما تعانيه «منية النفوس» من خشية اللقاء المنتظر بزوجات «سيف بن ذى يزن» .. وهى التى غدرت بهن وتركتهن هاربة هى وولدها .. وكان أخشى ما تخشاه لسان «طامة» الحاد الذى لا يعرف هوادة ولا رفقًا .. ولكن اضطرابها وقلقها ما لبثا أن زايلاها عندما أشرفت «عاقصة» بها على حمراء اليمن .. فقد كانت المدينة فى

أبهى حلل الزينة ، وأصوات الدفوف والزغاريد تتصاعد من كل مكان فيها .. وقالت «عاقصة» وهى تنزل بها فى أول الوادى الذى ينتهى بباب المدينة :

ـ لقد وصل قبلنا بالفعل .. وها هم قد استعدوا لاستقبالك ..

وأحست «منية النفوس» بلهجة الغيظ التى تظهر فى صوت «عاقصة» وتذكرت تلك السرعة الهائلة التى كانت تطير بها والتى لم تبال بها لانشغالها بما يملأ قلبها من أفكار وشكوك . فأدركت أن «عاقصة» كانت تريد أن تسبق «عيروض» إلى المدينة لتثبت فشله وتخاذله ، وابتسمت لنفسها وهى تقول :

ـ إن الحب يصنع الأعاجيب ..

فالتفتت إليها «عاقصة» قائلة :

ـ ماذا تقولين يا «منية النفوس» ..؟!.

وانفتح باب المدينة فأعفى «منية النفوس» من الإجابة ، وتقدم منه موكب طويل مهيب ، سارت على رأسه الحكيمة «عاقلة» وإلى جوارها «برنوخ" الساحر ، بينما جاءت وراءها زوجات «سيف بن ذى يزن» : «شامة» و «طامة» و «الجيزة» ووراءهن كان يسير الأمير «دمر» والأمير «نصر» .

وصاحت «منية النفوس» وهى تشير إلى ابنها «مصر» :

ـ انظر يا «مصر» ها هم إخوتك .. «دمر» و «نصر» .. لقد كبرا وأصبحا من الفرسان .. ما أشبه ثباتهما فوق صهوات الجياد بثبات أبيك الملك «سيف» ..

ووراء الأشقاء سار الفرسان الأربعة وهم فى ملابس الميدان الكاملة ، وخلفهم باقى رجال المدينة ونسائها .. وقالت «عاقصة» :

ـ إنهم يستقبلونك أيتها الملكة استقبال الفاتحين ..

فقالت «منية النفوس» والدموع تحجب عن عينيها الرؤية الواضحة :

ـ ما أغبانى إذ ظننت أنهن سيشمتن بى .. !.

فضحكت «عاقصة» وهى تقول :

ـ يشمتن .. ! ماذا تقولين أيتها الملكة ؟.. لقد نسيت حمراء اليمن معنى البهجة من يوم أن غادرتها ، وعرفت المدينة كلها معنى الحزن والألم بعد أن افتقدتك أنت وابنك .. إن اليوم عيد ..

وتجاوبت كلماتها مع أصداء الأهازيج والأغانى تنبعث من الموكب المتقدم ، الذى وقف على مسافة من مكان «منية النفوس» ثم تقدم «دمر» على جواده وإلى جواره «نصر» ووراءهما مجموعة من الرجال يحملون عرش «منية النفوس» الذى تعودت أن تجلس عليه فى قصرها ، ووراءهم سارت الحكيمة «عاقلة» بينما ساد السكون الميدان كله ..

وحين وقف الأميران أمام «منية النفوس» ترجلاً ، ثم تقدما إليها يقبلان يدها ، ولم تتمالك «منية النفوس» نفسها فضمتهما إليها تقبلهما والدموع تتسابق من عينيها ، ثم أشارت لهما إلى أخيهما «مصر» فمضيا إليه يحملانه ويقبلانه وهو يبتسم فى وجهيهما ويضحك .. ثم تقدم منها «دمر» قائلاً :

ـ والآن هذا عرشك أيتها الملكة ستحملين فيه إلى قصرك ..

وتقدمت الحكيمة «عاقلة» قائلة :

ـ مرحبًا بك يا «منية النفوس» ..

وارتمت «منية النفوس» على صدرها وهى تبكى ، وتقول من بين دموعها :

ـ هل تغفرون لى ؟.. هل تغفرون لى ؟ !..

فربتت الحكيمة «عاقلة» على كتفها وهى تقول :

ـ كفاك يا بنية ، إن شوقنا إلى رؤياك لا يقل عن فرحنا بلقائك ..

وما كادت «منية النفوس» تترك عناق الحكيمة «عاقلة» حتى وجدت نفسها فى أحضان «شامة» التى أخذت تقبلها فى شوق وهى تردد عبارات التحية والترحيب ، وبعدها «طامة» ، ثم «الجيزة» التى كانت تبكى وهى تبادلها القبلات وعبارات التهانى ..

وقالت الحكيمة «عاقلة» :

ـ هيا بنا إلى داخل المدينة ، فالكل يشتاق إلى رؤيتك ورؤية «مصر» ..

وجلست «منية النفوس» على عرشها ، ومعها «مصر» وإلى جوارها «عاقصة» وأمامها «دمر» و «نصر» ووراءها يسير الجميع إلى داخل المدينة بينما ينثر الجنود عليها الورود ، وتنطلق الزغاريد من النساء ، ويتردد فى المدينة كلها صوت الفرح والغناء ..

ونسيت «منية النفوس» كل شىء وسط هذه المظاهر الرائعة من الحب والوفاء ، إلا أن السهرة الطويلة الممتدة التى عاشتها فى القصر وسط «شامة» و «طامة» و «الجيزة» أعادت إلى شفتيها البسمة التى نسيتها منذ غادرت هذا القصر ، وأعادت إلى قلبها دقاته المرحة المتفائلة التى حسبت أنها لن تحس بها أبدًا بعد ما مر بها من أهوال ..

وقالت «طامة» والعشاء يرفع من أمامهن :

ـ هل سترقصن كما فعلتن يوم رقصت «منية النفوس» بثوبها الريش ..

وتجاوبت الضحكات المرحة و «منية النفوس» تقول :

ـ إنى هنا عرفت معنى الحياة والحب .. وألف ثوب من الريش لن تغرينى بترككن أبدًا ..!.

وقالت الحكيمة «عاقلة» :

ـ لقد أخبرنى «عيروض» أن الملك «سيف» فى حاجة إلينا .. وقد أصدرت الأوامر إلى من طلبهم الملك لنرحل جميعًا فور عودة «عيروض» ..

فقالت «عاقصة» :

ـ وأين ذهب ..؟.

فقالت الحكيمة «عاقلة» :

ـ لقد قال إنه ذاهب إلى بلاده ليعود بعدد من أعوانه ليحملونا جميعًا ..

ـ فقالت «عاقصة» :

ـ وله أعوان هذا العبد ..؟.

ثم التفتت إلى «منية النفوس» قائلة :

ـ سأذهب أنا إلى أبى لأحضر من جنوده من أعتى الجان من يحملون المدينة كلها لو أرادوا ..!.

وقالت «منية النفوس» وهى تحاول أن تمسك بها :

ـ ولكن فيمن سيحضرهم «عيروض» الكفاية ..

وانفلتت منها «عاقصة» وهى تحلق فى الجو قائلة :

ـ إن أخى يريد المعونة ، وأنا التى سأقدمها له ..

وحينما غابت «عاقصة» عن أنظارهم ، قالت الحكيمة «عاقلة» فى دهشة :

ـ ماذا أثارها ؟..

فمضت «منية النفوس» تحكى لهم قصة غرام «عيروض»

بـ «عاقصة» ، وهن يقاطعنها بضحكاتهن المرحة ، وتعليقاتهن المتخابثة ..
فلما أتمت الحكاية قالت الحكيمة «عاقلة» :
ـ إن الحب لا يعرف الفرق بين الإنس والجن .. إن الحب دائمًا هو الحب ..
وبينما عادت زوجات الملك «سيف» إلى ضحكهن وعبثهن ، قالت الحكيمة «عاقلة» لـ «منية النفوس» :
ـ ولكننا أيتها الملكة نريد أن نعرف حكايتك أنت ، وماذا حدث لك منذ أن غادرت هذا القصر إلى أن عدت إليه ..
ونظرت «منية النفوس» إلى الوجوه المتطلعة إليها فى اهتمام ، والعيون المحدقة فيها فى تساؤل ، فابتسمت قائلة :
ـ حسنًا ، ولو أنها حكاية طويلة ..
ومضت الملكة «منية النفوس» تحكى ، والليل يطول ، والسمر يحلو ، إلى الصباح :

* * *

حين عادت «عاقصة» بأعوانها إلى مدينة حمراء اليمن ، وجدت العدة قد أعدت ووجدت «عيروض» يقف وسط أعوانه من الجان يرتب لكل منهم حمله أثناء السفر ، فصاحت فيه فى غضب وثورة :
ـ ماذا تظنك تفعل أيها العبد ..؟!.

ونظر إليها «عيروض» ولكنه لم يجبها .. وإنما استمر فى ترتيب أعوانه دون أن يعيد بصره إليها ، وضربت «عاقصة» الأرض بقدمها فى عنف ، وكادت تصرخ فيه من جديد لولا أنها أحست بيد تلمسها فى رفق ، وصوت هادئ يقول لها :

ـ لا عليك يا «عاقصة» لماذا كل هذه الثورة ..؟.

وعرفت «عاقصة» صوت الحكيمة «عاقلة» فالتفتت إليها وهى مازالت فى غضبتها وقالت :

ـ لقد أحضرت أعوانًا من مدينة أبى ، وسأتولى أنا وهم نقل كل من يريد منكم إلى مدينة دوريز ، فما شأن هذا العبد ..؟!.

فقالت الحكيمة «عاقلة» :

ـ إنه ينفذ أوامر الملك «سيف» يا «عاقصة» ..

فعادت «عاقصة» تصيح :

ـ إن أخى ليس فى حاجة إلى أعوانه ، وأنا أستطيع أن أنفذ كل ما يريد أخى ..

فقالت الحكيمة «عاقلة» وهى تربت عليها فى حنان ورفق :

ـ إن هذا حسن جدًا يا «عاقصة» ، فنحن عدد كبير ونحتاج إلى حراسة .. وتستطيعين أنت وأعوانك ، وهو وأعوانه ، أن تقوما بالمهمة معًا على خير وجه ، فنضمن الأمان والسرعة معًا ..

فسكتت «عاقصة» برهة ، ثم أطرقت إلى الأرض وهى تقول :

ـ لست أريد أن أعاونه فى شىء ..

فقالت الحكيمة «عاقلة» بنفس الصوت الهادئ الحنون :

ـ إنك تعاونين أخاك لا «عيروض» .. هيا يا بنية ودعى العناد ، فليس هذا أوانه وأخوك فى انتظار النجدة والمعونة ..

فأطرقت «عاقصة» برأسها وقد ارتج عليها ، فعادت الحكيمة «عاقلة» تقول :

ـ اتركى هذا الأمر بين يدى أخيك فإنه يحبك ولا يعمل إلا ما هو فى صالحك .. والآن هيا بنا فإن «دمر» فى الانتظار ..

فقالت «عاقصة» وهى ترفع رأسها :

ـ وهل سيأتى معنا «دمر» ؟!.

فقالت الحكيمة «عاقلة» :

ـ نعم ، سنترك «مصر» و «نصر» فى المدينة ، وسيكون «دمر» على رأس الفرسان والحكماء الذين عليكم أن تحملوهم إلى دوريز.. وسيصحب كل فارس جنوده .. أرأيت ، لقد جاء عنادك بفائدة كبيرة فما كنا نستطيع أن نسافر بهذا العدد الكبير بالاستعانة بـ «عيروض» وأعوانه وحدهم ...

- ٢١ -

كان جنود الملك «عبد نار» الذين انهزموا أمام «سيف بن ذى يزن» و «عاقصة» و «عيروض» يمعنون فى الهرب ، وهم لا يلتفتون إلى ورائهم .. وقد بلغ منهم الذعر مبلغه ، وأخذ منهم الخوف ، حتى لم يعودوا يستطيعون الوقوف أو التفكير.. وصاح صائح فيهم :

ـ هذا جسد الملك «عبد نار» ..

وصاح آخر :

ـ قتل «عبد نار» ..!.

وصاح «عملاق» وهو المقدم على الجند بعد «عبد نار» :

ـ قفوا أيها الفرسان لننظر فيما حل بنا ، ولندبر أمرنا بعد مصرع ملكنا ..

ولم يستجب لندائه إلا عدد قليل وقفوا حوله يتبادلون نظرات الرعب والاضطراب ، وقد بدت عليهم معالم الحيرة والقلق .. ونظر فيهم القارس «عملاق» ثم قال :

ـ ليذهب كل واحد منكم إلى جهة ليجمع شمل الجنود المتفرقين ، وليقصد أسرع فارسين إلى «الشعشعان» لاطلاعه على ما حل بنا لينجدنا برجاله ورأيه ..

وبينما انطلق أسرع فارسين إلى الكهين «الشعشعان» ، أخذ «عملاق»

يعيد تنظيم الجيش المنهزم جامعًا ما تفرق من الرجال ، محاولاً أن يبث الثقة فى قلوبهم المذعورة ونفوسهم المشتتة .. وكاد «عملاق» ينجح فى أن يعيد إلى الجيش كيانه وهيكله لولا أن ارتفعت فجأة صيحة اهتزت لها الأرض وارتجت السماء ، ثم انقض عليهم «عيروض» بصواعقه ونيرانه ، يشتت ما تجمع من شملهم ، ويفرق ما عاد إلى الالتئام من صفوفهم .. ثم انقض وسطهم يرفع جثة «عبد نار» ويختفى مسرعًا إلى الملك «سيف» ليخبره بخبر انهزام أعدائه وقتل ملكهم .. !.

ولم يجد «عملاق» أمامه إلا أن يواصل الهرب مع ما تبقى من الجنود وقد ذهبت هجمة «عيروض» بما تبقى لديه من شجاعة وتماسك .. وكان رجاله يسقطون حوله إعياء ورعبًا وهو لا يستطيع أن يقف ليقدم يد المساعدة لأحد فقد خشى إن عاد إلى الوقوف أن يعود هذا المارد اللعين إلى البطش بهم وقذفهم بالنار والحجارة ..

وعلى هذه الصورة المزرية ، وجدتهم طلائع الجيش الذى أرسله «الشعشعان» لنجدتهم عندما وصله الرسل الذين أرسلهم «عملاق» .. وفى الحال صدرت الأوامر بالتوقف انتظارًا لوصول الكهين «الشعشعان» على رأس جيشه الكبير تمهيدًا لأخذ الثأر من مدينة دوريز التى تمردت على عبادة النار ، وقتلت أهم أعوان «الشعشعان» الملك «عبد نار» ..

وكانت «مرجانة» و «كوكب» و «نور الهدى» وباقى البنات يرقبن المعركة من فوق الجبل حيث توقفت بهن «عاقصة» و «عيروض» انتظارًا للقاء الملك «سيف» ، وكانت «نور الهدى» أكثرهن وجلاً واضطرابًا للهزيمة الساحقة التى يتعرض لها جيش «قان شاه» أمام أعدائه الأقوياء .. ولكنها سرعان ما كانت تصيح حماسًا وفرحًا وهى تشهد هجوم الملك

«سيف» الساحق الذى دمر جيش «عبد نار» وفرق صفوفه ، فصاحت وهى تصفق بيديها :

ـ لقد هزمهم ، لقد مزقهم .. لقد طحنهم ..!.

فقالت «مرجانة» التى كانت تقف إلى جوازها :

ـ أليس من الأوفق أن تصيحى . لقد نجا «قان شاه» ، لقد سلم «قان شاه» ..

وبينما كانت الفتيات يتضاحكن فى مرح ، كانت «نور الهدى» تحتضن «مرجانة» فى فرح زائد وهى تصيح :

ـ أليس مؤمنًا مثلنا ؟.. ألا تسرنا نجاته ..؟.

ثم تضرج وجهها حياء فأطرقت إلى الأرض ساكتة .. فقالت «مرجانة» وهى تربت على كتفيها :

ـ هيا بنا نبشر «منية النفوس» بنتيجة هذه المعركة ..

وانطلقت الفتيات راكضات إلى خيمة «منية النفوس» ولكنهن وقفن ذاهلات حين وجدن الخيمة خالية ليس بها أحد .. وانطلقت كل واحدة إلى ناحية تبحث دون جدوى عن «منية النفوس» وابنها «مصر» .. وحين عدن إلى الالتفاف مرة أخرى حول «مرجانة» كانت علامات اليأس بادية عليهن ، بينما شحب وجه «نور الهدى» وزايلتها علامات البهجة والمرح التى كانت تملأ المكان منذ قليل .. وقالت «مرجانة» :

ـ إن الملك «سيف» مشغول الآن بالقتال ، وليس من وسيلة للاتصال به ، وأرى أن نرتدى ثيابنا الريش ونبدأ بأنفسنا بالبحث عن «منية النفوس» وابنها .. فما أظن اختفاءها إلا مكيدة من عدو لا نعرفه الآن ، ولكنه على أية حال لم يبتعد كثيرًا ، فهيا بنا ...

وأسرعت الفتيات ينفذن أمر «مرجانة» ويرتدين ثيابهن الريش .

وبعد قليل كن يحلقن كالغمامة المتماسكة فوق الجبل متجهات إلى اليمين تارة وإلى الخلف تارة ، وإلى الأمام مرة وإلى اليسار مرة أخرى دون جدوى ..

وحين أوشكت شمس النهار أن تغيب أشارت لهن «مرجانة» بالعودة ، ولكنهن ما كدن يستدرن ليصبحن فى اتجاه الجبل حتى أحسسن جميعًا بشىء يشل حركتهن ويمنعهن من مواصلة الطيران .. ونظرت «مرجانة» تحتها فإذا هن يطرن فوق جيش لجب كبير لا تدرى متى توغلن فوقه دون أن يرينه ، ولكنها عزت هذا إلى انهماكهن فى النظر حولهن مما حول أبصارهن عن الأرض التى يطرن فوقها ..

وما لبثت «مرجانة» أن أحسست بنفسها تنزل مسلوبة الإرادة إلى الأرض ، وحولها باقى الفتيات وفى أعينهن نظرات الدهشة والهلع ، وحاولت «مرجانة» أن تستعيد توازنها فلم تستطع ، وحاولت أن تحتفظ لذهنها بصفائه وقدرته على التفكير ولكن سحابة كثيفة من غيم كانت تغطى عينيها وتحجب عنها كل قدرة على الحركة والمقاومة .. وشيئًا فشيئًا كن يهبطن إلى الأرض التى أخذت تقترب وتقترب إلى أن مست أقدامهن سطحها الصلب ..

* * *

وقال «الشعشعان» وهو يضحك موجهًا حديثه للفارس «عملاق» :

ـ ألم أقل لك ؟.. لقد شككت فيهن منذ اللحظة الأولى ، ولست كبير كهان النار وسحرتها عبثًا ، إنهن فتيات يرتدين ثيابًا مطلسمة من الريش ، وكما سلطت عليهن باب الهمود فعجزن عن الطيران وهبطن إلى الأرض ، سأسلط عليهن باب الخبال حتى يخلعن هذه الثياب ونتمكن من القبض عليهن دون عناء ..

وكان «الشعشعان» يقف أمام باب خيمته الكبيرة التى نصبت له بعد أن وصل على مقدمة جيشه كله إلى حيث كان يعسكر «عملاق» مع من تبقى من جند «عبد نار» .. وأخذ يدور من جديد حول النار المشتعلة أمامه وهو يهمهم ويدمدم ، ويتلو تعاويذه وطلاسمه .. وسرعان ما أخذت الفتيات يقفزن فى حركات غريبة وهن يخلعن ثيابهن الريش واحدة أثر الأخرى .. وهنا صاح «الشعشعان» فى جنوده قائلاً :

ـ اسرعوا فاستولوا على الثياب واتتونى بها هنا ..

وعندما وصلت الثياب ، يحملها الجند ، مضى يتأملها فى إمعان ، ثم قال :

ـ إن هذه صناعة متقنة لا يقدر عليها إلا من حذق أسباب الحكمة وأساليب السحر .. إحملوها إلى الداخل وضعوها فى صندوق واحكموا اغلاقه ..

وفرك يديه فى سرور ، وهو ينظر إلى الفتيات المتواثبات فى حركاتهن الطائشة الغريبة وقال :

ـ لم يعد منهن خطر الآن فلنرفع عنهن باب الخبال ..

وعاد يدور حول النار من جديد وهو يهمهم بلغته الغريبة وكلماته غير المفهومة .. وحين انتهى من دمدمته وتعازيمه سكنت حركة الفتيات ، وأخذن ينظرن إلى بعضهن فى حيرة .. وصاح «الشعشعان» برجاله :

ـ احضروهن إلى هنا ..

ووجدت الفتيات أنفسهن وقد أحيط بهن من كل جانب ، فالتفتن إلى «مرجانة» متسائلات ، وجعلت «مرجانة» تدور بعينها فيهن ، وفى الحلقة المحكمة من الرجال حولهن ، ثم لوحت بيديها فى يأس ومرارة وقالت :

ـ لا فائدة من المقاومة يا فتيات ، فلنستسلم لأمر الله ، ولنر آخر هٰذا الأمر ..

وهكذا ساقهن الرجال إلى الكهين «الشعشعان» وهن يسرن مستسلمات دون مقاومة ، وحين وقفن آخر الأمر أمامه ، أخذ يتأمل فيهن بعينيه النفاذتين ، ثم مضى يضحك فى سرور وحشى ... وهن ينظرن إليه فى صمت ووجوم .. وحين كف عن ضحكة قال لهن :

ـ مرحبًا بكن أيتها الفاتنات القادمات من السماء .. من أنتن ؟ ومن أين ؟ وإلى أين ؟.

وتقدمت «مرجانة» خطوة إلى أمام ، وقد اكتسى وجهها قناعًا من الصلابة والعزم وقالت فى صوت هادئ :

ـ وما شأنك أنت أيها الكاهن الذى تعبد النار ، وماذا تريد منا .؟!

فوجم «الشعشعان» من لهجتها المتحدية ، ثم قال لها وفى عينيه نظرة مخيفة :

ـ شأنى أنكن أسيراتى ، وسأقدم ثلثكن قربانًا للنار التى أرسلتكن لى ، وأهدى قواد جيشى البواسل ثلثكن ليستمتعوا بكن ، واختار الباقيات من أجملكن ليسرين عنى ويسليننى .. أنا «الشعشعان» كاهن النار الأعظم ، وحاكم كل هذه الأرض وما عليها ..

فابتسمت «مرجانة» فى سخرية رغم الشحوب الذى ملأ وجهها ، وقالت فى صوت حاولت جهدها أن يبدو متماسكًا :

ـ كأننا أسارى حرب أيها الكاهن ..

وعاد يضحك من جديد وقد ملأه صوتها المضطرب إحساسًا بالنصر والقوة .. وتقدمت «نور الهدى» فأزاحت «مرجانة» عن مكانها ، وقالت مخاطبة «الشعشعان» :

ـ ماذا يضحك أيها الكاهن الكبير القوى ؟.. أتضحك من أسيرات عاجزات ؟.. أمثلك من يسره النصر على مجموعة من النساء الضعيفات ..؟.

وماتت الضحكة عند شفتى «الشعشعان» وهو يتأمل وجه «نور الهدى» الفاتن الذى زاده الانفعال والغضب فتنة وجمالاً .. فقال فى صوت هادئ وكلماته تخرج فى بطء :

ـ إن اسركن هو أول خطوة فى النصر على هذا الملك القصير الذى أخرج الناس فوق أرضى من عبادة النار ..

فتأودت «نور الهدى» فى ضعف بعث فى أوصاله الرعدة ، وقالت وهى ترنو إليه بنظرات متكسرة :

ـ ألم تأسرنا ونحن هاربات من معسكره ..؟.

وأطرق «الشعشعان» وهو يحس بفتنتها تهز قلبه ، وتبعث الاضطراب فى نفسه :

ـ نعم ..

وعادت «نور الهدى» تقول وهى تتعمد إبراز مفاتنها وحسنها بعد أن أحست بأثرها عليه :

ـ ألا يدلك هذا على أننا أعداء عدوك ؟.. إننا أيها الكاهن القوى من جزيرة البنات ، وقد هزمنا الملك «سيف» فى الحرب بعد أن بذلنا كل طاقتنا فى المقاومة والحرب ، وكان يقودنا أسيرات إلى بلاده ، ولكننا تمكنا من الاستيلاء على ملابسنا الريش فى غفلة منه لنهرب بها إلى بلادنا .. وها نحن قد وقعنا بين يديك ، فارحمنا ..

وحين انتهت «نور الهدى» من حديثها أخذت تبكى فى إجهاش ، وجسدها كله يهتز ، وشعرها الكث يتمايل فوق وجهها الفاتن ، ثم

أسرعت تركع تحت قدميه متمايلة وهى تقول فى صوت متكسر متهافت :
ـ انقذنا أيها الكاهن القوى من بين يديه ، ونحن كلنا تحت رحمتك تفعل بنا ما تشاء ، فقط لا تتركنا بين يدى من لا يعرف عبادة النار ، ولا يرحم ضعف من لا حيلة لهن ولا قوة ..

وكان عقل «الشعشعان» يؤكد له أنها تخدعه وتحتال عليه ، ولكن قلبه كان متخاذلاً أمام هذه الفتنة التى تسلط عليه أقوى أسلحتها وأمضاها ، وأحس أنه سيخسر المعركة إن ترك العنان لنفسه .. فقال وهو يجيل نظراته الجشعة فى جسدها المتهالك تحت قدميه :

ـ وتكونين لى أيتها الفاتنة ..؟!.

فقالت «نور الهدى» وقد اطمأنت إلى نجاح خطتها :

ـ وهل أطمع فى من هو أقوى منك وأخطر ..؟!.

ثم وقفت متأودة وهى تمسح دموعها ، وتطرح بيدها خصلات شعرها المتماوجة وقالت :

ـ أم أنت لا تقوى على هذا الملك الذى هزم حتى الآن كل من حاربه وقاومه ..؟!.

واندفعت دماء الغضب تلون وجه «الشعشعان» وقد استفزته كلماتها الناعمة ، فصاح :

ـ ستشهدين مصرعه بين يديك ، ولن اقترب منك إلا فوق جثته ..

ثم عاد يتمالك نفسه ، ويجيل عينيه فيهن وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة وهو يقول :

ـ ولن يضيرنا أن نتحقق من صدق ما قالته هذه الفاتنة .. سنحتفظ بكن جميعاً تحت الحراسة حتى تنتهى هذه المعركة ، فليس الوقت وقت نساء .. أما بعد النصر ..

وعاد يضحك ضحكة خبيثة تحمل أكثر من معنى .. وأشار بيده فتقدم منهن الجنود يحرسونهن ويقودونهن إلى خيمة بعيدة وقف حولها الحراس ، وأحيطت بسياج ضخم من الحديد ..

وقالت «مرجانة» والجند يسوقونهن :

ـ لقد غلب ذكاؤك مكره وخداعه ..

فقالت «نور الهدى» وهى تبتسم :

ـ إن أملنا الوحيد هو الزمن .. علنا نستطيع أن نحصل على ثيابنا ونطير بها ..

فقالت «كوكب» وهى تتقدم لتسير إلى جوارهما :

ـ أو يتمكن الملك «سيف» من القضاء على هذا «الشعشعان» وتخليصنا من أسره ..

فقالت «مرجانة» وهى تجيل نظرها فيما حولها من مظاهر النشاط والاستعداد :

ـ إن هذا العدو ليس كغيره ، فقد سمعت عنه الكثير .. إنه ساحر لا يدانيه أحد فى سحره وكهانته ، وهو فارس قوى محتال .. وهذا جيشه يفوق عشرات الأضعاف ما فى مدينة دوريز من جنود ، بل من سكان أيضًا ..

فقالت «نور الهدى» وهى تتقدمهن إلى باب الخيمة :

ومع هذا فإننى أحس أن نهاية هذا الكلب قريبة ..!.

فقالت «مرجانة» وهى تتبعها إلى داخل الخيمة :

ـ إن اغتراره بقوته هو الذى سيورده حتفه ... وسوف نرى ..!.

- ٢٢ -

قال الملك «سيف بن ذى يزن» للملك «قان شاه» وهما يعودان ادراجهما إلى المدينة على رأس مجموعة من الجند ، كما تعودا أن يفعلا كل يوم إذ يدوران حول المدينة ليتأكدا بنفسيهما من وجود الحراس كل فى مكانه خوفًا من هجوم غادر يفاجئ المدينة فى أى وقت :

ـ إن القلق قد ابتدأ يساورنى ، فقد سافرت «منية النفوس» من مدة ، ولابد أنها وصلت إلى حمراء اليمن منذ فترة ، ولست أجد سببًا لغياب «عيروض» و «عاقصة» حتى الآن ..

فقال «قان شاه» وهو يتنهد :

ـ إن ما يحيرنى هو هذا الاختفاء العجيب ، الذى لا نفهم له سببًا ، «نور الهدى» و «مرجانة» وباقى الفتيات ..

فابتسم الملك «سيف» وهو يربت على عنق جواده وقال :

ـ إن كلا منا يضع يده على الجرح الذى يؤلمه ..

فرفع «قان شاه» رأسه وهو يقول :

ـ إننى أيها الملك ما عدت أهاب أحدًا بعد أن عرفتك ، وسواء جاء «الشعشعان» أو غيره فإننى مطمئن إلى نصرنا المؤزر ، واثق من النتيجة المحتومة مهما طال مدى المعركة ..

فقال الملك «سيف» وهو يلكز جواده مسرعًا نحو باب المدينة المفتوح :

ــ إن النصر لا يحرز فى المعارك بمجرد الثقة والإيمان ، بل لابد من العدة والعتاد ..

ورد على تحية حرس الباب الذين رفعوا السلاح يحيون الكوكبة الملكية وهى تدخل إلى المدينة .. وكان الملك «قان شاه» يتبعه على الأثر حينما دوت صيحة هائلة من فوق الأبراج :

ــ فارس من حرس الأطراف يقبل مسرعًا ..

فاستدار «سيف بن ذى يزن» بفرسه ، وأسرع متجهًا إلى باب المدينة من جديد ، ووراءه «قان شاه» .. وخرج الملك «سيف» من المدينة وهو يطلق العنان لجواده ، بينما لاح له من بعيد فارس مدجج بالسلاح يكاد يطير بجواده طيرانًا متجهًا نحو المدينة ..

وقال الفارس حين وصل إليه الملك «سيف» :

ــ إنه جيش لجب يغطى السهل والوادى ، فى عدد كالرمل والحصى ..

وقال «قان شاه» :

ــ أما عرفت جيش من ؟.

قال الفارس وهو يلتقط أنفاسه اللاهثة فى صعوبة فائقة :

ــ إنه جيش «الشعشعان» أيها الملك ، ومعه باقى الكتائب التى انهزمت من جيش «عبد نار» وعلى رأسها فارسه العملاق ...

فقال «سيف بن ذى يزن» :

ــ وأين هم الآن ..؟.

فعاد الفارس يقول :

ــ عند أطراف الوادى أيها الملك ، وهم يتقدمون بسرعة كبيرة ..

فقال «سيف بن ذى يزن» موجهًا كلامه لـ «قان شاه» :

ــ اجمع جنودك أيها الملك واخرج بهم من المدينة ، ولتغلق أبواب

المدينة ويقف الحراس على أسوارها ، ولا تتقدم حتى أخبرك ... لعلهم يريدون استدراجنا بعيدًا لتطويقنا وعزلنا عن المدينة ليستولوا عليها ويتركوننا بلا شيء نستند إليه ..

ثم أشار إلى باقى الفرسان الذين كانوا يتبعونهم قائلاً :

ـ أما أنتم فاتبعونى ..

وانطلق بجواده مسرعًا ووراءه تندفع كوكبة الفرسان لا تكاد تلحق به ... وعندما شارف الوادى التقى الملك «سيف» بمجموعة حرس الأطراف الذين كانوا يقفون فى صف طويل .. وحين شاهدوه اتجه إليه قائدهم قائلاً :

ـ إنهم أمامنا الآن أيها الملك ينصبون الخيام ويستعدون ..

وتقدم الملك «سيف» وحده إلى ربوة عالية ، ومن فوقها أشرف على منظر رهيب مخيف فقد امتلأ السهل كله بالجنود بحيث لم تكن ترى العين إلا الخوذات وأطراف الرماح والأسنة ، ولم تكن الأذن تسمع إلا صهيل الجياد ، ونداءات القادة من يمين وشمال .. وقال الملك « سيف » وهو يمر بيده فوق ذقنه مفكراً :

ـ لم يكذب الفارس ، إنهم فى عدد الرمل والحصى ..

ثم رفع رأسه وهو يقول :

ـ ومع هذا فلا بأس من أن نريهم أننا لسنا خائفين من عددهم ..

والتفت إلى القائد الذى كان يقف إلى جواره قائلاً :

ـ إجمع رجالك وانتظرنى ..

وظل الملك سيف يتأمل الحركة الدائبة أمامه فى إمعان ، وكان الجيش تحت إشراف قواده يلق برجاله فى السهل وهو مطمئن تمام الاطمئنان ، أما لبعدهم عن المدينة ، أو اعتزازًا بقوتهم وعددهم الوفير .. وغادر الملك

«سيف» الربوة وهو ما زال غارقًا فى أفكاره .. وحين التقى بقائد الجند قال له :

ـ سنقوم أيها القائد بعمل جنونى ولكنه هام فى افقاد العدو ثقته الزائدة بالنفس ، فإنْ كنت مستعدًا أنت ورجالك فسنبدأ فى الحال :

فقال القائد وهو يتقدم خطوة إلى الأمام :

ـ نحن مستعدون أن نخوض معك البحر أيها الملك ...

فابتسم الملك «سيف» وهو يقول :

ـ وأنتم فعلاً ستخوضون معى البحر ، ولكنه هذا البحر الآدمى الزاخر الذى يقف أمامنا ..

ولم يجبه القائد وإنما أصدر أمره إلى جنوده فامتطوا جيادهم ، ثم أصدر أمرًا آخر فأخرجوا سيوفهم من إغمادها ، وتقدم بحصانه ليصبح أمامهم فى مواجهة «سيف بن ذى يزن» وقال :

ـ نحن على استعداد أيها الملك ..

فأدار الملك «سيف» عينيه فى الوجوه الباسلة التى تراصت أمامه تنظر إليه فى استعداد وترقب ، وعاد يبتسم وهو يقول :

ـ إن أعداءكم الآن ليسوا متأهبين للقاء ، وسنهجم عليهم من يمين الجيش ، ونضرب كل من نلقاه بسيوفنا ، ونستمر فى سيرنا حتى نصل إلى يسار الجيش ، ثم نلتف مسرعين ونقصد إلى جيش «قان شاه» .. لست أريد من أحد منكم أن يلتفت وراءه أبدًا ، أو أن يحدث أى صوت ، فلسنا نريدهم أن ينتبهوا لما حدث قبل أن ننتهى من اختراقهم تمامًا .. ولتحدثوا الدمار فى كل ما تستطيعون تدميره .. الخيام مزقوها ، الخيل اقطعوا أربطتها ، القدور اقلبوها .. أما الفرسان فليس لهم إلا السيف .. ولتتبعونى دائماً ولاتتركوا ثغرة فى صفوفكم ..

واستدار بفرسه ثم انطلق مسرعًا إلى اليمين ووراءه قائد الجند يتبعه جنوده يحاولون اللحاق بالملك «سيف» الذى كانت سرعته تزداد كلما أغذ السير ، حتى إذا ما وصل إلى آخر أطراف الوادى استدار فى حذر ووقف ، وظل يرقب الجَيش أمامه لحظات ، ثم رفع سيفه ولوح به فى الهواء وهو يصيح :

ـ إلى الأمام..

ثم انقض كالصاعقة مخترقًا خيمة كبيرة بجواده بعد أن شقها بسيفه ووراءه الجنود يدمرون كل ما يصادفونه أمامهم ، وأمامه جنود مذعورون قد أذهلتهم المفاجأة فمضوا يتصايحون وهم يجرون إلى كل اتجاه والسيف يأخذهم أينما اتجهوا .. ولم يتوقف الملك «سيف» وجنوده ، بل ظلوا فى هجومهم الصاعق يخترقون وسط المعسكر تمامًا وصيحات الذعر تتبعهم والدماء تسيل حولهم ، وصهيل الجياد الشاردة تحيط بهم ، والغبار يتعالى فى سنابك جيادهم ..

وخرج الفارس العملاق يصيح ، محاولاً أن يعيد إلى الجنود المذعورة صوابها وهو لا يكاد يقوى على التحرك من مكانه أمام خيمته من كثرة الجنود المتدافعة .. بينما اندفع «الشعشعان» يضرب بيديه كل من حوله وهو يصيح :

ـ إلى جيادكم ، إلى جيادكم ..

ولكن قبل أن يستطيع الجيش المذعور أن يتنبه إلى ضآلة عدد المهاجمين ، أو إلى مكانهم كانوا قد اخترقوا كل حشوده ووصلوا إلى الطرف الآخر ، ثم داروا حول أنفسهم وأسرعوا مبتعدين متجهين نحو المدينة ، والملك «سيف» ما يزال يندفع على رأسهم ملوحًا بسيفه الذى تقطر منه الدماء ، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة .

* * *

استطاع «الشعشعان» بعد مجهود كبير أن يعيد النظام إلى جيشه المذعور ، وأسرع يركب جواده إلى حيث وقف «العملاق» يحصى الخسائر فى الأرواح والعتاد ، فابتدره قائلاً :

ـ لن نتركهم يفلتون بهذه الفعلة ، لابد لهم أن يدفعوا الثمن غاليًا ..

فقال «العملاق» :

ـ إن الخسائر جسيمة أيها الكاهن الأعظم ، ولننتظر حتى يستعيد الجنود هدوءهم وثباتهم فما زالوا مذعورين من المفاجأة ..

فقال «الشعشعان» فى غضب :

ـ ونحن قادرون أيضًا على الهجوم السريع والضربة المفاجئة ، فلتأمر الجند بالركوب فى الحال ، ولننقض عليهم قبل أن يحصنوا المدينة فنملكها قبل الليل ، ونقتص من هذا الفارس اللعين ..

وهز «العملاق» كتفيه وصاح مصدرًا أوامره على عجل .. وسرعان ما كان الجيش مستعدًا للزحف ، وقصد حيث وقف «الشعشعان» وقال له :

ـ نحن على استعداد ..

فصاح به وهو يندفع بجواده إلى مقدمة الجيش :

ـ إذن هيا بنا ولن نقف إلا فى داخل المدينة نفسها ..

ولكن فأله قد خاب ، لأن الملك «سيف» كان قد أعد عدته لمثل هذه الهجمة الحمقاء .. فما أن أشرف الجيش المهاجم على الوادى حتى انهالت عليه السهام الفتاكة كالمطر المنهمر .. وتساقط المهاجمون بينما اجفلت الخيل فألقت من عليها من الفرسان وانطلقت هاربة .. وقبل أن يفيق المهاجمون من هذه المفاجأة الجديدة كان جيش «قان شاه» ينقض عليهم بكل قوته .. وهكذا استطاع الملك «سيف» أن يجعل قوة الجيشين متعادلة ، فالمفاجأة والثقة فى جانبه قد عوضت جيشه عن نقص عدده وضخامة جيش عدوه ..

وحاول «العملاق» أكثر من مرة أن يصل إلى أبواب المدينة ، ولكن هجماته القوية سرعان ما كانت ترتد خائبة بسبب صلابة الدفاع ، وحماس المدافعين ، وسهام الحراس الذين تركوا فوق أسوار المدينة ..

وحاول «الشعشعان» أكثر من مرة أن يطوق الجيش المدافع وأن يغريه فيترك مواقعه التى تجعل من المدينة بأسوارها العالية وحراسها اليقظين قوة تحميه وتعضده ، إلى الوادى الفسيح الذى يمكن أن تبرز فيه قوته وتفوقه العددى ، ولكن محاولاته خابت أمام سرعة الملك «سيف» ويقظته ، إذ كان يتنقل من مكان إلى مكان يحافظ على تماسك الجيش المدافع وترابطه ، واحتفاظه بالمواقع التى اختارها له بكل عناية ودقة ..

واستمرت المعركة الرهيبة دائرة إلى أن بدأ الظلام يخيم على الوادى كله فدقت طبول الانفصال من جيش «الشعشعان» وجاوبتها طبول الانفصال من داخل المدينة .. وتراجع الجيشان وقد تركا منطقة حرام بينهما ..

وقال «الشعشعان» «للعملاق» وهما يتجهان نحو الخيمة التى أعدت لهما فى الموقع الجديد :

ـ لقد استطاع هذا القصير بحيله وألاعيبه أن يقضى على عنصر المفاجأة الذى كنت أعتمد عليه فى بث الرعب فى صفوف جيشه ، وانزال الخوف من عددنا وقوتنا فى قلوب جنوده ..

فقال «العملاق» وهو يتبعه إلى داخل الخيمة :

ـ إن تماسكه اليوم غريب ..

فقال «الشعشعان» وهو يجلس فى صدر الخيمة :

ـ ليس فى الأمر غرابة ، لقد استطاع أن ينفذ نفس الخطة التى وضعناها ، وأمكنه بالمبادرة والسرعة أن يبعث القلق والرعب فى قلوب

جنودنا التى كانت مستعدة للاهتزاز أثر ما تناقله الرجال من أنباء هزيمته الساحقة لجيش «عبد نار» ..

ثم أطرق مفكرًا لحظات ، ثم رفع رأسه وهو يقول :

ـ ينبغى أن نعيد الثقة إلى جنودنا قبل أن نهجم من جديد هجومًا شاملاً .. وعلى هذا فمعركة الغد ينبغى أن تبدأ بالمبارزة ..

فقال «العملاق» فى ثقة واعتداد :

ـ سأبرز لهم فى الغد لأذل فرسانهم ، وأحقر أبطالهم ، وأبعث الرعب فى قلوبهم ..

فاستأنف «الشعشعان» الحديث قائلاً :

ـ وحين نبدأ الهجوم الأخير سيكون عامل الثقة فى جانبنا نحن ..

قال الملك «قان شاه» وهو يترجل عن جواده أمام باب القصر ويسلم زمامه لأحد الحراس :

ـ لم أشهد يومًا انتزع فيه النصر من الهزيمة مثل هذا اليوم ..

وكان «قان شاه» محمر الوجه من أثر المجهود الكبير الذى بذله طوال اليوم ، ومن أثر الانفعال الشديد الذى كان يبدو فى كلماته .. فقال له الملك «سيف» وهو يترجل فى بطء عن جواده :

ـ إن ما حدث اليوم لا يمكن أن يتكرر ، والزمن فى صالحهم .. ومد يده بالزمام إلى الفارس الذى تقدم ليمسك به ، وعرفه حين وقع بصره على وجهه الصارم فقال وهو يبتسم :

ـ مرحبًا بك أيها القائد ..

والتفت إلى الملك «قان شاه» قائلاً ، وهو يعطى الزمام للفارس :

ـ إن نصر هذا اليوم يعود إلى هذا القائد وجنوده .

فنظر «قان شاه» إلى الفارس وهتف :

ـ إنه «حلوان» قائد فرسان الأطَراف ..

ومد يده يصافح الفارس الذى تقدم نحوه فى أدب واحترام ، وقال الملك «قان شاه» :

ـ لقد سمعت عن الدور الذى قمت به أنت وجنودك ، ولست أدرى كيف يمكن أن أكافئكم .

فقال الفارس «حلوان» :

ـ إذا سمحت لى أيها الملك فإن لى ولجنودى رغبة ، لو حققتها لنا لكان هذا أعظم مكافأة ..

فابتسم «قان شاه» وهو يقول :

ـ اذكرها أيها الفارس ، وستجاب فى الحال ..

فقال «حلوان» :

ـ أن نعمل مع الملك «سيف» فهو هنا وحيد وليس معه جنود ، وسنكون من الآن ، لو أذنت ، جنوده ..

فضحك «قان شاه» وهو يربت على كتف «حلوان» :

ـ إننا كلنا جنوده أيها الفارس ، ولكن لك ما تشاء ..

وقال الملك «سيف» وهو يمد يده مصافحًا «حلوان» :

ـ حسنًا أيها الفارس ، إنك وجنودك جيش كامل ..

ثم التفت إلى «قان شاه» قائلاً :

ـ والآن إلى الراحة فأحسب أننا نحتاج إلى كل قوانا فى الغد المقبل بهجوم «الشعشعان» ..

* * *

ومع الأشعة الأولى للفجر أخذ الجيشان الأهبة ليوم حافل ، فاصطف

جيش «قان شاه» أمام أسوار المدينة ، وفى مقدمته وقف «قان شاه» إلى جوار «سيف بن ذى يزن» ووراءهما «حلوان» وجنوده .. وأمامهم وقف جيش «الشعشعان» وفى مقدمته «العملاق» فوق جواد ضخم ، وقد ارتدى فوق ثيابه درعًا من الفولاذ اللامع وفى يده سيف ضخم صقيل ..

وتقدم «العملاق» إلى وسط المنطقة الحرام ، وصاح فى صوت أجش :

ـ ليتقدم فرسانكم إلى القتال ، واحد لفارس ، أو اثنان لفارس ، أو خمسة لفارس فأنا كفؤ لكم جميعًا ..

ولم يكد «العملاق» ينتهى من ندائه حتى اندفع إليه أحد فرسان «حلوان» وقد شرع سيفه فى يده ، واصطدم به صدمة مروعة ، دوى صوت احتكاك السلاح فيها بالسلاح فخفت كل صوت ، وتطلعت العيون من الجيشين إلى الفارسين الملتحمين ، ترقب كرهما وفرهما ، وتشاهد الضربات العنيفة التى يكيلها كل فارس للآخر ، فيتلقاها غريمه فوق درعه ، ثم يبتعد بجواده ليعود بسرعة ليرد الضربة بمثلها .. وانعقد فوق الفارسين الغبار ، حتى اخفاهما عن الأنظار .. وما هى إلا لحظات ، حتى تعالى صوت «العملاق» وهو يصيح فى انتصار ونشوة :

ـ قتل المرتد ، قتل الخائن ..

وخرج من وسط الغبار المنعقد وسيفه ملوث بالدم القانى ، بينما رقد فارس «حلوان» فوق الأرض قتيلاً .. وعاد «العملاق» يصيح :

ـ أين الفرسان ؟.. أين الأبطال ..؟.

واندفع «حلوان» يريد أن يثأر لفارسه القتيل ، فأمسك به الملك «سيف» قائلاً :

ـ مهلاً ، إن هذا الفارس قوى ، وينبغى أن يقتل فى الحال قبل أن

يملأ قلوب رجالنا بالرعب ، وسأخرج له ..

ولكنه قبل أن يتم كلامه ، شاهد فارسًا آخر من فرسان «حلوان» يندفع للقاء «العملاق» فترك ذراع «حلوان» وهو يقول :

ـ لقد خرج الأمر من أيدينا الآن ..

ولكن مصير الفارس الثانى لم يكن أفضل من مصير سابقه ، وسرعان ما كان صريعًا بسيف «العملاق» وهتافات تتعالى من جيش «الشعشعان» بينما «العملاق» نفسه يجول بجواده وسط الجيشين مختالاً فخورًا ..

وتوالى خروج الفرسان إلى «العملاق» وتوالت انتصاراته عليهم حتى امتلأت قلوب الفرسان فى جيش «قان شاه» رهبة منه .. وبينما كان الملك «سيف» يتأهب للخروج إليه ووضع حد لانتصاراته المتوالية ، كان «قان شاه» يستعد هو الآخر لملاقاته .. ولكن «الشعشعان» لم يمهل أحدًا منهم للخروج إلى «العملاق» فما كاد يرى الفارسين يحاول كل منهما أن يسبق الآخر إليه حتى أشار إلى الجيش كله بالهجوم الكامل .. واندفع جنوده وقد تعالت هتافاتهم وصيحاتهم نحو جيش «قان شاه» وسيوفهم تلمع فى أشعة الشمس التى بدأت تتوسط كبد السماء ، وخيولهم تضرب الأرض بسنابكها فى قوة وعنف فتثير سحابة رهيبة من الغبار ..

وكانت الهجمة قوية ومفاجأة فاهتز لها جيش «قان شاه» ، واضطربت صفوفه ، وأخذ الجند يتراجعون وهم يحاولون رد الضربات المتتالية العديدة التى تأتى من كل مكان فى قسوة وعنف ..

وكان الملك «سيف» يشق طريق العودة إلى صفوف جيش «قان شاه» إذ فاجأه الهجوم وهو فى وسط الطريق إلى حيث يقف العملاق ، بينما اندفع نحوه عدد ضخم من الرجال وهم يدركون الفرصة المتاحة لهم لمحاصرته وقتله .. بينما كان «قان شاه» يحاول أن يجمع رجاله فى صفوف منتظمة وأن

يجعل لكل شبر يتراجعه جيشه ثمنًا باهظًا ..

ورأى «حلوان» الموقف اليائس الذى يقفه الملك «سيف» وحده وسط جموع زاخرة من فرسان الأعداء ، فصاح فى رجاله واندفع يشق معهم طريقًا نحو الملك «سيف» .. ووسط المعركة العنيفة التى يخوضها «سيف بن ذى يزن» سمع صيحات الفارس «حلوان» ورجاله وهم يتقدمون نحوه فى بطء شديد .. فكف عن دور الدفاع عن نفسه ، وتخلص من أقرب المهاجمين إليه ، ثم لكز فرسه واندفع ضاربًا بسيفه فى اتجاه «حلوان» ورجاله .. وأخذ الملك «سيف» يشق طريقه ، وهو يطيح بكل من يقترب من طريقه ، بينما كان «حلوان» ورجاله يتقدمون نحوه وسط بركة من دماء الصرعى وأشلاء القتلى .. وصاح «حلوان» :

ـ من هنا أيها الملك ..

وبينما كان الملك «سيف» ينضم إليه ، كون هو ورجاله نصف دائرة خلف الملك الذى أخذ يتقدم ببطء شديد نحو سور المدينة .. وتبادل الملك «سيف» مع «حلوان» نظرة يائسة وهم يرون الطريق نحو المدينة قد سدته جموع «الشعشعان» الزاخرة التى استطاعت أن تكسر رجال «قان شاه» وترغمهم على الالتصاق بالسور لحماية أنفسهم فى وقفة يائسة أخيرة .. وقال «حلوان» فى مرارة :

ـ هل ضاع كل شىء أيها الملك ..؟!.

فقال الملك «سيف» وهو يهوى بسيفه فوق رأس فارس ضخم الجثة ، فيطيح بها :

ـ لا تدع لليأس مكانًا إلى قلبك ، فلا زالت سيوفنا فى أيدينا ..

ولكن كلماته كانت فاقدة الحماس ، فقد تساقط معظم رجال «حلوان» ولم يصبح باقيًا منهم إلا حفنة ضئيلة لا تكاد تقوى على الدفاع عن نفسها

طويلاً ، وصاح «الشعشعان» وهو يقترب منهم :
ـ هذا القصير هو «سيف بن ذى يزن» أريده حيًا ..
واندفع نحوهم سيل جديد من الفرسان يهجمون فى قسوة وعنف ، وتهاوى فرس «حلوان» أثر ضربة صائبة من أحد المهاجمين ، فقفز «حلوان» عن فرسه وهو يدفع عن نفسه السيوف المتسابقة إليه بترسه وسيفه معًا ، وأسرع الملك «سيف» يقف إلى جواره بجواده يرد عنه السيوف المتسابقة ونظرات يأس مرير تطل من عينيه ..
وفجأة ارتفع من جانب الوادى صوت كالهدير ، وماج جيش «الشعشعان» وتدافعت صفوفه ، بينما ارتفعت منه صيحات الفزع والدهشة .. وصاح «العملاق» وهو يندفع بفرسه ناحية «الشعشعان» .
ـ هناك جيش مجهول يهاجمنا من اليسار أيها الكاهن .. وهو جيش ضخم كثير العدد وفى مقدمته فارس صغير ولكن ضرباته رهيبة مرعبة ..
وبدأ الاضطراب يدب فى جيش «الشعشعان» وأخذ الرجال يتصايحون وهو يتساقطون كالذباب وقد عمهم الرعب والفزع .. فصاح «الشعشعان» فى الفارس العملاق :
ـ دق طبول الانفصال ، وليتراجع الجيش إلى مكانه الأول ..
فقال «العملاق» فى عناد :
ـ ولكننا أوشكنا أن ندخل المدينة أيها الكاهن ..
فعاد «الشعشعان» يصيح به وهو يتحول عنه متراجعًا :
ـ دق طبول الانفصال حتى نعرف المهاجمين ونتدبر أمورنا ..
وقال الملك «سيف» للفارس «حلوان» وهو يشهد تراجع جيش «الشعشعان» :
ـ ألم أقل لك ، لا مكان لليأس طالما سيوفنا فى أيدينا ..

فقال «حلوان» وهو يرتكز على سيفه :
ـ ولكن من هم هؤلاء الأنصار الجدد ؟.
فابتسم الملك «سيف» وقال :
ـ إن لم يخطئني الحدس فهذا جيش حمراء اليمن .

* * *

ولم يكن الملك «سيف» مخطئًا ، فقد كان القادمون بالفعل هم جيش حمراء اليمن الذين أنزلهم «عيروض» وأعوانه و «عاقصة» وأعوانها عند حافة الجبل أثناء احتدام المعركة ، وسرعان ما نظم القادمون صفوفهم حين أدركوا الاتجاه الذى تسير فيه المعركة ، وتقدم «دمر» الفرسان صائحًا ، ووراءه «سعدون» و «ميمون» و «سابك الثلاث» و «دمنهور» ينقضون كالصاعقة على جانب الجيش المنتشى بالانتصار الوشيك ، فأحدثوا فى صفوفه هذا الرعب والفزع الذى دفع «الشعشمان» إلى الانسحاب هو وجيشه .. وقال «دمر» وهو يواصل هجومه :

ـ إنهم ينسحبون عن أسوار المدينة ..
فقال «سعدون» وهو يتابعه فى اندفاعه :
ـ إننى أسمع طبول الانفصال ..
فوقف «دمر» ووقف وراءه رجاله .. ثم قال :
ـ هيا إلى المدينة ، ولنترك للملك «سيف» أن يقرر أمر المعركة ..

وكان لقاء الملك «سيف» بابنه «دمر» ورجاله القادمين معه لقاء حافلاً ، اشترك فيه كل سكان مدينة دوريز الذين أنقذهم القادمون من هزيمة محققة .. وقال الملك «سيف» لابنه وهو يضمه إلى صدره :

ـ لقد صرت فارسًا يا «دمر» ..

فقالت الحكيمة «عاقلة» وهى تصافح الملك «سيف» :

ـ إنه كأبيه أيها الملك ، وقد تولى «سعدون» تدريبه وتعليمه كل فنون القتال ..

فقال الملك «سيف» وهو يصافحها ، ثم يصافح «برنوخ» الساحر و «أخميم الطالب» وفرسانه القادمين :

ـ ما أسعدنى برؤياكم هنا..حقًا إنكم ذخر وعتاد وقت الشدة والمحنة..

فقال «أخميم» الطالب :

ـ لقد أوحشتنا أيها الملك ، ولو ملك كل أهل حمراء اليمن أن يأتوا معنا لجاءوا ..

فقال الملك «سيف» وهو يشير ناحية «قان شاه» الذى كان يتقدم نحوهم :

ـ هذا صديقى الملك «قان شاه» ملك مدينة دوريز ، وهو الذى أنقذنى من حصار الأعداء فى مدينة البنات ، وكانوا قد أوشكوا أن ينالونى ..

واتجه «دمر» إلى «قان شاه» ومد يده مصافحًا وهو يقول :

ـ مرحبًا بك أيها الملك ، لقد حكت لنا الملكة «منية النفوس» الكثير عن شهامتك وشجاعتك حتى لقد اشتاقت نفوسنا أن تراك ..

فصافحه «قان شاه» وهو يقول :

ـ لقد كان مجيئكم الآن نعمة من السماء ..

وقاطعه الملك «سيف» قائلاً :

ـ سنبدأ غدًا معركتنا الفاصلة مع «الشعشعان» ولهذا ينبغى أن يستريح الجيش المتعب الذى خاض معركة باسلة اليوم ، كما ينبغى أن يستريح القادمون من مشقة الرحلة .. ولنأخذ أهبتنا للغد الحافل فلن يسكت عنا «الشعشعان» ..

* * *

قفز «الشعشعان» من فوق ظهر حصانه ، وأسرع يدخل خيمته مضطربًا وهو يصيح فى الحراس الواقفين حولها :

ـ لا تسمحوا لأحد بالدخول مهما كان الأمر ..

ثم خلع عنه رداء الحرب فى حركات عصبية سريعة ، وارتدى مسوح الكهنة وهو يطلق فوق النار المشتعلة وسط الخيمة فى إناء رخامى كبير قبضات من البخور المعطر ، فيرتفع دخانها الكثيف يملأ جو الخيمة كلها ويعبقها برائحة غريبة نفاذة .. ومضى «الشعشعان» يرقص حول الإناء وهو يهمهم ويدمدم ، ثم ضرب بقدمه فظهر أمامه مارد ضخم من مردة الجان .. وقال له «الشعشعان» وقد اغبر وجهه ، وجحظت عيناه ، وتقلصت راحتاه :

ـ إذهب وائتنى بهذا الملك القصير وأعوانه أجمعين ..

فبدأ الذعر على وجه المارد ، وانحنى أمام « الشعشعان » وهو يقول :

ـ أيها الكاهن الأعظم ، هذا ليس فى طاقة مارد من مردة الجان ، فالملك « سيف » يرتدى منطقة مطلسمة تحرق كل من يقترب منه من الجان .. أما أعوانهم فهم من كبار السحره وعلماء الحكمة الذين يسخرون الجان لخدمتهم ، وليس فى مقدور واحد منا أن يقترب منهم أو يمسهم بسوء دون أن ينالوا منه ويوردوه موارد التهلكة والتلف ..

فنظر إليه «الشعشعان» فى إمعان ، ثم قال وهو يضغط على ناجذيه بقوة :

ـ إذن أنت لاتقوى عليهم .. سحرى وكهانتى تفوق سحرهم .. وأنا لهم .. وسأريهم حرباً لم يروها من قبل ..

ثم صاح فيه وهو ينصرف إلى النار يلقى فيها بقبضة جديدة من البخور :

ـ انصرف ..

ومضى من جديد يطلق الطلاسم والتعاويذ ، ويرقص حول النار فى حركات غريبة ..

* * *

عندما اصطف الجيشان فى الصباح الباكر ، كان من الواضح أن كلا منهما قد عقد العزم على إنهاء المعركة فى هذا اليوم .. وكان الملك «سيف» قد أعاد تنظيم جيش مدينة دوريز بقيادة «قان شاه» وأعطاه الميمنة ، بينما كان رجال حمراء اليمن على الميسرة وفى مقدمتهم «دمر» ووقف هو فى الوسط ووراءه «حلوان» ومن معه من الفرسان .. وقبل أن يصدر الملك «سيف» أمره بالهجوم الشامل على جيش الأعداء خرج من وسط جيوشهم فارس ضخم مدجج بالسلاح ، تلمع دروعه فى أشعة الشمس الوليدة .. وصاح «قان شاه» وهو يندفع نحوه مشرعًا سيفه :

ـ هذا «العملاق» قاتل رجالى .. اليوم يوم الثأر لهم ..

وسرعان ما كان لصدامهما صوت مسموع مخيف ، تلته أصوات ارتطام السيوف فى صرير يصم الآذان بينما كان صياح الفارسين وهما يتبادلان الضربات القوية القاتلة يتجاوب مع صهيل جواديهما واحتكاك درعيهما ، وصيحات الجنود من كلا الجانبين كلما بدا انتصار أحدهما على الآخر ..

وانفصل الفارسان وابتعدا بجواديهما ، ثم عادا يلتحمان من جديد فى حنق وعناد وقوة .. وفجأة ارتفعت صيحة ظفر وانفرج الغبار عن الفارسين وبدأ العملاق وهو يحمل «قان شاه» فوق ذراعه وقد أسره بحيلة غادرة ، ثم أسرع به إلى جنوده يتركه بين يديهم ، وعاد إلى الميدان من جديد وهو يلوح بسيفه فى تحد واستخفاف .. وارتج الميدان من صيحة قوية حادة ، واندفع نحو «العملاق» فارس جديد تتزلزل الأرض تحت وقع سنابك جواده .. وهمس الملك «سيف» فى قلق وهو يضع يده فوق مقبض حسامه :

ـ إنه «دمر» ..

وكان يندفع نحوه ليغيده ، أو يلقى عدوه بدلاً منه ، لولا أنه أحس بلمسة رقيقة فوق ذراعه ، وحين التفت وجد «سعدون» قد اقترب منه بجواده ، وكانت بسمته تملأ وجهه وهو يقول :

ـ لا تخش شيئًا أيها الملك ، فليس هذا الفارس من رجال «دمر» ..

وحاول الملك «سيف» أن يرسم على شفتيه ابتسامة مطمئنة ، ولكن النظرات القلقة التى كان يتابع بها سير المعركة بين ابنه والفارس «العملاق» كانت تكشف عن اضطرابه وخوفه .. ولكن سرعان ما كانت هذه الابتسامة تتسع لتشمل وجهه كله وهو يشاهد تلك الضربة القوية الماهرة التى هبطت كأنها الصاعقة فوق عنق «العملاق» فأطاحت به فى الحال .. وارتفع صياح الانتصار من جيش «قان شاه» بينما ساد الوجوم صفوف الكاهن «الشعشعان» .. و «دمر» يختال بجواده بين الصفين المتقاتلين ، وهو يصيح :

ـ أين فرسانكم ؟.. أين رجالكم ؟.. أين أبطالكم يا عبدة النار !؟..

واندفع نحوه فارس حانق من فرسان الأعداء ، فصال معه مرة واحدة ثم ارتفعت صيحة «دمر» الظافرة ورأس عدوه يطير عن جسده أثر ضربة موفقة جديدة انتزعت صيحات البهجة من جانب ودمدمات الغضب والحنق من جانب آخر .. وتلاه فارس آخر ما لبث أن لقى مصير سابقه .. وتتابعت الفرسان و «دمر» لا تخيب له ضربة ، ولا يكل له سيف إلى أن امتنع فرسان «الشعشعان» عن الخروج إلى سيفه الذى لا يرحم .. فأخذ «دمر» يجول بفرسه بين الفريقين ثم عاد والدماء تغطى جسده وسلاحه وجواده ليلقاه أبوه بين ذراعيه ويقبله بين عينيه .. بينما اندفع «سعدون» الزنجى إلى وسط الميدان يتحدى من جديد باسم جيش «قان شاه» ..

وخرج لـ «سعدون» أكثر من فارس ، ولكن النهاية التى انتهوا إليها جعلت الجميع يعرفون أنه نار رهيبة تلتهم كل ما أمامها دون هوادة ولا رحمة .. وأحس جيش «قان شاه» رغم فقد ملكه أنه فى موقف القوة ، وأن طريق النصر مفتوح أمامه بأمثال هؤلاء الفرسان ..

وعاد «سعدون» ليحل محله «دمنهور الوحش» ثم «سابك الثلاث» ثم «ميمون الهجام» وكل منهم يترك فى الميدان من جثث ضحاياه وصرعى سيفه ما يشهد له بالتفوق والغلبة ..

وقال «الشعشعان» و «ميمون» يعود بين صيحات الظفر من جنود «قان شاه» :

ـ إن الجن لتخاف من هؤلاء حقًا .. ولكن دواءهم عندى ..

وصاح آمرًا فرسانه بالتراجع .. ثم لكز جواده وهو يقول لقادة جنده :

ـ لن يخرج إلى هؤلاء غيرى ، ولن ينقضى النهار إلا وألحقهم بـ «قان شاه» ..

ثم برز وسط الميدان وجال فوق فرسه جولات وهو يقول :

ـ لقد انتهى الهزل أيها الفرسان ، وجاءكم حامل الموت وحارس باب النار المقدسة ..

وساد الصمت كلا الجانبين .. بينما همس «حلوان» فى أذن الملك «سيف» ..

ـ هذا هو الكاهن «الشعشعان» ..

ثم لكز جواده بقدمه ولوح بسيفه واندفع منقضًا عليه .. ولكن «الشعشعان» لم يكن فارسًا كالفرسان ، وإنما كان عملاقًا هائلاً مخيفًا يعرف كل فنون القتال وحيله ، فتلقى ضربات «حلوان» فى مهارة وحذق ، ثم وقف بجواده فجأة حتى حاذاه «حلوان» فى اندفاعه ، فغاص متجنبًا ضربته

السريعة ثم انقض يرفعه من وسطه بين ذراعيه القويتين ويقوده إلى جنوده أسيرًا بين صيحاتهم المتعالية ، وقد بدءوا يحسون بطعم الظفر والنصر..

وصاح «سعدون» فى الجنود :

ـ لا يخرج إليه أحد منكم ، إنه فارس كبير ، ولسنا نريد له مزيدًا من الانتصارات ..

ثم اندفع بفرسه نحوه وهو يلوح بسيفه الكبير ، وتلقاه «الشعشعان» مبادلاً إياه الضربات القوية بمثلها وهو يحاوره ويداوره ، ولكنه سرعان ما أدرك أنه يجابه فارسًا من طبقة غير التى عرفها .. وأدرك أنه إن استمر معه فى المبارزة فسوف يهزمه لا محالة ، فمضى يداوره فى حذق وهو يتمتم ويدمدم ، ويتلو التعاويذ .. وسرعان ما أحس «سعدون» بتخاذل ساعديه وانحلال قوته وهمود حركته ، ومد «الشعشعان» يده فأمسك بـ «سعدون» يرفعه من فوق جواده ويحمله إلى جنوده أسيرًا لا يقوى على الحراك .. ثم عاد إلى الميدان من جديد وهو يبتسم لنفسه فى خبث وتشف..

ولم يكن حظ فرسان الملك «سيف» الآخرين أسعد من حظ «سعدون» فقد لحق به فى أسر «الشعشعان» «ميمون الهجام» و «دمنهور الوحش» و «سابك الثلاث» وقال الملك سيف فى دهشة :

إنه فارس قوى حقًا ولكنه ليس من طبقة هؤلاء الفرسان ، فكيف بالله استطاع أن يأسرهم بهذه السهولة وبهذه السرعة ..؟.

فقال «دمر» :

ـ لست أقل دهشة منك يا أبى ، ولكن لعله يتقن من الحيل ما لا يعرفون..

ثم اندفع بفرسه نحو «الشعشعان» الذى كان يقف وسط الميدان يبتسم فى

خبث وهو يلوح بسيفه فى تحد .. وقال «الشعشعان» وهو يتأمل وجه «دمر» :

ـ أنت صغير أيها الفارس ، وليس هذا مكانك ..

فصاح به «دمر» وقد استبد به الغضب :

ـ إننى قاتل فارسك «العملاق» وقد جئت ألحقك به ..

فصاح به «الشعشعان» فى حنق ، وقد فقد هدوءه :

ـ إذن فهو أنت ..

وانقض عليه فى عنف بضربة قوية جبارة ، فتجنبها «دمر» فى مهارة ، ووجه إليه ضربة قوية ماهرة تلقاها «الشعشعان» على درعه فحطمت الدرع ، ولكن «الشعشعان» نجا منها وتراجع بجواده خطوات وقد عرف أن «دمر» رغم صغر سنه فارس لا يقل عمن سبقوه فى المهارة والقوة ، فعاد إلى ابتسامته الخبيثة وتمتماته السريعة الخافتة وهو يداور «دمر» ويحاوره ..

وكان «دمر» قد أحس أنه قريب جدًا من الظفر بخصمه ، فأخذ يضيق عليه الخناق وضرباته تتوالى فى سرعة وقوة .. ولكن سرعان ما كان ساعداه يثبتان إلى جانبيه وقد رفضتا أن تستجيبا له ، بينما أحس بالخدر يملأ جسده وعقله ، وكمن يعيش فى حلم ثقيل أحس بنفسه يرفع من فوق جواده وامتلأت أذناه بصيحات وحشية كلها الظفر والتشفى ، ثم حملته أيد عملاقة وألقت به إلى الأرض ولم يعد يحس شيئًا ..

ولم ينتظر الملك «سيف» وهو يرى ابنه يؤخذ أسيرًا بل اندفع نحو «الشعشعان» وقد صمم على قتله مهما كان الثمن .. ولم يجد «الشعشعان» فرصة ليبادل مهاجمة أى كلام فقد كان هجومه خاطفًا سريعًا وقويًا اضطر إزاءه إلى التراجع بسرعة ، وهو لا يكاد يقوى على صد الضربات المحكمة الخانقة التى تنهال عليه من كل اتجاه والسيف يدور فى اليد المدربة فى حذق

وبراعة ، فقال «الشعشعان» وهو مستمر فى تراجعه :

ـ إذن فأنت الملك «سيف بن ذى يزن» ..

فتوقف الملك «سيف» عن هجماته المتتالية ، ونظر إليه قائلاً :

ـ وأعرض عليك الإيمان أيها «الشعشعان» وفك من لديك من الأسرى ..

فضحك «الشعشعان» وهو يداور الملك «سيف» ويتلو تعاويذه همسًا ، وقال فى صوت مرتفع :

ـ وماذا سأستفيد أيها الملك ..؟.

فقال الملك «سيف» وقد طمع فى إيمان «الشعشعان» :

ـ أضمك إلى أتباعى ، وتصبح على رأسهم جميعًا ، واضمن لك أن تحكم بلادك وقومك ..

فعاد «الشعشعان» إلى مداراته ، وهو مستمر فى التلاوة والهمهمة ، وقال :

ـ وماذا تريد منى مقابل هذا ؟..

فقال الملك «سيف» وقد ازدادت رغبته فى إيمان «الشعشعان» :

ـ تترك عبادة النار ..!.

ـ وهنا ضحك «الشعشعان» ضحكة وحشية رهيبة وهو يقول :

ـ ولماذا أيها الملك ، إنها تعطينى القوة والنفوذ والحكمة والسحر ، وأنت الآن أسيرى ..

وحاول الملك «سيف» أن يرفع يده بالسيف فخذلته ، فأدرك أنه وقع فريسة لسحر الكاهن الغدار ، فحاول أن يعود إلى صفوفه ولكن فرسه لم يتحرك .. ورفعه «الشعشعان» بين صيحات جنوده الذين جنوا من الفرح ، من فوق فرسه ليسلمه إلى الجنود قائلاً فى سخرية :

ـ ضموه إلى رجاله ليعلمهم الإيمان ..

وقالت الحكيمة «عاقلة» لـ «برنوخ» الساحر ، و «أخميم الطالب» :

ـ إنه السحر ، لقد ظللت أراقب الملك «سيف» عن قرب ، وقد رأيت ذلك الملعون وهو يداوره بالكلام حتى ألقى عليه باب الهمود .. وأنا خارجة له لأريه عاقبة سحره ومكره ..

ثم اندفعت نحوه مسرعة وهى تقول له :

ـ أتحارب الفرسان بالسحر والكهانة ، وتزعم لنفسك الفروسية والبطولة أيها الجبان ..

فالتفت إليها «الشعشعان» وهو يقول :

ـ ومن أنت أيتها العجوز الخرقاء ..؟.

فقالت وهى تتلو تعاويذها :

ـ أنا الحكيمة «عاقلة» ربة السحر والكهانة ..

ثم نزعت شعرة من رأسها وقذفته بها وهى تواصل قراءة تعاويذها ، فإذا بالشعرة حربة مسنونة تندفع نحو قلبه فى سرعة .. ورأى «الشعشعان» الشعرة فى يدها ، ثم رآها حربة فى الهواء فأدرك أنها ساحرة ماهرة ، وأسرع يتلو تعاويذه وهمهماته ، فسرعان ما تحولت الحربة إلى شعرة مرة أخرى وسقطت إلى الأرض .. وانحنت الحكيمة «عاقلة» إلى الأرض تمسك بحفنة من الرمال وهى تقذفها به وهى تهمهم وتقول :

ـ كونى نحلا يأكل بدنه ..!.

فأسرع «الشعشعان» يرد النحل رملاً يدخل عينها ، فردته دخانًا يملأ أنفه .. واستمرا يتبادلان أبواب السحر والكهانة .. وكلما فتحت بابًا سده ، وكلما رمته بمحنة صدها إلى أن أتعبها وأكربها ورمى عليها باب الهمود وانتزعها انتزاعًا من فوق جوادها ليقودها أسيرة ذليلة ..

وخرج إليه «برنوخ» الساحر فلقى مصير «عاقلة» ثم خرج إليه «أخميم الطالب» فلم يكن حظه بأحسن من حظها ، وقاده «الشعشعان» أسيرًا وهو يبتسم لنفسه فى ظفر ويصيح فى جنوده :

ــ دقوا طبول الانفصال فقد أسدل الليل أستاره على الوادى ..

* * *

وقال «عيروض» فى غضب :

ــ أنشهد أسر ملكنا وفرساننا وحكمائنا ونحن سكوت ..؟.

فقالت «عاقصة» فى مرارة :

ــ هذا ساحر رهيب يا «عيروض» وليس يجدى معه القوة ولا المهارة ، ولننتظر حتى الصباح فربما كان لنا فيه فرج ..

ثم أمرت بدق طبول الانفصال وعودة الجنود إلى المدينة فى انتظار الصباح ..

* * *

قال الملك «سيف» للحكيمة «عاقلة» حين أفاقت لتجد نفسها مقيدة وسط الأسرى الآخرين .

ــ لا بأس أيتها الحكيمة ، لقد تركز كل أملى فيك أنت و «برنوخ» و «أخميم» بعد عجزنا عن أسر هذا الملعون .. ولكنى أفقت لأجدكم تقادون أسرى واحدًا أثر الآخر ..

فقالت الحكيمة «عاقلة» وهى تطرق برأسها إلى الأرض :

ــ إن هذا الملعون قد فاقنا جميعًا فى ميدان السحر والكهانة ..

فقال «دمر» فى اندفاع :

ـ لو وضعت يدى عليه لمزقته حيًا ..

فقال الملك «سيف» :

ـ إن مثله خسارة فى الموت ، ولو انضم إلى صفوفنا لكان قوة لنا لا يستهان بها ..

فضحك «أخميم الطالب» فى مرارة وهو يقول :

ـ إن مثله لن يعرف الإيمان إلى قلبه سبيلاً فهو معتز بنفسه معتد بقوته ، وهو يتحايل على النصر بكل سبيل .. ومثله لا يعبد إلا نفسه ..

فقال «برنوخ» الساحر مكملاً :

ـ إن من عبد نفسه فقد قلبه وعينيه ، فهو لا يحس ولا يرى ..

فعاد «دمر» يصيح :

ـ ليس له سوى القتل ..

وقبل أن يجيبه الملك «سيف» سمع الجميع صوت وقع أقدام ثقيلة .. ثم دخل «الشعشعان» الخيمة وجعل يجيل بصره فيهم .. ثم قال وهو يدور على عقبه خارجًا :

ـ سوقوهم إلى خيمتى مكبلين ، ولتمزقوا على كل منهم فى كل خطوة عصا غليظة .. فلست أريدهم أن يصلوا إلى الخيمة إلا وفوقهم ثياب زاهية من دمائهم ..

ثم انصرف وهو يضحك فى وحشية .. بينما انقض جنوده على الأسرى بعصيهم الغليظة يضربونهم فى قسوة وعنف .. وتدافع الأسرى فى كل اتجاه يتحامون الضربات الوحشية التى تنهال عليهم من أيد لا تعرف الرحمة .. وصرخت الحكيمة «عاقلة» وإحدى الضربات تمزق جلدها ، بينما زمجر «دمر» فى وحشية وهو يتلقى ضربة فوق ذراعه .. وقال «سعدون» وهو يتخبط فى قيوده :

ـ احفظوا هذه الوجوه فلنا معها حساب لابد أن يسوى ..

* * *

كان «الشعشعان» جالسًا وسط الخيمة الكبيرة وحوله حرسه المدججون بالسلاح ، ووسط الخيمة إناء بللورى ضخم تزينه الرسوم الملونة ، ومنه يتصاعد دخان كثيف وروائح نافذة ووهج النيران المشتعلة ، حين سيقت الفتيات إليه تتقدمهن «نور الهدى» و «مرجانة» .. وقال «الشعشعان» وهو ينظر إليهن بعينين متقدتين :

ـ لقد آن الأوان لننفذ اتفاقنا القديم ..

وهمست «نور الهدى» لـ «مرجانة» فى صوت مضطرب :

ـ إن قلبى يحدثنى بوقوع أمر جلل يا «مرجانة» .. أتسمعين كلام هذا الملعون ؟..

فقالت «مرجانة» فى همس وهى تقف إلى جوارها :

ـ إن نظراته تشبه نظرات المجانين والمخبولين ..

وعاد «الشعشعان» يصيح ، وفى صوته رنة انتصار وحشى :

ـ لقد وقع القصير فى يدى أيتها الفاتنة وكذلك كل رجاله ، وهذا المارق «قان شاه» وسترين بنفسك عذابهم قبل الموت ..

وكادت «نور الهدى» تتهاوى لولا أن امتدت إليها ذراعا «كوكب» تسندانها .. وهمست فى ضعف :

ـ «قان شاه» أسر ..؟!.

فقالت «مرجانة» فى صوت مضطرب :

ـ يبدو أن الملك «سيف» أيضًا قد أسر ..

وعاد «الشعشعان» يصيح من جديد وهو يصفق بيديه :

ـ أحضروا الطعام والخمور لنشرب على وجوه الحسان ، ونطرب بصيحات الأسرى المهزومين ..

وبينما ساد الوجوم كل الفتيات ، انطلقت الضحكات العابثة الساخرة من الجنود ، ودخل الخيمة مجموعة من الرجال يحملون الطعام وأوانى الشراب يضعونها فى كل مكان من الخيمة ، بينما دخل آخرون يحملون المشاعل المضيئة التى أحالت ما بدأ يشيع فى الخيمة من ظلام إلى نور قوى وضوء ساطع .. وعاد « الشعشعان » يصيح وهو يملأ قدحا كبيرا من الخمر :

ـ افتحوا الخيمة من أمام وانصبوا أمامها العواميد بعدد الأسرى وأشعلوا النار الكبيرة التى ستلتهم قرابينها فى الوسط ..

ثم رفع قدحه إلى فمه يشربه فى جرعة واحدة ، ووضعه أمامه وهو يصيح من جديد :

ـ ولتغن الفتيات جميعهن .. عاش « الشعشعان » سيد الرحماء ، وملك الأرض والسماء ..

ولم تنطق الفتيات بكلمة ، بل أخذن ينظرن إلى بعضهن البعض فى حيرة وقلق .. وملأ « الشعشعان » كأسه بينما ارتفعت جوانب الخيمة كاشفة ميدانًا فسيحًا وسطه حفرة عميقة ترتفع منها ألسنة نيران كبيرة .. وشرب الكاهن الكأس المترعة بينما تعالى صوت الدق ، والجنود يقيمون حول النار أعمدة مرتفعة من الحديد .. ووضع كأسه وهو يصيح فى غضب :

ـ ألا تردن الغناء لى ؟.. أيها الجنود أحضروا الجلادين لعل سياطهم تعلمهم كيف يرفضن ..!.

ثم أهب من مجلسه مسرعًا وجذب « نور الهدى » من شعرها وهو يقول فى سخرية وعنف :

ـ أتحسبين أننى صدقت كلامك المزوق .. لا ، لقد عرفت كل شىء .. أنت تطمعين فى الزواج من ذلك الخائن المرتد «قان شاه» وسأسلخ جلده حيًا أمامك ، وأجعل من جلده فراشًا تنامين معى فوقه .. !.

ثم انطلق يضحك وهو يدفع بها بعيدًا لتسقط فوق وجهها متكومة على الأرض .. وهرعت نحوها «مرجانة» ترفعها عن الأرض وهى تصيح فى الكاهن المخمور :

ـ أهكذا تعامل امرأة لا حول لها ولا طول ..؟!.

فكف «الشعشعان» عن الضحك ، والتفت إليها قائلاً فى بطء :

ـ سترين كيف أعامل النساء .. !.

وصاح فى الجلادين الذين تدفقوا إلى الخيمة قائلاً :

ـ اجلدوهن .. !.

وارتفع صياح الفتيات ممزوجًا بضحكات «الشعشعان» وأصوات وقع السياط تمزق الجلود الرقيقة تمزيقًا .. وصاحت «مرجانة» فى الفتيات :

ـ أتتركن هذا المجرم يلتذ بصراخكن .. لقد عانيتن ما هو أسوأ من هذا العذاب وكنتن صامدات .. اقتلنه بصمتكن ، بعذابكن الذى لا يتكلم ، بالحقد الذى لا ينطق ..

وصمتت الفتيات رغم وقع السياط التى تمزق الجلود تمزيقًا ، بينما التفتت «مرجانة» نحو «الشعشعان» الذى أذهلته المفاجأة فسكت ، وصاحت به فى عنف :

ـ ماذا تريد أيها «الشعشعان» ؟.. أتريد أن نغنى لك ، سنغنى لك ونملأ الدنيا غناء باسمك ، وكلما ارتفعت أصواتنا المعذبة تنطق باسمك حلت عليك اللعنات واقتربت بك من نهايتك ..

ثم التفتت «مرجانة» نحو الفتيات ، وقالت لهن :

ـ لنغن له يا فتيات ، قولوا معى على وقع السياط ومن بين أنات الألم .. عاش «الشعشعان» سيد الرحماء .. وملك الأرض والسماء ..!.

وانبعثت أصواتهن حزينة معذبة تغنى الكلمات فى وقع رهيب ، فكفت أيدى الجلادين عن الضرب واشرأبت أعناق الجنود بينما صمت كل شىء فى الخيمة .. وما كادت الفتيات ينتهين من ترديد الجملة التى أرادهم أن يغنوها حتى دفع «الشعشعان» ما أمامه من طعام قاذفًا به إلى الأرض ، ونهض واقفًا وقد شحب وجهه وتقلصت شفتاه .. ولكنه قبل أن ينطق بشىء ظهر موكب آخر رهيب .. جمع كبير من الجند يحيطون بالفرسان المقيدين بالسلاسل وهم يضربونهم فى عنف بعصى غليظة ، والدماء تتفجر من كل أجزاء أجسادهم ، ولكن شفاههم صامتة وعيونهم ثابتة ووجوههم تحمل تعبيرًا ثابتًا رهيبًا .. والتفت «الشعشعان» بوجهه إلى الموكب السائر فى بطء ، وبدأت ملامحه تنفرج عن ابتسامة بشعة قبيحة .. وهمست «مرجانة» :

ـ إنه الملك «سيف» وفرسانه ..

وهمست «نور الهدى» فى ذعر :

ـ إنه «قان شاه» ..

وأسرعت «مرجانة» تقول فى صوت منخفض ونبرات سريعة منفعلة :

ـ إن هذه فرصتنا أيتها الملكة .. اسرعى إلى «قان شاه» وضميه صارخة ، واحدثى أكبر ضجة ممكنة وأظهرى له كل حب حتى يجن جنون «الشعشعان» وتستثار غيرته ، لعل فى هذا خلاصنا ..

ولم تتردد «نور الهدى» .. فما أن توسط الأسرى الميدان حتى اندفعت صارخة فى وله :

ـ «قان شاه» ..!.

ثم ارتمت فوق الأسير تقبله وهى تصرخ وتبكى ..

وبينما وجم «قان شاه» وذهل ، أحس «الشعشعان» بالنار تأكل قلبه ، والحراب المسمومة تنقض لتطعنه فى كبريائه ، فاندفع كالمجنون نحوها يركلها بقدمه ، ويركل «قان شاه» بعدها ويصيح :

ـ هذا الخائن هو من تفضلين ..؟!.

وبينما كان «الشعشعان» يهذى ويصرخ ويضرب «نور الهدى» و «قان شاه» قالت «مرجانة» لـ «كوكب» :

ـ هذه فرصتنا فلننتهزها ..

فقالت «كوكب» وهى تحبس انفعالها فى صعوبة :

ـ كيف ..؟.

فقالت «مرجانة» من بين أسنانها :

ـ اتبعينى فى صمت ، فسنتسلل من وسط الخيمة أثناء انصراف الجميع إلى هذا المشهد المثير..

* * *

وتمكنت «مرجانة» و «كوكب» من التسلل وسط الخيمة والاختفاء فى الظلام ، بينما كان «الشعشعان» يأمر رجاله بربط الفرسان فى العواميد الحديدية ، على أن يربط «قان شاه» و «نور الهدى» فى الوسط .. وهمست «مرجانة» فى اذن «كوكب» وهما جاثمتان ترقبان ما يحدث من بعيد :

ـ إنه يريد صلبهم ليهدم روح الجنود فيسلمون إليه المدينة ..

فقالت «كوكب» :

ـ لقد وضعوا الفارس «حلوان» فى آخر الحلقة ، ويكاد عموده يكون فى الظلام ..

وشدت «مرجانة» على يدها فى صمت وهى تهمس :
ـ لن نتمكن من التسلل إليه إلا إذا حصلنا على زى جنود «الشعشعان» ..
وتسللت الاثنتان فى سرعة وابتلعها الظلام .. ومن بعيد ارتفعت آهة مكتومة واختفى أحد الحراس .. وبعد قليل ارتفعت آهة أخرى فى الظلام واختفى حارس آخر .. وما هى إلا لحظات حتى كان هناك شبحان فى زى جنود «الشعشعان» يتسللان فى صمت ناحية آخر الحلقة المشئومة التى صلب عليها الملك «سيف» وفرسانة ..

* * *

وكان «الشعشعان» قد عاد إلى الخمر يشرب منها فى إنتشاء ، وهو يواجه الملك «سيف» قائلاً :
ـ أرأيت أيها القصير ، ها أنت مربوط كالكلب على عمود من حديد ، وفى الصباح ستشنق أمام جنود المدينة ويبطل تأثيرك عليهم ويعود إلى ملك الوادى ..
فقال له الملك «سيف» فى هدوء :
ـ أنت تحسب أن كل شىء قد دان لك لأن كل من تخافهم قد أصبحوا فى القيود ، ولأنك استطعت أن ترغم الأسيرات على الغناء باسمك .. إن هذا لا يعنى إلا شيئًا واحدًا .
فقال «الشعشعان» وهو يبتسم :
ـ انتصارى ..
وعاد صوت الملك «سيف» الهادئ يقول :
ـ بل نهايتك ..

ولم يسمع الفارس «حلوان» رد «الشعشعان» الغاضب لأنه سمع همسًا إلى جواره ، ثم أحس بأيد مدربة حاذقة تنزع قيوده فى صمت .. وخفق قلبه فى عنف والقيود تتساقط واحدًا أثر الآخر ، وحين سقط القيد الأخير سمع صوتًا هامسًا يقول :

ـ أسرع وكن على حذر ..

واندفع «حلوان» غائصًا إلى الأرض بسرعة ، ثم زحف مبتعدًا عن العمود المنصوب بينما احتل مكانه جسد جديد وقف لصق العمود وكأنه مقيد بالسلاسل كما كان «حلوان» مقيدًا .. وأحس بيد تلمس كتفه وصوت هامس يقول :

ـ اتبعنى فى صمت .. هذه «كوكب» أخذت مكانك حتى لا يشك أحد فى غيابك ..

* * *

كان «دمر» هو أكثر فرسان الملك «سيف» قلقًا وأشدهم حنقًا .. وربما كان هذا يرجع إلى أنه كان أحدثهم سنًا وأقلهم تجربة ، وربما لأنه كان يطير على رأس فرسان حمراء اليمن وهو يرسم لنفسه دور المنقذ الذى سيخلص أباه وينصره فى معركته مع أعدائه ليثبت له أنه غدا رجلاً جديرًا بالاعتبار والتقدير .. وعلى هذا فقد كان الحنق يمزق صدره تمزيقًا وهو يشاهد «الشعشعان» يعود إلى «نور الهدى» حيث وقفت مقيدة إلى جوار «قان شاه» ويلصق وجهه الكريه بوجهها الغض وهو يقول :

ـ كنت تسخرين منى وأنت تغنين مع الفتيات باسمى .. والآن عليك أن تغنى لى طالبة الرحمة كلما شاهدت النار تأكل حبيبك عضوًا عضوًا ..

ثم مضى يضحك وهو يقول فى سخرية :

— كم أنا مشتاق إلى سماع صوتك العذب .. !.

وكادت دموع الحنق تقفز من عيني « دمر » .. أهذه هي الحرب ؟ .. من يملك الخدعة والحيلة هو الذى ينتصر.. بالكهانة والسحر أو الخدعة والمكر ، سيان .. الفروسية والشجاعة وحدها لا تكفى ، القضية العادلة والدفاع عن الحق وحدها لا تكفى .. الاستهانة بالحياة والسلامة وحدها لا تكفى .. أهذه هى ساحات الغار التى حدثه عنها «سعدون» أحاديث طفولته وصباه .. وكانت المرارة تقطر عصارتها السوداء فى قلب الفتى حين سمع صوتًا هامسًا وراءه .. وظن أنه فحيح النار المشتعلة .. ولكن الصوت عاد من جديد وكان يردد إسمه ، وكذب نفسه وهو يحسب أن اليأس يصور له أشياء لا توجد إلا فى خياله .. ولكنه أحس بيد تربت على كتفه فارتجف .. حين أحس بهذه اليد تعبث فى قيوده جال بعينية حوله بسرعة وجمد فى مكانه ، وقلبه يتواثب فى صدره ، والدعوات تكاد تتصايح من شفتيه .. وقال الصوت الهامس حين سقطت آخر قيوده :

— أسرع ..

واندفع «دمر» إلى الأرض ومضى زاحفًا خلف الشبح الذى يتحرك أمامه ، وحين التفت وراءه كان هناك إنسان آخر يقف مكانه أمام العمود .. وأسرع حتى اقترب من الشبح الزاحف وهو يهمس :

— هناك من أخذ مكانى عند العمود ..

فقال الصوت الهامس الذى استطاع «دمر» أن يتبين فيه صوت «حلوان» الفارس الذى كان يلازم أباه :

— إنها «مرجانة» ..

ثم رفع يده مشيرًا إلى خيمة بعيدة ، وقال :

— أسرع إلى خلف هذه الخيمة لنتدبر أمرنا ..

واستمر «دمر» فى زحفه ، وطنين مخيف يملأ رأسه ، استطاع ـ وهو يرتجف ـ أن يكتشف أنه دوى ضربات قلبه ، بينما كان العرق البارد يبلل رقبته وظهره وذراعيه .. أبدًا لم يحس هذا الإحساس وهو يواجه أشجع الفرسان فى ميدان القتال .. لم يرتجف قط وهو يرى السيوف اللامعة تهوى فوقه بأيد مدربة قوية ، كان ساعتها يحس أن جسده كله يتحفز ، وأنه حاضر الذهن صافى العقل فيتصرف بمهارة وينجو من الضربة ليكيل لخصمه غيرها .. أما هذا الزحف البطىء المريض وسط الظلمة وحوله جند مسحورون بقوة الكاهن الخارقة ، وكاهن مجنون يتلهى بتعذيب ضحاياه ، ويستمتع بمظاهرة القوة .. فهذا ما لم يكن يحلم أن يترك حمراء اليمن ليصنعه هنا .. وجاءه الصوت الهامس من جديد يقول :

ـ كفى ..

ووقفت أعضاؤه كلها عن الحركة ، بينما أحس بيد قوية تجذبه خلف الخيمة ، وسمع «حلوان» يقول له :

ـ هدئ روعك أيها الأمير .. لقد انتهت المحنة ، ونحن فى حاجة إلى كل قواك فلا تستسلم للحظة الضعف العابرة هذه ..

وبصعوبة شديدة بدأ «دمر» يستجمع قواه الشاردة ، وهمس وهو يمر بلسانه على شفتيه الجافتين .

ـ كيف تخلصت أنت ..؟.

فأخذ «حلوان» يشرح له دور «مرجانة» و «كوكب» وكيف أنقذاه وحلا محلها .. ثم قال :

ـ ولكن لا وقت لنجلس هنا نتحادث ، لابد أن نفعل شيئًا قبل أن يبدأ هذا المجنون فى قتل الأسرى ..

فقال «دمر» وقد أعاده الخطر الماثل إلى صفاء تفكيره وحضور ذهنه :

ـ أنا وأنت لا نستطيع أن نفعل شيئًا ، وإنما هذا دور الحكيمة «عاقلة» والساحر «برنوخ» و «أخميم الطالب» فهم وحدهم الذين يستطيعون انقاذنا من سحره وكهانته ..

فأشرق وجه «حلوان» وهو يقول فى حماس :

ـ إذن هيا لنخلصهم ..

وأمسك به «دمر» وهو يقول :

ـ انتظر .. إن خلاصهم وحده لا يكفى ، وإنما يجب أولاً أن نعرف مكان خيمة «الشعشعان» الخاصة التى يخفى فيها أدوات سحره وكهانته فهى التى تستطيع أن تمدهم بما يحتاجون إليه للقضاء عليه ..

فقال «حلوان» :

ـ إن الذى يعرف هذه الخيمة «مرجانة» و «كوكب» ، وهمامكاننا عند العواميد ..

فأطرق «دمر» لحظات ، ثم قال هامسًا فى صوت أجش :

ـ لنصرع جنديين ونضعهما مكانهما .. كما نستطيع أن نقتل جنديًا مكان كل واحد من الحكماء لنضعه مكانه عند العمود ..

وصمت لحظات ، ثم ضحك ضحكة خشنة وهو يقول :

ـ وإن فشلنا فيلصلب «الشعشعان» جنوده القتلى بدلاً منهم .. ثم ربت على كتف «حلوان» وتسللا فى هدوء وصمت ..

* * *

ولم تحدث الحكيمة «عاقلة» أى صوت حين سمعت الهمس وراءها ، كما لم تتحرك حين سقطت القيود التى تشدها إلى العمود .. وحين زحفت مبتعدة شاهدت «دمر» و «حلوان» وهما يضعان مكانها جنديًا من جنود

«الشعشعان» يبرز من مكان القلب فى صدره مقبض خنجر كبير.. وشدتها يد لتبتعد بها بسرعة عن دائرة الضوء ، وقال لها صوت نسائى :

ـ اتبعينى بسرعة ..

وظلت الحكيمة «عاقلة» تتبع صاحبة الصوت فى صمت حتى وصلت إلى خيمة كبيرة يقف عندها حارس ممتشقًا حسامه ، ووجف قلب الحكيمة عاقلة وقد خشيت أن تكون ساعة الافتضاح قد حانت ولكنها سمعت الحارس يقول فى صوت نسائى :

ـ أهذه أنت يا «مرجانة» ..؟.

وقال الشبح الذى يقودها :

ـ نعم يا «كوكب» ، ادخلى الحكيمة إلى الخيمة لأعود فأحضر الباقين ..

وحين دخلت الحكيمة «عاقلة» إلى الخيمة بهرها ما بها من ضوء ساطع فغطت عينيها لحظات ، ثم كشفتها لتجد نفسها وسط مجموعة هائلة من أدوات السحر والكهانة ، وابتسمت لنفسها فى سرور وهى تسمع قول صاحبتها :

ـ هذه خيمة «الشعشعان» التى يختلى فيها ليقوم بسحره وكهانته ..

وتكلمت الحكيمة «عاقلة» للمرة الأولى قائلة :

ـ سأبدأ عملى فى الحال ، فاننى سأحتاج إلى وقت طويل ..

فقالت الأخرى التى ترتدى ثوب الحراس :

ـ ستحضر لك «مرجانة» الساحر «برنوخ» و «أخميم الطالب» ليساعداك ..

فهتفت الحكيمة «عاقلة» وهى ترى تلك التى أسمتها الحارسة باسم «مرجانة» تخرج متسللة :

ـ إذن أسرعى بربك فنحن الثلاثة نستطيع أن ننهى عمل يوم فى ساعة ..

* * *

وكان «الشعشعان» قد شفى نفسه من تعذيب «قان شاه» و «نور الهدى» ، كما كان قد ابتدأ ينتشى مما شربه من خمر فاتجه مترنحًا نحو النار الكبيرة المشتعلة أمام الخيمة ومضى يسجد أمامها وهو يرتل تراتيله الغريبة بصوت أجش كريه ، ثم التفت نحو أسراه وقال :

ـ والآن حانت لحظة تقديم القرابين فاستعدوا لتستمتعوا بلهيبها الذى يشوى من يكفر بها وبقوتها ..

والتفت إلى جنده صائحًا :

ـ هاتوهم واحدًا واحدًا بالترتيب ..

وهرع مجموعة من الجنود صارخين إلى العمود الأول تتبعهم ضحكات «الشعشعان» الساخرة ، ولكن أصوات الجنود سكتت دفعة واحدة .. وفى وجوم كانوا يعودون وهم يحملون جسدًا هامدًا لا يتحرك .. وحين وصلوا أمام الكاهن الذى كان مستغرقًا فى ضحكه وضعوه فى صمت ووقفوا دون حراك .. وغاصت الضحكة من فوق شفتى «الشعشعان» ونظر إلى جنوده لحظات ، ثم انحنى فوق الجسد الهامد أمامه وشحب وجهه وتقلصت شفتاه ، فقد كان الجسد لجندى من جنوده يتوسط صدره خنجر كبير .. وأفاق من ذهوله وهو يصيح :

ـ أحضروا الثانى ..

ولكنه لم ينتظر جنوده ، بل هرع مهرولاً ناحية العمود الثانى وهو يسب ويلعن ..

وبينما كان «الشعشعان» يهرع ناحية العواميد عند الطرف البعيد ، كان الملك «سيف» و «سعدون» و «دمنهور الوحش» وسابك الثلاث» و «ميمون المجام» يحسون بقيودهم وهى تفك فى سرعة وحذر ، وحين غادروا أماكنهم لصق الأعمدة حلت محلهم أجساد ميتة لجند «الشعشعان» .. وسرعان ما تواروا فى الظلام فى صمت ، وصوت «دمر» يهمس فى آذانهم : ــ وراء هذه الخيمة أسلحتكم كاملة ..

* * *

ومن عمود إلى عمود ، مضى «الشعشعان» ينتقل مسرعًا وهو فى كل مرة يطالع وجهًا متقلصًا عليه قناع الموت الرهيب .. واشتدت سرعة «الشعشعان» وقد بدأ يفقد كل اتزان وهدوء ، وبدأت صرخات الغضب والهياج تفح من فمه فى هدير غاضب وحنق ثائر مدمر .. وحين عاد يتوسط الخيمة لم يكن هناك من أسراه سوى «قان شاه» و «نور الهدى» أمام إناء النار الكبير .. وبينما كان يرفع رأسه إلى أعلى شاهد غمامة قاتمة تحيط بمعسكره كله وتقترب من الأرض تدريجيًا ، وظل لحظات يتأملها فى وجوم .. ثم أشرق ذهنه فجأة فانتابه ذعر قاتل ..

لقد أدرك أن هذه السحابة هى من عمل ساحر ماهر وأنها حين تمس الأرض سينام كل من عليها إلا من صانهم صانع السحابة .. وحاول أن يتلوا تعازيمه وتمماته ، ولكنه لم يستطع أن يتذكر شيئًا ، كان ذهنه قد خلا من كل شىء كأنما نسى كل ما تعلمه من فنون السحر والكهانة .. وأحس بنفسه عاريًا وسط الجمع من جنده الذين ينظرون إليه واجمين .. واندفع إلى رأسه خاطر واحد .. ينبغى أن يصل إلى خيمته مسرعًا فهناك يستطيع أن يستعيد قوته ويسيطر على هذه الغيمة ويكشف صانعها ويعود «الشعشعان» القوى

الجبار ، ملك كل هذه الأرض ، سادن النار ومذل الحياة ..

واندفع «الشعشعان» مسرعًا فى إتجاه الخيمة ، وأمامه تمامًا كان «دمر» يتقدم وسيفه فى يده ، وانحرف إلى يمين وأمامه كان «سغدون» و «سابك الثلاث» يتقدمان فى بطء شديد ، وانحرف إلى يسار وأمامه كان «ميمون الهجام» و «دمنهور الوحش» يتقدمان وسيفاهما فى يديهما وفى عيونهما نظرة يعرفها جيدًا .. ودار حول نفسه ليعود ، وأمامه كان الملك «سيف» يتقدم نحوه وفى يده عصا غليظة عرفها «الشعشعان» والذعر يملأ قلبه كله .. كانت واحدة من العصى التى أمر رجاله أن يضربوا بها ظهور الفرسان .. ونظر حوله وعن يمينه كانت «مرجانة» و «كوكب» وفى يد كل منهما سوط مشرع .. وعن يساره كان «حلوان» يمسك سيفه فى يد وقيدًا ينتهى بسلسلة طويلة فى اليد الأخرى .. وصاح الملك «سيف» :

ـ ما رأيك فى الإيمان أيها الكاهن ..؟.

وقاطعه صياح «دمر» وهو يقول :

ـ لو مزقناه بالسيوف لعرف الجواب ..

وتعالى صوت «مرجانة» يقول فى هدوء :

ـ بل إن دواءه السوط وحده ..

وأخذ «الشعشعان» يتلفت حوله فى يأس مرير ، وقد خذله عقله فلم يعد يستجيب له ، وخذلته قواه فلم يعد يقوى على الحركة السريعة ، وجاءه صوت «مرجانة» كأنما من بعيد وهى تقول :

ـ ألا تريد أن نغنى الآن أيها الكاهن .. يا سيد الرحماء وملك الأرض والسماء ..

واندفع «الشعشعان» يجرى وقد امتلأت أذناه بطنين رهيب ، وأصابته عصا الملك «سيف» بين عينيه فدارت رأسه وغامت عيناه .. وأخذ يتراجع

ذاهلاً إلى الوراء ، خطوة ، خطوة ، والملك «سيف» يتقدم نحوه وعيناه عند عينيه وهو يقول :

ـ أتعرف طعم العصا أيها الكاهن ..؟.

وتعثرت قدم الكاهن وأحس بشيء ساخن يلفح رقبته ، ثم فقد توازنه وهوى وصرخاته تتعالى من الإناء البلورى الكبير :

ـ النار النار ..

وقال الملك «سيف» ووجهه شاحب وعيناه شاخصتان :

ـ هى معبودك أيها الساحر فذق طعم لهيبها ..

ولم يفق جنود «الشعشعان» إلا وهم يستمعون إلى صراخ سيدهم المرعب من داخل النار المشتعلة ، ولكنهم حين حاولوا التحرك كانت السحابة تطبق على الأرض فيحل على كل مامسته نوم عميق رهيب ..

* * *

ولم ينج من الموت بحد السيف إلا من ترك عبادة النار من رجال «الشعشعان» .. وكانت غنيمة «قان شاه» من جيش «الشعشعان» كبيرة وضخمة عوضته عن كل خسائره فى حربه الطويلة مع عبدة النار .. إلا أن غنيمته الكبرى كانت «نور الهدى» التى أقام لزفافه بها حفلاً كبيرًا هائلاً عوض المدينة وأهلها عما لاقوه من عنت وعناء ..

وأمر الملك «سيف» و «عيروض» و «عاقصة» أن يرافقا البنات إلى حمراء اليمن ، ومعهم «حلوان» ليكون وزيرًا لابنه «مصر» مكافأة على الدور الذى قام به فى حرب «الشعشعان» وقال الملك «سيف» «لمرجانة» وهو يودعها :

ـ وصيتى الملكة «منية النفوس» وابنها «مصر» ..

ثم ابتسم وهو يشير إلى صندوق كبير موضوع أمامه :

ـ وهذا لكن لتدركن مبلغ ثقتي فيكن ..

وحين فتحت «مرجانة» الصندوق وجدت فيه الثياب الريش ، فابتسمت وقالت :

ـ ألا تخشى علينا أيها الملك من ساحر جديد ؟!.

فقال لها :

ـ أيتها الملكة الباسلة إن لك فى شجاعتك ما يقيك من كل السحرة ..

ثم أردف قائلاً :

ـ وددت لو عدنا جميعًا الآن لولا أن «قاسم العبوس» قد بدأنا بالعدوان حين حاول اختطاف «منية النفوس» ،.. ولست أريد أن أغادر هذا المكان قبل أن أسوى حسابى معه تسوية نهائية .. ولست أريدك أن تشتركى فى حرب أحد أطرافها زوجك ..

فابتسمت «مرجانة» ثم ضحكت قائلة :

ـ ولهذا تبعدنا نحن عن متناول يده أيها الملك ..

فبادلها الملك «سيف» الضحك وقال :

ـ لهذا ولأننى أريد أن أقابله دون أن يشغل ذهنى أمركم .. ثم تقدمت «نور الهدى» وزوجها «قان شاه» يودعا «مرجانة» و «كوكب» وباقى الفتيات .. وقبل «قان شاه» «حلوان» وهو يودعه ، ثم قدم له درعًا كاملاً وسيفًا صقيلاً من سيوفه الخاصة هدية تقدير .. وسرعان ما كان «عيروض» و «عاقصة» فى طريقهما إلى حمراء اليمن يحملان المسافرين ، بينما كان الملك «سيف» ينظر إليهما وفى عينيه شوق مكبوت ، وإحساس بالغربة والحنين تحبسه إرادة قوية وعزيمة صادقة .

- ٢٣ -

قال «عيروض» فى إصرار وإلحاح :

ـ لقد وعدتنى أيها الملك ، ولابد لك أن تفى بوعدك ..

فقال الملك «سيف» :

ـ نحن لسنا فى بلادنا وأرضنا يا «عيروض» وليس هنا مكان لمثل الحديث الذى تقول ، وإنما نحن نستطيع أن نناقش هذا الأمر فى حمراء اليمن ..

فقال «عيروض» فى يأس ومرارة :

ـ أنا أعلم أن «عاقصة» تعارض فى زواجها منى ، ولكنك أخوها وملكها وتستطيع أن تأمرها فلا تملك مخالفة أمرك أو إغضابك ..

فقال الملك «سيف» وهو ينظر إلى «عيروض» فى عطف صادق ومودة حقيقية :

لقد خدمتنى يا «عيروض» باخلاص ، وليس مثلى من ينكر الجميل .. ولكن التغلب على رفض «عاقصة» يحتاج إلى وقت وإلى مجهود ، وأنت ترى أننا نعيش هنا على حذر ، فنحن نتوقع هجوم «قاسم العبوس» بين لحظة وأخرى ، وكل وقتنا وجهدنا منصرف إلى الاستعداد لمعركة نهائية معه ، فإننا لو خسرنا معركتنا معه خسرنا كل المجهود الذى بذلناه فى جزر واق الواق ..

قال «عيروض» وهو يطرق برأسه :

ـ لا تغضب منى أيها الملك ، وإنما أنا صاحب حاجة ، وصاحب الحاجة ملحاح ..

فضحك الملك «سيف» وربت على كتفيه ، ولكنه قبل أن يعقب على حديث «عيروض» طرق الباب بشدة وعجلة ، فكف الملك «سيف» عن ضحكة وهو يقول :

ـ ترى من يطرق الباب بمثل هذه اللهفة ؟.. ادخل ..

واندفع الملك «قان شاه» إلى الحجرة وهو شاحب الوجه ، تبدو معالم القلق والحيرة والانزعاج واضحة فى نظرات عينيه ، وهب الملك «سيف» واقفًا وأسرع إليه وهو يقول :

ـ ما الأمر أيها الملك ..؟.

فقال «قان شاه» والكلمات تتعثر عند شفتيه لفرط انزعاجه :

ـ إن الأمر جلل ، ولست أدرى كيف أحكيه لك ، ولكن يستحسن أن تسمع الحكاية منهم بنفسك ..

فقال الملك «سيف» وقد بدأ الاهتمام على وجهه :

من هم ؟..

فعاد «قان شاه» يقول وهو يضغط على كفيه فى اضطراب :

ـ إنهم مجموعة من تجار المدينة كانوا فى إحدى رحلاتهم ، وعادوا اليوم .. وهم يحكون أعجب حكاية سمعتها فى حياتى ..

فقال الملك «سيف» :

ـ وأين هم ..؟.

فقال «قان شاه» وهو يشير بيده :

ـ إنهم ما زالوا فى قاعة العرش حيث تركتهم لأهرع إليك ..

فقال الملك «سيف» وهو يسرع خارجًا يتبعه «عيروض» :

ــ إذن هيا بنا إليهم ..

وأسرع «قان شاه» يلحق بهما إلى قاعة العرش حيث وقف مجموعة من الرجال طوال اللحى ، خشنى المظهر .. وقال «قان شاه» موجهًا كلامه إلى أكبرهم سنًا ، وكان يقف متقدمًا عنهم قليلاً :

ــ أعد قصتك على الملك «سيف بن ذى يزن» ..

فنقل الرجل بصره من الملك «قان شاه» إلى الملك «سيف» وقال :

ــ عفوًا أيها الملك إن كنت قد أزعجتكما .. ولكن الأمر لا يحله إلا حكمتكما وسديد رأيكما ..

فقال الملك «سيف» وهو يأخذ مجلسه إلى جوار الملك «قان شاه» الذى جلس فوق عرشه :

ــ حسنًا يا أبى تحدث ولا تخش شيئًا ..

فقال الرجل فى صوت تهزه نبرات الانفعال الذى أخذ يشتد ويتضح كلما أوغل فى حديثه :

ــ لقد كنا عائدين بعد أن أصبنا فى تجارتنا فوق كل ما كنا نأمل من ربح .. وكان الحنين إلى أهلنا وأولادنا يملأ صدورنا وقلوبنا جميعًا كما هو الشأن كلما اقترب ميعاد العودة ، وحان وقت اللقاء .. وأمام كل منا تتزاحم صور اللقاء المرتقب بالأهل والأولاد والأصدقاء .. ولهذا كنا نغذ السير مسرعين ونحن نحمل رواحلنا فوق طاقاتها لتقطع بنا الطريق فى أسرع وقت ممكن .. ولم يكن قد بقى على مدينة دورريز سوى ثلاثة أيام حين صاح حادى إبلنا الذى يسير فى المقدمة :

ــ هذه دورريز أمامنا ..

وفى أول الأمر لم يتمالك كل من فى القافلة نفسه ، فتعالت صيحات

الفرح والاستبشار ، واشرأب كل منهم بعنقه يستطلع منظر المدينة وهي تلوح من بعيد بسورها وأبراجها العالية .. ولكنني بعد ذهاب نشوة الفرح الأولى أحسست بشيء يقبض على قلبي ويعتصره ، فقد كنت واثقًا أن بيننا وبين دوريز مسافة شاسعة لا يمكن أن نقطعها قبل ثلاثة أيام .. وصحت بالرفاق وأنا أسرع لأمسك بالراحلة الأولى فأوقفها :

ـ مهلاً أيها الأصدقاء فهذه ليست دوريز ..

ووجم الجميع وخفتت أصوات ضحكاتهم ، وساد السكون بينهم وأنا أستأنف حديثي قائلاً :

ـ أحسبوا ما قطعناه من الطريق تجدون أنه لابد أن تنقضي ثلاثة أيام قبل أن نصل إليها ..

وقال الحادي وهو يخفض من رأسه :

ـ لقد صدقت أيها الشيخ ، فطالما قضيت العمر في هذا الطريق غاديًا رائحًا ، ولم يسبق قط في حياتي كلها أن وصلت إلى دوريز في مثل هذا الوقت ..

ومضى يعد على أصابعه والقافلة كلها ترقبه ، ثم رفع رأسه وفي عينيه نظرة شاردة ، وقال :

ـ نعم .. باقٍ لنا في الرحلة ثلاثة أيام ..

وارتفع صوت من وسط الجمع المحتشد حولي :

ـ إذن فما هذه ..؟.

وقال صوت آخر :

ـ أقسم أنها دوريز ، ألست أعرف سورها ، وأبراجها ، ومنظرها وطابعها .. أتريدون مني أن أكذب عيني .. إنها دوريز وكل من يقول غير هذا مخبول أو لعبت الخمر برأسه ..

ومضيت أنظر مرة أخرى إلى المدينة أمامي .. ولم يكن هناك شك .. كانت هي دوريز بعينها ، لطالما تطلعت عيني بشوق ولهفة إلى هذا السور وأنا أقترب منها عائدًا من إحدى رحلاتي ، ولطالما نظرت إليها في أسى وحنين وأنا أغادر أبوابها سعيًا وراء رحلة جديدة من رحلات التجارة التي لا تنتهي .. وعاد صوت الحادي يقول في إصرار وعناد :

ـ ولكن باقي لنا ثلاثة أيام ، وأنا لا أخطئ في حسابي أبدًا ..

وتعالت الأصوات من كل جانب ، واحتدم النقاش ، واشتد الخلاف .. حتى أوشك الرجال أن يتماسكوا بالأيدي .. وخشيت مغبة الأمر ، فصحت فيهم رافعًا يدي أطلب السكوت والانصات :

ـ إنني حائر مثلكم ، فأنا لا أستطيع أن أكذب ما تراه عيناي ، وأنا كذلك لا أستطيع أن أكذب ما يقرره عقلي .. والوسيلة الوحيدة التي نستطيع بها أن نتأكد من الحقيقة هي أن ندخل إلى المدينة لنرى هل هي دوريز حقًا أم أن الخبال أصابنا جميعًا ..

وسكتت كل الأصوات ، ثم ارتفعت عبارات التأييد من كل مكان .. وهكذا استقر أمرنا على دخول المدينة وفي الحال ، رغم عبارة الحادي العنيد الذي ردد في عناد وهو يمسك بمقود الراحلة الأولى ويسير بها متجهًا إلى باب المدينة :

ـ ومع هذا فدوريز ما زالت على مسيرة ثلاثة أيام ..

ولكننا حين اجتزنا عتبة باب المدينة لم يعد هناك مجال للشك ، فنحن في دوريز بلا جدال .. المنازل هي هي ، والطرقات كما عهدنا .. بل والناس الذين ألفنا أن نراهم في طريقناهم بأنفسهم وأشكالهم ، وملابسهم ، ولهجاتهم .. بل حتى بألفاظهم المازحة ، ونكاتهم الماجنة التي يرددونها كلما رأوا قافلة من قوافلنا تعبر الطرقات متجهة نحو متجري الكبير هناك في آخر

المدينة من ناحيتها الجنوبية .. وقد كنت أنظر واسمع وكأننى فى حلم غريب ، كأن فى إنسانًا آخر هو الذى يتحرك مع القافلة وهى تنتقل من شارع إلى شارع ، ومن درب إلى درب .. وحين وصلنا إلى المتجر وأنخنا الرواحل ، جلس الحادى عند الباب وهو مطرق ، ينكت الأرض بعود فى يده ويهمس لنفسه فى إصرار :

ـ أبدًا ، دوريز على مسيرة ثلاثة أيام ..

ـ أصمت أيها الملعون .. هل تخرف ، وأين نحن الآن ، والطرقات والناس ، وهذا المتجر .. أقسم لقد لمحت الكثير من أصدقائى فى الطريق ، بل ولوحت لهم فردوا على تحيتى كما تعودوا فى كل مرة ..

ولكن صوته رغم نبرة العنف والثورة التى يتحدث بها كان مليئًا بشىء آخر ، كأنما كان يحاول أن يمنع نفسه من الشك ، كأنه يحاول أن يقنع نفسه التى تتمرد عليه وتأبى أن تصدق ما ترى وما تسمع .. وخشيت من عودة الانفجار الذى عانيناه ونحن نشرف على المدينة من بعيد فأسرعت أحسم الأمر قائلاً للرجال :

ـ سيذهب كل منا إلى منزله ليرى أهله وناسه ، ثم نتقابل هنا بعد ساعة .. فإن وجدنا كل شىء كما هو فنحن فى دوريز ويكون حسابنا قد أخطأ .. وإلا فسنرحل عن المدينة فى الحال ..

وقد كان حديثى هذا يحمل من الشك أكثر مما كنت أود أن أبديه .. فلم يكن معقولاً بعد كل الذى رأينا أن أترك حسم المسألة للتأكد من منازلنا وأهلنا .. ولكن موافقة الجميع على هذا الاقتراح دلنى على أن بذور الشك التى تملأ نفسى إنما هى صدى لتلك البذور التى غرستها يد غريبة لانعرفها فى كل نفوس الرجال الذين جاءوا معى فى القافلة ، وكان هناك رجل واحد أبى أن يتحرك من مكانه أو أن ينفذ ما اتفقنا عليه .. إنه الحادى الذى ظل فى جلسته

منكس الرأس ، يعبث بالعود فى يده ويهمس :

ـ اذهبوا أنتم ، أما أنا فواثق أن دوريز بعيدة عنا ، وإن لم تعودوا فسأرحل إليها وحدى ..

وصمت ، ثم رفع رأسه يتأمل فى وجوهنا وجهًا وجهًا .. وعاد يقول ..

ـ ما زالت الرحلة ناقصة .. أمامنا ثلاثة أيام أُخر ..

ثم أطرق صامتًا وهو يعود إلى نكت الأرض بعوده .. ونظرنا جميعًا إليه فى وجوم ومضى كل منا فى طريقه دون أن نتبادل كلمة واحدة ..

* * *

وصمت الرجل العجوز ، فأخذ الملك «سيف» يتبادل النظرات مع الملك «قان شاه» فى وجوم بينما ران على القاعة كلها صمت كثيف .. وقالت الحكيمة «عاقلة» التى كانت قد دخلت دون أن يحس بها أحد :

ـ أكمل حديثك أيها الشيخ .. هل وجدت منزلك ..

وأردف الملك «سيف» يسأل فى لهفة :

ـ وأهلك وأولادك ..؟.

وأخذ الرجل العجوز يجيل نظره فى الوجوه المتطلعة نحوه فى قلق ولهفة ثم قال :

ـ نعم أيها الملك .. وجدت أهلى وبيتى وأولادى .. كل شىء كما عهدته ..

وساد الصمت قاعة العرش فى قصر ملك دوريز فترة طويلة .. قطعها الشيخ الذى تنهد وهز رأسه كأنما يفيق من حلم كريه .. وقال فى صوت رتيب هامس :

ـ كان كل شىء فى بيتى كما عهدته .. الدار هى الدار ، والأثاث هو

الأثاث .. وحين طرقت الباب أجاب عبدى كما اعتاد ، ثم دخلت دارى لأجد أهلى فى انتظارى كما ألفت منهم .. والتف حولى أولادى يطوقون عنقى بأيديهم ويمطرون وجهى بقبلاتهم .. ولكننى كنت أحس بجسدى كله يهتز للمساتهم ، كان قلبى يخفق فى عنف ، وكان إحساس بالرعب قد بدأ يجتاحنى .. لم يستطع كل هذا أن يزيل الشك عن نفسى والضيق الذى يخنقنى ويشل قدرتى على الرؤية الصحيحة والتفكير السليم .. وكنت أخفى جزءا من مالى فى صندوق صغير لا يعرف مكانه أحد سواى ، فأسرعت أبحث عنه ووجدته كما هو لم تمسسه يد ، منذ تركته فى مكانه آخر مرة قبل رحلتى وحتى عدت لأرفع عنه الغطاء وأحصى ما فيه .. !.

ولم أجد فى نفسى القدرة على الاستمرار فى الجلوس فى المنزل .. كنت أحس أننى لو جلست فترة أخرى فسأجن ، فأسرعت أغادره إلى متجرى وأنا لا هث الأنفاس امسك نفسى عن الجرى بصعوبة بالغة .. ولكننى حين دخلت المتجر وجدت جميع من رافقونى فى الرحلة يقفون فى وجوم وقد أغبرت وجوههم ، وتاهت أعينهم فى نظرة ساهمة شاردة ، وحين همست :

ـ هيا بنا من هنا ..

لم يتردد أحد .. أسرعوا جميعًا يعيدون كل ما أنزلوه عن الرواحل إلى كواهلها من جديد ، ثم تقدم الحادى ومضى يقود الراحلة الأولى فى صمت وقد ضاعت أغانيه ونسى أهازيجه .. حتى الجمال مضت تنقل خطوها فى سرعة حتى تركنا المدينة وراءنا دون أن يعترضنا أحد ..

وبعد ثلاثة أيام لاحت لنا دوريز كما قدرنا .. ودخلنا المدينة فى وجوم وقصدنا إلى المتجر ونحن لا نتبادل كلمة واحدة .. وما أن وضع كل منا متاعه عن راحلته حتى قال الحادى :

ـ هذه الحكاية لابد أن نحكيها للملك فنحن بلاد مؤمنة وسط كفرة ملاعين ..

ودون أن نرد عليه اتجهنا جميعًا إلى هنا لنقص عليكم القصة ..

وسكت الصوت الرتيب الهادئ .. وعاد الوجوم مرة أخرى يسيطر على قاعة العرش فى قصر «قان شاه» والجميع يتبادلون النظرات فى حيرة ودهشة .. وقطعت الحكيمة «عاقلة» هذا الصمت لتقول فى صوت متزن النبرات :

ـ لو كنت صادقًا أيها الشيخ فى روايتك .. وما أحسبك إلا صادقًا .. فهذا من فعل ساحر جبار أراد أن يبلبل أفكار الناس فى مدينة دوريز ليسهل عليه القضاء على جيشها ورجالها .. وليسهل عليه التغلب على إيمانهم بالله وبقدرته ..

فقال الملك «سيف» وهو ينهض :

ـ فى الصباح أيها الشيخ تحضر أنت والحادى إلى هنا فسنسافر معًا لنرى بأنفسنا هذه المدينة التى تحكى عنها ..

وقالت الحكيمة «عاقلة» :

ـ وسأصحبكم فى هذه الرحلة ..

فهب «برنوخ» الساحر قائلاً :

ـ إننى مشوق أن أرى هذه المدينة العجيبة أيها الملك ..

فقال الملك «سيف» :

ـ حسنًا سيرحل معى «برنوخ» و «أخميم» والحكيمة «عاقلة» وسنسافر مع التاجر والحادى متنكرين فى ثياب التجار ، على أن يبقى الملك «قان شاه» هنا ليحفظ المدينة من أى هجوم غادر ..

وصمت لحظة .. ثم قال :

ـ وليحسم الأمر بنفسه إن لم نعد لأى سبب من الأسباب .

- ٢٤ -

بعد ثلاثة أيام من السير السريع الذى لا يعرف الراحة لاحت لهم أسوار المدينة من بعيد ، فهمس التاجر الشيخ وقد شحب وجهه :

ـ هذه هى المدينة أيها الملك ..

وصاح الحادى وهو يتوقف عن السير :

ـ هذه ألاعيب شياطين ..

فقالت الحكيمة «عاقلة» وهى تتأمل منظر المدينة :

ـ إن هذا لا يقدر عليه الشياطين وحدهم .. هناك عقل إنسان جبار وراء هذا العمل ..

فأكمل لها «برنوخ» حديثها قائلاً :

ـ إنه إنسان يفوق كل من رأينا فى السحر والحكمة وضروب الكهانة ..

فقال الملك «سيف» :

ـ ومع هذا هيا بنا ، فلابد أن نرى المدينة من الداخل لنتأكد مما سمعنا ..

وفى صمت عاد الحادى يقود الركب الواجم إلى أمام ، وكلما ازداد اقترابهم من المدينة ازداد شحوب وجه التاجر الشيخ ، ولاحظ الملك «سيف» هذا ، فأمر الحادى بالتوقف وقال للشيخ :

ـ إذا لم تجد فى نفسك الرغبة فى مرافقتنا فتستطيع أن تنتظرنا هنا حتى نعود ..

فقال التاجر الشيخ :

ـ ليس الأمر ما تظن أيها الملك ، وإنما كلما تخيلت أننى سألقى أهلى المزعومين ، وأولادى هؤلاء ينتابنى الدوار وأحس أن الدنيا تلف بى ..

فقال الملك «سيف» مقاطعًا :

ـ ولكن أيها التاجر الشيخ ، ألم تذكر أنهم هم أهلك وأولادك ..؟!.

فقال التاجر وهو يضرب كفًا بكف :

ـ وهذا ما يكاد يذهب عقلى أيها الملك ..

فقال «سيف بن ذى يزن» وقد عقد حاجبيه مفكرًا :

ـ إذن ما الذى جعلك تذكرهم ولا تطمئن إليهم ..؟!.

فعاد التاجر الشيخ يقول وكلماته تخرج فى بطء شديد :

ـ لقد استطاعوا إقناع عقلى تمامًا .. البيت هو البيت ، والناس هم الناس ، والمدينة هى المدينة .. حتى امرأتى والأولاد .. ولكن .. نعم أيها الملك ، قلبى ، لقد رفض أن يصدق ما ألح عقلى عليه أن يصدقه ..

ورفع رأسه وهو يقول فى تأكيد وحماس :

ـ تمامًا .. لقد عرفت الآن .. كان فى كل شىء ما يقنع العقل والتفكير .. ولكن كل شىء فشل فى إقناع القلب والإحساس ..

فقالت الحكيمة «عاقلة» :

إن الإنسان يستطيع أن يخلق أى شىء بعمله وكهانته وسحره ، ولكن الشىء الوحيد الذى لا يستطيعه الإنسان مهما بلغ من العلم والمعرفة هو أن يخلق الروح .. وقد بحثت أرواحكم عما تعودت أن تجده عند أرواح من تعرف فلم تجد ، فشكت ورفضت وتمردت ، وهذا ما لم يحسب هذا الساحر الملعون حسابه ..!.

فقال التاجر الشيخ وقد بدأ اللون يعود إلى وجهه من جديد :

ـ صدقت أيتها الحكيمة .. لقد كنت أحس وأنا أخاطب زوجتى المزعومة وأولادى أننى لست أخاطب بشرًا مثلى .. بل لقد خيل لى أكثر من مرة أننى أخاطب أمواتًا يتحركون ..

فقال الملك «سيف» :

ـ إن هذا الساحر مهما كانت شخصيته يريد أن يثبت قدرته وجبروته وأن يخلق فى الناس الشك والحيرة .. ولابد لنا من كشف أمره فهيا بنا ..

وعاد الركب من جديد إلى التحرك وقد زادت سرعته ، وبدأت سحابة الاكتئاب والوجوم التى رانت عليه فترة تزول لتترك مكانها لتوفز قلق يريد أن يزيل حجب الشك ، ويتعرف على هذا السر المغلق الذى يواجهه ..

وحين دخلت القافلة من باب المدينة قال الملك «سيف» الذى كان يرتدى كالآخرين زى التجار :

ـ أقصد بنا إلى متجرك أيها الشيخ وكأننا نعود من رحلة من رحلاتك العديدة ..

وأشار التاجر إلى الحادى فمضى يقود الطريق فى هدوء وسط طرقات المدينة المليئة بالحركة والناس .. والتفت إليهم بعضهم ثم عادوا إلى ما هم فيه دون أن يتطرق إلى الوافدين أى شك .. وقال «أخميم الطالب» وهم ينحرفون مع انحراف الطريق :

ـ كأنهم دمى متحركة ..!.

فقال «برنوخ» هامسًا :

ـ إنها عيونهم .. ليست بها حياة .. خابية لا تعكس أى انفعال ..

فقالت الحكيمة «عاقلة» وهى تنظر أمامها دون اكتراث :

ـ ينبغى ألا تظهروا الدهشة لشىء ، كما ينبغى ألا تكثروا من التطلع حولكم ..

وصاح الحادى كما يصيح كلما وصل إلى المتجر :

ـ ها قد وصلنا أيها الركب الميمون ..

فصاح التاجر به كما اعتاد أن يصيح :

ـ انخ الرواحل ووزع الأرزاق أيها الحادى ..

واندفع صبية يتصايحون حول الجمال وهى تركع واحدة أثر الأخرى أمام المتجر وأخذ الحادى يقذف إليهم ببدرات من مال وحفنات من حنطة وشعير.. بينما دخل الجميع إلى داخل المتجر فى سكون ، وقال الملك «سيف» للتجار فى صوت خفيض :

ـ ماذا تفعلون عادة عندما تصلون إلى دوريز..؟.

فقال التاجر :

ـ أما أن نقصد إلى بيوتنا لنرى أهلنا ثم نعود لنقصد إلى قصر «قان شاه» لنخبره بأمر تجارتنا فيأمر بما يرى فيها .. وأما أن نقصد إلى القصر أولاً ثم نعود إلى بيوتنا ..

فقال الملك «سيف» :

ـ سنقصد هذه المرة إلى القصر فهيا أحضر بعض الهدايا ولنحملها إلى القصر لنرى ما به ..

واقتربت منهما الحكيمة «عاقلة» وهى تقول للتاجر :

ـ ليحمل هذا العبد الذى يحرس المتجر الهدايا فإنى أريد أن ألاحظه عن كثب دون أن يحس ..

وأحنى التاجر رأسه وهو يصيح بعيدة :

ـ أسرع يا «خطال» وأحمل هدايا الملك وأسبقنا إلى القصر لتعلن قدومنا إليه ..

وما أن اختفى العبد حاملاً الهدايا حتى أخذ الجميع طريقهم إلى القصر ف

أثره .. وكان الملك «سيف» يخفى دهشته فى صعوبة بالغة فقد كان يرى نفس الوجوه ونفس المتاجر التى تعود أن يراها فى دوريز وهو فى طريقه إلى القصر.. وقالت الحكيمة «عاقلة» فى همس :

ـ حتى البضائع هى هى .. لكأننى فى دوريز حقيقة ..

فقال الملك «سيف» :

ـ إننى أمسك نفسى من الاندفاع نحو القصر لتحية «قان شاه» كما كنت أفعل هناك بصعوبة بالغة ..

وقال التاجر وهو يصيح بالعبد الواقف عند باب القصر :

ـ هل أخذت لنا الإذن بالدخول إلى الملك يا «خطال» ..؟.

فقال العبد :

ـ لقد أذن الحاجب لنا بالدخول ..

فقال التاجر :

ـ إذن هات حملك واتبعنا ..

وحين دخل الملك «سيف» إلى القاعة خفق قلبه فى عنف ، فهناك على العرش يجلس «قان شاه» بلحمه ودمه ، وإلى جواره تمامًا يجلس من يشبهه تمام الشبه ، وهمست الحكيمة «عاقلة» :

ـ يالله .. لكأنه أنت أيها الملك ..

وقال «برنوخ» فى انفعال :

ـ لو لم تكن معنا أيها الملك لظننته أنت ..

فابتسم الملك «سيف» وهو يقول :

ـ وها أنت يا «برنوخ» إلى جواره ..

وكان الواقف إلى جوار الملك «سيف» المزعوم «برنوخ» الساحر كما كانت الحكيمة «عاقلة» تجلس فى مكانها بالمجلس وكذلك «أخميم

الطالب» .. والفرسان الأربعة .. وصاح التاجر وهو يتقدم خطوة عن رفاقه :

ـ التحية لك أيها الملك «قان شاه» .. لقد عادت تجارتنا علينا بالربح الوفير بفضل الأمن الذى ينشر ربوعه فوق أرضك ، وهذه هديتك منها ..

وقال «قان شاه» المزعوم بنفس الصوت الحبيب الذى ألفه الملك «سيف» :

بارك الله لك أيها التاجر فى تجارتك وسفرتك ، أعرضها على أخى الملك «سيف» ليرى فيها برأيه ..

وكاد الملك «سيف» ينشق من الغيظ وهو يرى ذلك «السيف» المزعوم وهو ينحنى فوق الهدية يتأملها ، ثم يربت على كتف العبد فى مودة ، ويقول للتجار فى صوت هو صوته نبرة نبرة :

ـ الهدية مقبولة أيها التاجر المؤمن .. وزعها بنفسك على فقراء المدينة هبة من الملك «قان شاه» ..

وهمس «سيف بن ذى يزن» فى أذن التاجر ، والعبد يتراجع بالهدية :

ـ حدثه بأمر المدينتين كما حدثتنا هناك ..

وتردد التاجر الشيخ قليلاً ثم تقدم خطوة وهو يقول :

ـ لقد حدث لى فى رحلتى أمر عجيب أيها الملك أريد أن أقصه عليك لترى فيه برأيك ..

فقال الملك «سيف» المزعوم وهو يعود إلى مقعده بجوار «قان شاه» :

ـ ما هو أيها التاجر الطيب ..؟.

فعاد التاجر الشيخ إلى التردد ، ولكن الملك «سيف» لكزه برفق .. فقال التاجر الشيخ :

ـ لقد رأى الحادى فى الطريق إلى هنا مدينة أقسم أنها دوريز فكدنا أن

نتجه إليها لولا أننا خشينا أن يكون فى الأمر حيلة فمضينا فى طريقنا إلى هنا دون توقف ..

فابتسم «سيف» المزعوم وهو يقول :

ـ أحسنت أيها التاجر الشيخ فهذه هى دوريز ، وقد كثرت شكاوى التجار من هذه المدينة المزعومة ، ولكن الله جنبك الزلل فجئت إلى هنا دون أن تعرج عليها ..

وقال «قان شاه» المزعوم وهو يحدق فى التاجر الشيخ :

ـ ولكن لماذا لم تدخلوا المدينة الأخرى أيها التاجر ..؟!.

فاضطرب التاجر ولكن لكزة أخرى من الملك «سيف» أعادته إلى هدوئه فقال :

ـ لقد كنت أصر ، وكان الحادى معى فى الرأى ، أنه ما زالت هناك ثلاثة أيام قبل أن نصل إلى مدينة دوريز ، وقد اختلف الباقون معنا فقالوا إن حسابنا خاطئ .. ولكننى شيخ القافلة والمسئول عنها .. وهكذا أيها الملك واصلنا رحلتنا ..

فهز «قان شاه» المزعوم رأسه وهو يقول :

ـ أحسنت أيها الرجل وسنجعلك من الآن كبير تجار المدينة ، كما أننى سأعهد إليك بمهمة خطيرة وهامة .. فهل أنت على استعداد .. ؟!.

فقال التاجر الشيخ :

ـ أنت تأمر أيها الملك وأنا أنفذ ما تأمر به ..

فقال «قان شاه» المزعوم ..

ـ إذهب أولاً إلى بيتك وأهلك ، ثم عد إلىّ مع كل رفاقك فأنتم الرجال الذين أريد ..

فانحنى التاجر فى عجلة واحترام .. وانحنى لانحنائه الملك «سيف» ومن

معه ، ثم انسحبوا من القاعة فى خطو هادئ متزن لا يشى بما يضطرم فى قلوبهم من قلق واضطراب .. .

وحين خرج الجميع من القصر قال التاجر للعبد «خطال» :

ـ اتبعنا بما تحمل لنفرقه على الفقراء ..

فقال الملك «سيف» :

ـ بل لابد لنا من أن ننفذ أمر الملك بروحه ..

فقال التاجر للملك «سيف» :

ـ ماذا تعنى يا صاحبى ..؟.

فقال الملك «سيف» :

ـ سأوزع تجارتى كلها على الفقراء ، فإن كان الملك قد أمر بتوزيع هديته فينبغى أن نحذو حذوة فى الكرم ..

فقالت الحكيمة «عاقلة» :

ـ وكذا سأوزع نصيبى كله ..

وتبعها «برنوخ» و«أخميم» يبديان نفس الرغبة ، فقال التاجر :

ـ وأنا أيضًا .. إذن فلنذهب إلى المتجر ونحمل البضائع لتوزيعها قبل أن نذهب إلى ديارنا ..

فقالت الحكيمة «عاقلة» :

ـ لنخرج بالبضائع إلى خارج المدينة حيث يتجمع الغرباء وأبناء السبيل فنوزع عليهم تجارتنا كلها ..

والتفت التاجر إلى العبد قائلاً :

ـ أسرع إلى الحادى وأخبره أن يعيد البضائع على الرواحل كما كانت وجهز نفسك لترافقنا أثناء توزيع التجارة على الفقراء كما أمر الملك ..

وغادرهم العبد مسرعًا بينما قال الملك «سيف» :

ـ إن هذا لا يكفى فـ «قان شاه» المزعوم عرف أننا من المدينة الأصلية ، ولذا فنحن تحت رقابته .. وخروجنا من المدينة سيلفت نظره إلا إذا أحكمنا أمرنا ..

فقال التاجر الشيخ :

ـ هذا أمر سهل أتركه لى ..

ثم وقف براحلته فى وسط الطريق وأخذ يصيح :

ـ أيها الناس ، لقد أمر الملك أن نوزع هديته من تجارتنا على الفقراء والمعوزين باسمه ، وقد رأيت أنا وإخوانى أن نحذو حذوه ونقدم كل تجارتنا هبة للفقراء والغرباء وأبناء السبيل تقربًا إلى الله الذى نجانا من الهلاك إن دخلنا المدينة الأخرى .. فليقصد كل محتاج إلى خارج الأسوار حيث نوزع التجارة هناك على الغرباء الذين يتجمعون دون مأوى خارج المدينة .. وليتبعنا منكم من يريد .. وليبلغ الحاضر منكم الغائب لتعم الفائدة ويشمل الخير كل محتاج ، وتتحقق حكمة الملك وتعم رحمته وشفقته الجميع ..

وتجمع الناس حولهم يسألون والتاجر يجيب ، فدفع الملك «سيف» راحلته إلى أمام وهو يهمس لمن معه من الحكماء :

ـ لنسرع نحن إلى المتجر حتى لا ينكشف أمرنا ولنتركه هو ينشر الخبر فى المدينة ..

فقالت الحكيمة «عاقلة» وهى تتبعه براحلتها :

ـ لست أريد من كل هؤلاء سوى هذا «الخطال» فهو عون من أعوان الجان ، وقد استطعت أن أكشف عنه الرصد الذى يشكله بهيئة عبد التاجر .. وسأتمكن أن أعيده إلى صورته الأصلية لو أبعدنا به عن المدينة ..

فقال «برنوخ» وهو يتبعها :

ـ لو استطعنا أن نظفر به لأرغمناه بالطلاسم على أن يحكى لنا سر الأمر كله ..

فقال «أخميم» الطالب وراحلته تندفع لتلحق بهم :

ـ بل إن كل هؤلاء من الجان وقد تقمصوا فى شخصيات أهل مدينة دوريز بواسطة الطلاسم ..

فقال الملك «سيف» وهو ينحرف مع الطريق الذى يقع المتجر فيه :

ـ إننى أريد أن نخرج من المدينة قبل أن يشك الملعون الذى فعل كل هذا فى أمرنا ..

فقال «أخميم» وهو يحاذيه :

ـ إنه يريد التاجر ويريدنا لكى يتمكن بواسطة سكان المدينة الأصليين من جذب الباقين إلى هنا فيخرب المدينة الأصلية ..

وكانوا قد وصلوا إلى المتجر ، فصاح الملك «سيف» بالحادى :

ـ هل أعددت كل شىء ..؟.

فقال الحادى وهو يدفع الجمال إلى القيام بأحمالها :

ـ نحن مستعدون أيها التاجر ..

فقال الملك «سيف» :

ـ وأين العبد ..؟.

فاندفع العبد خارجًا من المتجر وهو يقول :

ـ أنا مستعد بهدية الملك ، فأين سيدى ..؟.

وما كاد يتم سؤاله حتى ظهر التاجر الشيخ فى أول الطريق ووراءه جمع كبير من الناس ، فقال الملك «سيف» :

ـ ها هو سيدك ، هيا بنا لنلتقى به ونتجه جميعًا إلى خارج المدينة ..

وحمل العبد هدية الملك ، بينما قاد الحادى الجمال المحملة يتبعها المتنكرون فى اتجاه التاجر الذى ما كاد يراهم حتى صاح فى الجمع حوله :

ـ هذه هى التجارة قادمة فاسبقونا إلى خارج المدينة حيث نوزعها بالعدل ..

وانفض الجمع من حوله صائحًا ، وتسارعوا إلى منازلهم يحضرون ما يأخذون فيه أنصبتهم من قدور ومواعين .. بينما انضم التاجر إلى الملك «سيف» ومن معه قائلاً :

ـ لم يبق أحد فى المدينة لا يعلم بأمر خروجنا لتوزيع المال والتجارة على الفقراء ، فإن كان فى نفس الملك المزعوم شك فى خروجنا فهذه الأخبار التى اعتقد أنها وصلته الآن ستزيل من نفسه كل شك ..

فقال الملك «سيف» :

ـ حذار أن يشك عبدك فى شىء فنحن نريده معنا ..

فقال التاجر الشيخ موجهًا حديثه للعبد الذى يهرول وراءهم :

ـ يا «خطال» لك نصيب كبير من هذه الصدقة فأنت أولى بكل خير..

فصاح العبد والحمل يتأرجح فوق رأسه :

ـ الأمر ما ترى يا سيدى فأنت دائمًا الكريم المحسن ..

وما أن وصل الجميع إلى باب المدينة حتى هدأت سرعة النياق ، وبدأ السير الرتيب المعتاد ، وقلب الملك «سيف» يخفق إشفاقًا من قفل باب المدينة عليهم إن كانوا قد اكتشفوا أمرهم .. ولكن القافلة مرت من باب المدينة فى سلام وأخذت تتابع سيرها والتاجر يصيح :

ـ أيها الغرباء ، يا أبناء السبيل ، هذه التجارة كلها لكم فاتبعونا لنوزعها عليكم ..

وكلما سارت القافلة ازداد عدد من يتجمعون خلفها ، وما أن ابتعدت

القافلة مسافة معقولة حتى أشار الملك «سيف» إلى التاجر الذى أمر بالوقوف وانزال التجارة إلى الأرض .. وكان الملك «سيف» قد أعد لرحلته بضائع كثيرة مما ترد إلى دوريز حتى يتقن تنكرهم كتجار عائدين من رحلة بعيدة وفقوا فيها إلى ربح كبير. ولهذا كانت الإبل موسقة بأحمال عدة .. وما أن أنزلت إلى الأرض حتى تجمهر الجميع حولها وهم يتصايحون فى انفعال ، وكل منهم يريد أن يسبق الآخر إلى نصيب أوفر من الأموال التى ستوزع .. ونزل الملك «سيف» عن راحلته وهو يقول :

ـ وكذلك إبلنا ستدخل ضمن الصدقة ..

وتبعه الباقون ، بينما جال التاجر فى الوقوف بعينيه ثم أشار إلى أحدهم قائلاً :

ـ تعال هنا أيها الرجل ، ألست التاجر الذى سرق اللصوص تجارته منذ عامين ففقد ماله وجاهه ..؟!.

فاقترب منه الرجل ، وهو يقول :

ـ نعم .. ومن يومها وأنت تغمرنى بإحسانك كلما عدت إلى المدينة ..

فقال التاجر العجوز :

ـ إذن أنا أوكل إليك توزيع هذه التجارة بالعدل على الجميع ، وسأقف لأرقب ماذا تفعل ..

وانفرجت الحلقة عنهم لتعود فتلتف حول التاجر المفلس الذى أخذ يحصى البضائع ويحصى الوقوف وهو يقول :

ـ كل سيأخذ حقه أيها الرجال فليس أحدكم مثلى فى معاناة الفقر ، وليس أحدكم مثلى فى الرغبة فى دفعه عن الجميع ..

وبينما الجميع مشغولون بالتجارة وتوزيعها ، همس الملك «سيف» فى أذن التاجر :

ـ لنتسلل واحدًا أثر الآخر إلى خلف الأكمة البعيدة تلك .. أما أنت فأصحب معك العبد بحجة إحصاء الهدية التى معه بعيدًا عن أعين المتزاحمين ..

وأحنى التاجر رأسه فى فهم ، بينما أخذ الملك «سيف» والحكيمة «عاقلة» و «برنوخ» الساحر و «أخميم الطالب» والحادى يتباعدون فى حذر وهدوء دون أن يحس بهم أحد من الجمع المشغول بالتدافع حول التجارة وهى تقسم بينهم .

ـ ٢٥ ـ

ما أن وصل التاجر ووراءه العبد إلى الربوة ثم دارا حولها حتى قال التاجر :

ضع الحمل هنا وانتظر لحظة ..

وسرعان ما اختفى التاجر وراء الربوة ، وظهر مكانه الحكماء الثلاثة وهم يتلون التعاويذ ، ويهمهمون بالأقسام والطلاسم .. وردد العبد نظره فيهم لحظات ، ثم أحس فجأة بالذعر يجتاحه فهب واقفًا وحاول الهرب ، ولكن قدميه كأننا مسمرتين إلى الأرض بينما أحاطت به سحابة من دخان قاتم سرعان ما غطت جسده ورأسه ومنعت عنه الرؤيا .. وصاحت الحكيمة «عاقلة» :

ـ أخرج من صورتك الانسية بحق هذه الأقسام وعد إلى صورتك الحقيقية أيها العون وأنت فى أمان ..

وفجأة خرج من العون صوت رهيب وبدا كمن يحترق ، ثم انزاحت السحابة وظهر مكانها مارد عملاق فى عينيه نظرة دهشة وفزع ، وقال «برنوخ» الساحر :

ـ من أنت يا أخا الجن ..؟.

وأجاب المارد فى عناد :

ـ إسمى خطال وأنا «عبد» التاجر ..

وأخذت الحكيمة «عاقلة» تتمتم من جديد ، فأحس المارد بالنار تحوطه من كل مكان فصرخ قائلاً :

ـ صبرًا أيها الساحر .. صبرًا أيتها الحكيمة ، أنا المارد المشمار من جن جزر الواق واق ..

فابتسمت الحكيمة وهي تقول :

ـ هذا أحسن أيها المارد «المشمار» فإن الكذب لا يجدى معنا .. والآن ما الذى حولك إلى صورة الإنس وجعلك على هيئة العبد «خطال» ؟ .

فصاح «المشمار» وهو يحاول أن يجد وسيلة للافلات عبثًا :

ـ سيحرقنى أيتها الحكيمة لو تكلمت ..

فقال «أخميم الطالب» :

ـ وكذلك سنحرقك لو صمت .. أما لو تكلمت فسنطلق سراحك

وقال «برنوخ» الساحر :

ـ بل وسنحميك من بطشه وبطش غيره من السحرة فلا يقوى أحد على تسخيرك فى خدمته بعد هذا أبدًا ..

فأطرق المارد وهو يقول :

ـ إن من يقوى على فك الرصد حولى واعادتى إلى صورتى الأصلية قادر على هذا حقًا ، فهل تعدون لو أخبرتكم بالحقيقة أن تحمونى حقًا من «الغيدروس» و «العادى» ومن معهم من السحرة والكهنة ..

قال «أخميم الطالب» :

ـ نعم نعدك بحق إيماننا وديننا ..

وقالت الحكيمة «عاقلة» :

ـ ومن هو «الغيدروس» ؟ ومن «العادى» ؟.

فقال المارد :

ـ إن «الغيدروس» هو كاهن جزيرة البنات وهو ألذى يحكم على كل الكهان والسحرة فى الجزائر السبعة وهو الذى بنى الارصاد على المدينتين ، تلك التى أبطلها ملككم الملك «سيف بن ذى يزن» ..

فقال «برنوخ» :

ـ تعنى أنه ساحر الملك «قاسم العبوس» ..

فقال المارد :

ـ نعم أيها الساحر الكبير هو كاهن الملك الذى ذكرت وحافظ عبادة النار على أرضه ..

فقال «أخميم الطالب» متسائلاً :

ـ ولكن ألم يصطلح الملك «قاسم العبوس» مع الملك «سيف» ورضى عن زواجه من ابنته ، بل لقد تزوج الملك «قان شاه» من ابنته الأخرى «نور الهدى» .. وتزوج هو نفسه من «مرجانة» الوزيرة المؤمنة ..

فقال المارد :

ـ لقد كان غائبًا عندما حدث هذا ، ولكنه عندما عاد هدد «قاسم العبوس» فعاد إلى طاعته ، وقاد جيوشه لمحاربة الملك «سيف» .. أما «الغيدروس» فهو الذى صنع هذه المدينة بمعاونة مساعدة الكاهن «العادى» ومن معه من الكهنة ، وسخر عددًا كبيرًا من الجان ليكونوا فى صورة سكان المدينة حتى يثبت قدرته وبطشه ، ويتمكن من القضاء على جيوشكم ورجالكم بسحره وكهانته ..

وصاحت الحكيمة «عاقلة» منادية :

ـ أيها الملك ..

فبرز الملك «سيف» من وراء الأكمة يتبعه التاجر والحادى ، فأخذت

الحكيمة «عاقلة» تحكى ما قصه عليها المارد حتى إذا انتهت من قصتها قال الملك :

ـ إذن فقد ارتد «قاسم العبوس» .. إنها الحرب إذن ..

فقالت الحكيمة «عاقلة» :

ـ احضر لنا أيها الملك عدة سحرنا وأدوات علمنا لنجعل ما صنعه «الغيدروس» وبالاً عليه ..

فقال الملك :

ـ ينبغى أن نتحرك بسرعة فإننى أخشى أن يحس أهل المدينة المسحورة باختفائنا فيدركون أن سرهم قد افتضح ..

ثم أخرج الملك «سيف» لوح «عيروض» ودلكه بشدة ، وسرعان ما كان «عيروض» أمامه وهو يقول :

ـ لبيك يا ملك الزمان ..

فقال «سيف بن ذى يزن» :

ـ احضر حالاً كل أدوات الحكيمة «عاقلة» و «برنوخ» و «أخميم» إلى هنا ، وانصب لهم خيمة خلف الأكمة .. واحملنى أنا والتاجر والحادى إلى المدينة فلا بد من العودة بالجيش كله إلى هنا ..

وحين اختفى «عيروض» حاملاً الملك «سيف» والتاجر العجوز والحادى ، قال المارد «المشمار» :

ـ أهذا هو الملك «سيف» المنصور دائمًا على كل أعدائه بقوة إله لا يراه أحد ويرى كل الناس ..

قالت الحكيمة «عاقلة» :

ـ إنه هو أيها المارد «المشمار» ..

فقال المارد :

ـ ويطيعه رجال العلم من الإنس ورجال الحرب من الفرسان كما يطيعه الجان سواء بسواء..

فقال «برنوخ» الساحر :

ـ إنما يطيعه المؤمنون منهم أيها المارد..

فقال المارد ، وهو يطرق :

ـ وكيف يكون هذا الإيمان..؟.

فصاح «أخميم الطالب» :

ـ مرحى..أهلاً بك فى حظيرة الإيمان.. تعال هنا يا بنى أعلمك عبادة الملك القهار..

وبينما كان «أخميم الطالب» يقود المارد «المشمار» بعيدًا ، التفتت الحكيمة «عاقلة» إلى «برنوخ» الساحر ، وراحت تشاوره فى الخطة التى تتبع للقضاء على سحر «الغيدروس» و «العادى».. وما كادا ينتهيان من مشاوراتهما حتى ظهر «عيروض» حاملاً الخيمة والأدوات المطلوبة ، وأسرع ينصبها لهم بحيث تخفيها الأكمة عن العيون.. وأقبل «أخميم الطالب» يقود «المشمار» من يده وهو يقول لـ «عيروض» :

ـ هذا يا «عيروض» أخ لك فى الإيمان فاحرص على أن تحسن معاملته لأنه يريد مخلصًا أن يعاونا فى حربنا مع عبدة النار..

ثم دخل «أخميم الطالب» إلى الخيمة ليلحق بالحكيمة «عاقلة» و «برنوخ» الساحر اللذان سبقاه إليها ، وسرعان ما تعالت همهماتهم وأقسامهم ، وانبعث من الخيمة رائحة بخور قوى.. وقال «عيروض» «للمشمار» :

ـ ليقف كل منا عند ناحية من هذه الأكمة لنحرس الحكماء ، وهم يقومون بعملهم.. ولنرقب المدينة حتى ننبههم إذا خرج منها أحد..

ولم يطل انتظار الماردين ، إذ سرعان ما خرجت الحكيمة «عاقلة» من الخيمة وهى تصيح :

ـ يا «عيروض» ..

وأقبل «عيروض» إليها مسرعًا ، فعادت تقول :

ـ هذه القوارير الأربعة المليئة بالزئبق المطلسم تضع واحدة عند كل ركن من أركان الوادى المحيط بالمدينة ، ثم تفتح سدادة كل منها وتعود إلى مسرعًا وإلا أحرقتك ..

فقال «المشمار» :

ـ يضع «عيروض» القوارير وأنا أفتح السدادات وراءه فلا نضطر إلى التمهل أو الوقوف ..

فقالت الحكيمة «عاقلة» :

ـ إذن أسرعا .

* * *

قال «الغيدروس» للكهين «العادى» الذى كان يتنكر على هيئة «قان شاه» بينما كان «الغيدروس» متنكرًا على هيئة الملك «بسيف» :

ـ لقد طال غياب هذا التاجر الذى أتى من مدينة دوريز .

فقال «العادى» :

ـ لقد أخبرنى الجواسيس الذين أرسلت بهم فى أثرهم أنهم توجهوا إلى خارج المدينة لتوزيع كل تجارتهم ..

فقال «الغيدروس» :

ـ لست أدرى لماذا أحس بالضيق وعدم الارتياح ..

فقال «العادى» :

ـ لقد طلبت منه العودة لأنه قد ساورنى نفس الإحساس ولو أننى لم أحب أن أزعجك به .. وعلى أية حال لنستدع من جعلناهم على صورة الفقراء من الجن لنسألهم عما تم فى أمر التاجر ومن معه ..

فقال «الغيدروس» :

ـ لا بد من إعادتهم إلى صورهم الأصلية أولاً ، فإنهم فى صورتهم الحالية لن يعرفوا إلا ما كان يمكن أن يعرفه الفقراء الحقيقيون أنفسهم .. هيا بنا إلى حجرة أرصادنا ..

ودخل الساحران حجرة الارصاد ومضيًا يعزمان .. وسرعان ما تصارخت أعوان الجان متدافعة إليهما .. وقال «الغيدروس» :

ـ أين التاجر صاحب التجارة ومن معه ..؟.

فقال واحد منهم :

لقد فروا أيها الكاهن .. تركونا ونحن على الصورة الآدمية نتعارك حول التجارة ، وأخذوا «المشمار» معهم إلى خلف الأكمة التى تواجه باب المدينة ..

فقال «العادى» :

ـ ومن هو التاجر؟..

فقال آخر :

ـ التاجر تاجر حقيقى من مدينة دورريز ، أما من معه فهم الملك «سيف» والحكماء ..

فصاح «الغيدروس» :

ـ الملك «سيف» بنفسه .. هذا ما حدثتنى به نفسى ..

ثم ضبط غضبه وقال :

ـ ومن هم الحكماء الذين كانوا معه ..؟.

فقال ثالث من أعوان الجان :

ـ الحكيمة «عاقلة» كاهنة المغرب وحكيمة مدينة قرون .. و «برنوخ» الساحر كبير الفج الأعظم ، و «أخميم» الطالب حارس قبر الملك سام بن نوح وذخائره ..

فصاح «الغيدروس» :

ـ وهؤلاء هم من تركناهم يفلتون بعد أن كشفوا أمرنا .. عليكم بهم ، ابحثوا عنهم فى كل مكان وأسرعوا ..

وبينما اندفع أعوان الجان مسرعين ينفذون أمر «الغيدروس» هرع هو و«العادى» إلى الملك «قاسم العبوس» الذى كان يقيم مختفياً عن الأنظار هو وجنوده خارج المدينة تحوطهم أرصاد خفية تمنع عنهم الأبصار وتخفيهم عن العيون .. وقال «قاسم العبوس» بعد أن سمع القصة .

ـ لقد قلت لك أيها الكاهن أن هذا الملك صعب المراس ولا يقوى أحد على محاربته ، فأخبرتنى أنك قادر على هزيمته .. وها هو قد كشف أمر هذه المدينة دون عناء ..

فقال «الغيدروس» :

ـ لن يمضى وقت طويل حتى يحضره أعوان الجان هو وسحرته هنا مكبلاً ..

فقال «العادى» :

ـ أنسيت أيها الكاهن أنك أرسلت قبل هذا ماردًا لاختطافه فلم يستطع أن يقترب منه .

فشحب وجه «الغيدروس» وقال :

ـ إذن هى الحرب لنتأهب لها ..

والتفت إلى «قاسم العبوس» قائلاً :

ـ أنت بجنودك وفرسانك ، وأنا مع السحرة والكهان ، وستنصرنا النار المقدسة عليه ..

ولم يتم «الغيدروس» حديثه حتى كان من أرسلهم من أعوان الجان أثر الملك «سيف» يدخلون عليه مسرعين وهم يتصايحون والنار تشتعل فى أكثرهم .. وفزع «الغيدروس» وهب واقفًا وهو يصيح :

ـ ما هذا ؟.. ماذا حدث لكم ..؟.

فقال أحدهم وهو يحتضر :

ـ النار أيها الكاهن .. نهر من الزئبق يتدفق ليحيط بالمدينة من جوانبها الأربع ، ما أن يمس واحدًا من الجن حتى يشعل فيه النار .. ولا خلاص ..

ثم تهاوى رمادًا فوق الأرض وإلى جواره من تبقى ممن كانوا معه .. واندفع «الغيدروس» هاربًا وصيحات الجان المحترقين تطرق رأسه بعنف ووراءه «العادى» و «قاسم العبوس» .. وعند باب المدينة توقفوا ليشهدوا وهم شاحبو الوجوه فيضانًا عاتيًا من الزئبق يحيط بهم من كل مكان ، ويزحف نحوهم فى عنف .. وهمس «قاسم العبوس» :

ـ لن تمر ساعات إلا وهو هنا عند أبواب المدينة ..

وصرخ «الغيدروس» :

ـ سأفك هذا النهر المطلسم ..

فقال «العادى» فى يأس :

ـ ليس هناك وقت أيها الكاهن .. بل الأجدى أن نسرع لفك من نقدر على فكهم من أعواننا من الجان ليهربوا بأنفسهم قبل أن يغرقهم النهر، أما نحن فليس علينا خطر لأن هذا النهر لايؤذى إلا الجان وحدهم ..

فصاح «الغيدروس» وقد أربد وجهه وبدت عليه معالم الجنون :

ـ إنهم يحرقون مدينتي ، يدمرون عملي ، يقضون على أعواني .. لا .. لابد أن أفك طلاسمهم ..

واندفع يجرى نحو بيت رصده ، بينما قال «قاسم العبوس» «للعادى» :

ـ أسرع أنت واجمع باقى الكهنة وحاولوا قدر إمكانكم أن تنقذوا من الجان من تستطيعون ، فكوا طلاسمهم واتركوهم ينطلقون إلى السماء فلم يعد لهذه المدينة وجود ..

* * *

حينما وصل الملك «سيف» وجنوده إلى المدينة المطلسمة كانت الحكيمة «عاقلة» و «برنوخ» الساحر و «أخميم الطالب» منهمكين فى طلاسمهم وقد وصل النهر الزئبقى فى زحفه إلى منتصف المدينة فاحترق سورها وشوارعها التالية له واختفت .. وشهد الجميع معركة رهيبة تدور بين النهر والمدينة ، فهو مرة يتقدم ومرة يتراجع وصيحات أعوان الجان تتعالى وهم يحترقون بالنار فى منظر رهيب قاس .. وقالت الحكيمة «عاقلة» :

ـ إنه يبذل كل جهده ليرد النهر ، ولكنه لن يستطيع ..

فقال الملك «سيف» :

ـ وأين ذهب باقى المدينة ..؟.

فقالت الحكيمة «عاقلة» وهى تبتسم :

ـ ابتلعه هذا النهر أيها الملك .. إن هذا النهر الأبيض اللامع هو نهر الحقيقة ما يمس الزيف حتى يحرقه ويدمره .. ولما كانت المدينة كلها زائفة فإن كل جزء يمسه ماء هذا النهر يحترق فى الحال ..!.

وصاح «عيروض» وهو يعود مسرعًا نحوهم :

ـ انظروا لقد ابتلع النهر المدينة ..

وكان النهر قد تمكن من الأطباق على المدينة كلها ، فلم يعد يرى منها سوى شرارات ملتهبة تتصاعد مع صيحات الجان المحترقين الذين لا يستطيعون فرارًا ، وصورتهم الأنسية تحد من حركتهم وتمنعهم من الهرب .. وقالت الحكيمة «عاقلة» :

ـ هذه هي نهاية مدينة «الغيدروس» .

وقال الملك «سيف» معقبًا :

ـ المدينة الزائفة .. !.

فقال التاجر العجوز . وكان قد أصر على اصطحاب الجيش :

ـ مدينة بلا روح .. مدينة الأشباح ، خلفها رجل واحد .. وماتت عندما انهزم هذا الرجل أمام من هو أقوى منه علمًا وحكمة ..

وقال «برنوخ» :

ـ سنكشف الآن غطاء السحر عن الجنود المختفين ..

وبينما مضى الحكماء يتمتمون ويتلون الأقسام ، أخذت الضبابة الكثيفة ، التي علت المكان الذي كانت فيه المدينة ، تنقشع .. بينما غاص نهر الزئبق وهو يتراجع إلى أربعة أركان الوادي .. وأمامهم كان جيش «قاسم العبوس» وقد تأهب للقتال .. وصاح «دمر» .

فقال أبوه الملك «سيف» :

ـ ها هو قد انكشف أمامنا يا «دمر» وأصبح الحكم الآن للسيف وحامليه ..

وصاحت الحكيمة «عاقلة» :

ـ أنا «للغيدروس» ..

وصاح «برنوخ» الساحر :

ـ وأنا «للعادى» ..

وصاح «أخميم الطالب» :

ـ وأنا للكهنة الباقين ..

واندفع كل منهم نحو من اختاره ليكون غريمًا له ، بينما صاح «دمر» :

ـ وأنا لهذا الملك «قاسم العبوس» ..

فأمسك الملك «سيف» بيده وهو يقول :

ـ كلا يا بنى إنه لى أنا فاتركه ، ولا تحمل على سيفك دم جد أخيك «مصر» ..

واندفع الملك «سيف» نحو الملك «قاسم العبوس» وهو يجرد حسامه من غمده ..

وكانت المعركة رهيبة وقاسية ، وكان كل من الطرفين المتحاربين يدرك أنها حرب فناء .. فاما هو واما عدوه ، وقاد «قان شاه» ميمنة الجيش بينما قاد «دمر» ميسرته .. أما الملك «سيف» فلم تطل معركته مع «قاسم العبوس» إذ سرعان ما أسره وجرده من سلاحه ، وحمله إلى مؤخرة الجيش وهو يقول له :

ـ لست أدرى أيها الملك سر انقلابك علينا بعد ايمانك وزواجك من «مرجانة» الباسلة .

فقال «قاسم العبوس» وهو يتهالك إلى الأرض :

ـ ما كنت أستطيع أيها الملك أن أخالف «الغيدروس» إنه القوة الحقيقية فى بلادى ...

فقال الملك «سيف» فى مرارة :

ـ إنت معى حين تكون القوة فى صفى ، ومعه حين تكون القوة فى

صفه .. ما أسهل هذا .. ولكن لا بأس فأنت الغانم فى الحالتين ، فإن انتصر هو فأنت ملكه وسيده ، وإن انتصرت أنا فأنت أبو زوجتى وأبو زوجة قان شاه .. ولكن لا بأس .. إن الحياة مليئة بمن هم مثلك ممن لا يعرفون لأنفسهم وجودًا إلا فى ظل الآخرين ..

ثم تركه واندفع إلى المعركة المحتدمة يقود قلب جيشه متغلغلاً فى جيش « قاسم العبوس » الذى بدأت صفوفه تنهار أثر أسر ملكه ..

وكانت الحكيمة « عاقلة » تحاور « الغيدروس » وتداوره .. وكلما فتح بابا من أبواب الكهانة سدته عليه ، وكلما دبر لها مهلكًا كشفت أمره وأفسدته .. حتى كل وأصابه الوهن ، وقد فت فى عزيمته ضياع مدينته وانهيار خططه .. واقترب منهما « دمر » فوقف يشاهد حربهما فى ذهول ودهشة .. وشاهدها وهى تمسك حصاة من الأرض وتدمدم عليها فإذا هى حجر كبير ثم تقذفه نحو « الغيدروس » ويتمتم « الغيدروس » تعاويذه ثم ينحرف عن الحجر فيسقط على الأرض دون أن يمسه وقد عاد حصاة صغيرة .. وهمس « دمر » لنفسه :

ـ إن هؤلاء السحرة لا يموتون إلا بالحجارة ..

ومد يده إلى الأرض فرفع حجرًا ثقيلاً ثم قذف به بكل قوته نحو رأس « الغيدروس » ولم يكن « الغيدروس » ملتفتًا إليه ، بل كان يوجه كل همه نحو الحكيمة « عاقلة » فأصابه الحجر فى رأسه فرماه إلى الأرض وقد تحطمت رأسه تمامًا وتناثر مخه ، وتصايح الجند فزعين وهم يشهدون مصرع « الغيدروس » بينما قالت الحكيمة « عاقلة » .

ـ لا شلت يدك يا « دمر » لقد أرحتنى من هذا المأفون ..

وصاح « العادى » فى « برنوخ » :

ـ لقد مات « الغيدروس » ولا داعى لاستمرار هذه الحرب ..

فقال « برنوخ » :

ـ وتسلم نفسك ..

قال « العادى » :

ـ نعم .. بل وأعلن ايمانى بهذا الإله الذى ينصركم أبدًا ..

فقال « برنوخ » :

ـ إذن خيّر باقى رفاقك بين الإيمان أو الموت ..

وجاء صوت « أخميم الطالب » صائحًا :

ـ لقد استسلم باقى الكهنة وآمنوا ..

ومن ورائه جاء صوت « سعدون » :

ـ لقد انتهت المعركة واستسلم الجيش ..

وعقب « دمنهور الوحش » ساخرًا :

ـ تعنى من بقى منه حيًا ..

فقال الملك « سيف » :

ـ إجمعوا الأسرى واعرضوا عليهم الايمان ، فمن آمن فهو معنا والا فليس له إلا السيف ..

فقال « سابك الثلاث » :

ـ إن ملكهم قد أسر ، وحكيمهم قد مات فعن أى شىء يدافعون ..

فاندفع « ميمون » الهجام نحو الملك « سيف » وحسامه يقطر دمًا قائلاً :

ـ لقد أبدى الجميع رغبتهم أيها الملك فى أن يتبعوا ديننا ..

فقال الملك « سيف » :

ـ إذن هيا بنا إلى المدينة ، فقد آن لهذه الجزر أن تستريح من الشر وعبادة النار وخبث الكهنة الكفار ..

- ٢٦ -

قال الملك «سيف» للملك «قان شاه» وهما فى مجلسهما فى قصر دوريز :

- لقد استتب لك الأمر أيها الملك ، ولابد من ارتحالنا إلى حمراء اليمن .. فقد اشتاقت نفسى إلى بلادى ..

فقال «قان شاه» :

- لست استطيع أن أطلب منك البقاء أيها الملك ، فكفى ما فعلته من أجل هذه الأرض التى كانت تعيش فى ظلام دامس وكراهية عميقة ، فأعدت كل شىء فيها إلى النور والصواب ..

وقال «قاسم العبوس» :

- سأصحبك أيها الملك وأعيش فى قصرك واحدًا من رجالك إلى جوار ابنتى «منية النفوس» وزوجتى «مرجانة» ..

فقال الملك «سيف» :

- إن هذا ما قررته أيها الملك ، فلا مكان لك فى جزر واق الواق .. إذ هى منذ اليوم تحت حكم «قان شاه» ..

فقال «قاسم العبوس» :

- لست طامعًا فى شىء ، وإنما أريد أن أودع ابنتى «نور الهدى» زوجة الملك «قان شاه» قبل السفر ..

فقال الملك «سيف» :

ـ إذن فاذهب إليها الآن لأننا مرتحلون عند الفجر..

وحين انصرف الملك «قاسم العبوس» دلك الملك «سيف» لوح «عيروض» فظهر أمامه فى الحال ، فقال له الملك «سيف» :

ـ كما جئت بنا أيها المارد عد بنا إلى ديارنا .. هيا أمامك ساعات الليل تستدعى فيها من عاونوك على نقل الجيش إلى هنا ..

فقال «عيروض» :

ـ إن أعوانى أيها الملك لا يكفون ، بل لا بد من معونة «عاقصة» ..

فابتسم الملك «سيف» وهو يقول :

ـ ستعاونك «عاقصة» وقد أرسلتها قبل أن أستدعيك لتحضر أعوانها هى الأخرى ، وسيكونون جميعًا هنا قبل الفجر..

فقال «عيروض» :

ـ أتذكر ما وعدتنى به أيها الملك ..؟.

فقال الملك «سيف» :

ـ وأنا عند وعدى علىّ الوفاء به .. فقط أترك هذا الأمر حتى نعود إلى حمراء اليمن .

فقال «عيروض» فى الحاح :

ـ سيشغلك أولادك هناك عنى ..

فقال الملك «سيف» وهو يبتسم :

ـ أنا لا يشغلنى شىء عن الحب .. وأنت تحب ، وأقسم أننى لن أهدأ حتى أجمعك بمن تحب .. فبلادى يحكمها الحب وحده الذى هو جوهر ديننا ، وكما جمع الحب بين الإنس من اتباعى فلا بد أن يجمع الحب بين الجان منهم أيضًا ..

وعند الفجر ودع الملك «سيف» صديقه الملك «قان شاه» وزوجته «نور الهدى» .. ثم ارتفع بهم «عيروض» و «عاقصة» ، واتباعهما فى الطريق إلى الوطن .

تمت

رقم الإيداع : ٩٤٠٩/ ١٩٩٠
الترقيم الدولى : ٤ ـ ٠٠١٨ ـ ٠٩ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣